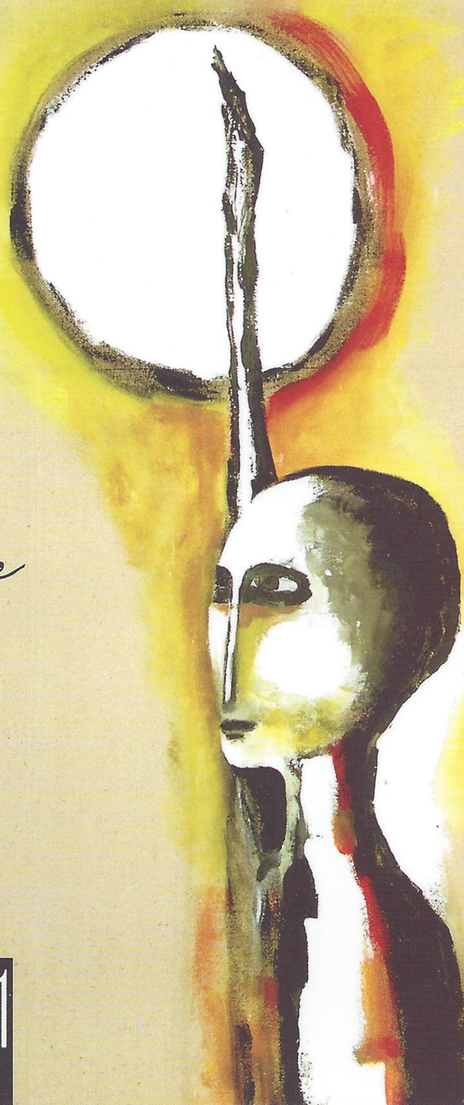
الطبعة الرابعة

محمد حسن علوان

طوق الطهارة



رواية

دار الساقي

«كانت كتابة الرواية تشبه زرع حقل من الأفيون، يخدّرني إلى أجل مسمّى. فَصَدَ منِّي الكثير من الكلام، كي تعود الروح إلى دورتها المطمئنّة عدة سنوات، قبل أن يتراكم كلام آخر، تضيق به المسارب، والطرقات، ومحاولات التفادي والإنكار، وتنمو على القلب مرة أخرى أعشابه العشوائية المعتادة، وينتابني الصحو المؤلم عندما ينتهي مفعول الرواية السابقة.» (المؤلّف)

«تحفل بالتشويق والإثارة... من رومانس الحياة الجديدة في السعودية.» (جريدة الرياض)

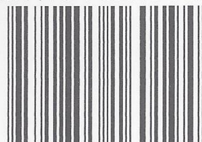
«طوّق المؤلّفُ القارئ بـ «طوق الطهارة»، وجعل من الصعب عليه كسر هذا الطوق بسهولة.» (جريدة الحياة)

«سرد يشبه «الجاز» والنشيد الحزين.» (جريدة السفير)

«أسلوب أصيل رغم بساطته.» (جريدة النهار)

محمد حسن علوان روائي سعودي. صدرت له في الرواية عن دار الساقي «صوفيا» و«سقف الكفاية» و«القندس» التي وصلت إلى القائمة القصيرة لجائزة بوكر العربية.

ISBN 978-1-85516-019-4





DAR AL SAQI
دار الساقي

طَوقُ الطّهارة

لوحة الغلاف للفنانة التشكيلية السعودية تغريد البقشي
www.bagshiart.net

محمد حسن علوان

طوق الطهارة



دار الساقي

الطبعة الأولى 2007
الطبعة الرابعة 2013

ISBN 978- 1- 85516- 019- 4

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت.
ص.ب.: 113/5342. الرمز البريدي: 2033 - 6114

هاتف: 866442 -1 -961+، فاكس: 866443 -1 -961+

e- mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على

@DarAlSaqi

دار الساقي

Dar Al Saqi

I

هذه المرة أكتب بنيّات متعددة.

وأعرف أن فرقاً شاساعاً سيؤلم ذهني، ولن ينتبه إليه أحد. أنا الذي أكتب الآن على ورقٍ يابس، وأمارس هذا القمار الثقيل، وقد انقسم إيماني إلى أجزاء لا يعرف أيٌّ منها طريق النافذة، ولا شكل السماء. لم يبق عندي إلا نصف الشوق، ونصف الليل، ونصف اللغة، بعدما تركتني الأنصاف الأخرى من أجل حياة أكثر جدوى، وطريق أكثر أماناً.

هذا ما يجعلني بطيئاً وخائفاً؛ أكتب على مهل مثلما تُنقش التوابيت، وأراقب في سطح ذهني مئات الوجوه التي لا أعرف أياً منها، ولكنها طفرت فجأة على الورق، مثل جماعات الغجر، وصار لزاماً عليّ أن أرقص معها أو أموت غريباً. حاصرتني هذه النيّات المتعددة، بعد أن كان يستحيل عليّ أن أكتبَ بأكثر من نية، مثلما يستحيل أن أكتب بأكثر من قلم، خشية أن يخرجني هذا من فردية الكتابة، ويجعلني كالرسامين الذين يرسمون بألوان كثيرة، ولا أستطيع أن أقلدهم في ضلالهم المتعدد، فما الذي يحدث الآن يا ترى؟

صرتُ مثل الأسترالي الأصلي الذي استيقظ من النوم ليجد العا لم قد انتقل إلى قارته، وقرر أن يشاركه فيها! وأنا لا أعرف فن الحرب، ولا حتى فن السلم، ولا أعرف فعلاً، معنى أن يكون هناك آخرون على وجه الكتابة، أقاسمهم الوحشة والنزق، فلا يردون عليّ قميصها المفقود. أنا الذي تعودتُ أن أكتب الأحلام، وأحشرها في كبسولة تحت اللسان، وأنساها، وجدتُ نفسي هذه المرة، موقوفاً على جانب الطريق، متهماً بحيازة أحلام باطلة، وكبسولات غير مشروعة!

كيف يمكن أن أحتسب أجر هذه الضوضاء في غرفة من الروح، كانت هادئة، كما يليق بعاشق سابق؟ وكيف يمكن أن يخرج هذا الكتاب الصعب من وراء الغياب، ليضطرني فجأة إلى تغيير عادات أصابعي، وسكنات يدي، وتقاليد الكلمات، ورائحة الورق، ويُدخلني في جدل طويل مع ضمائر لا أعرفها، وقوانين لا أفهمها، ونيّات لا تصلح أبداً لكتابة كاملة؟

تقلقني هذه الانقلابات المفاجئة في الحرفة التي ركدت داخلي مثل جدول قديم، وأنا لا أعرف تماماً كيف تُمارسُ الانقلابات، وليس في تاريخي ثورة واحدة. ما زلتُ متمسكاً بهذا الدستور البسيط، وكتابتي ذات النية الواحدة هي كل ما تعوّدته، وثقفتُ عليه قلبي، ولا أعرف من طرقاتها المتشعبة أكثر من تحديد البقعة المناسبة للكتابة إذا فقدتُ الأرض، والجلسة المثلى لتخطيط القلب، إذا أبى إلا أن يقيس أوجاعه بعرض الورق، أما أن أفتح دكاناً غريباً من كلمات وبراهين كبيرة، وأقدّم للمجهولين تقارير عن حزن حياتي، وعثارهاً

الذي لا ينتهي، فهذه نيّات صعبة، تعوق يدي، وتجعلها أقصر كثيراً مما كانت عليه.

في الحنين الماضي كان الأمر مختلفاً. كنتُ أكتبُ في كنف مصباح وفيّ، يعرف وجهي أكثر مني، ويعرف متى يتواطأ طوعاً مع اقتراب البكاء، ثم ينطفئ عمداً عندما يبدأ الألم بجرفي خارج الكتابة، والآن صرتُ أرتكبُ كتابةً تشبه الرقص الوضيع في صخب السامعين الناكرين، وخونة الحكايات.

ثمة فرقٌ بين الكتابتين ولا شك، حاولتُ أن أشرحه لقلة من الناس الذين تحلّقوا حولي ذات جزع، واستجابوا للغناء الخافت، وطقطقة الحنين، وأشعلوا معي أوراق كتابي، وجلسنا نتدفأ من البرد المشترك. فرقٌ كبيرٌ بين الوعي الذي يحاصرني الآن بقوانين مريبة، مثل وجود أناس آخرين، حزانى، وملعونين، وقطّاع أمل، يتقاطعون معي في قصص متشابهة، وبكاءٍ باهت، وبين اللاوعي الجميل الذي تعلمته منها أثناء كتابة النية الواحدة، والذي كان يمنح أوراقي ذات يوم مساحةً عضلية هائلة، وتمارين شاقة من الأمل الموارب.

فرقٌ بين الركض في المضمار الأنيق، ذي المسار الذي لا يقاسمني إياه راكضٌ آخر، ولا يرسلني إلا إلى قارئة واحدة، وبين الركض في يباب من الجائعين، والخائفين، والعاشقين، والمفقودين. جميعهم لهم الأقدام نفسها، والأوهام نفسها، ويركضون في الاتجاه ذاته الذي لا يفضي إلى شيء، ولا يعود إلى نقطة البداية الجميلة أبداً.

****

لقد كان غريباً حقاً أنها نَشَرت الكتاب بطريقتها، مثلما رتّبت كل حبّنا بطريقتها أيضاً، وحاكت هذا الفعل من غيابها الخفي البعيد، لأن الأقدار لا تصير أقداراً إلا إذا جاءت من البعيد الخفي أصلاً. وهي بعيدةٌ، وخفية منذ سنوات، وهذا الذي جاءني منها الآن، بناءً على مصدره، ثم أثره، لا يمكن بلا ريب، إلا أن يكون قدراً. ليس عندي احتمالٌ آخر.

قرَّرت لي هذا، من دون أن تخبرني كيف يمكن أن أطرح السؤال البسيط: لماذا، ولا أبدو متسوّلاً وأنا أطرحه، لأن بعض الأسئلة الكربونية التي تحمل تاريخ صلاحية محدوداً، لا تظل إجاباتها ممكنة بعده، وتتحول إلى أسئلة غير لائقة، تخدش سطوة الغياب الذي ترتديه هي بكل اقتدار، وتمارسه كأنها لم تأتِ أصلاً إلا لتغيب، مثلما يفعل التائبون الذين قرروا استعادة ميدالية الطهارة، بعد دورة حياتية ضالة!

ولهذا لا أجد أمامي إلا أن أحمل أدوات الأسئلة الأخرى التي صرتُ خبيراً في استخدامها أخيراً، أنا الذي عانيتُ طويلاً عدم الفهم، وتألمتُ من عصيان الأسئلة، وفوجئتُ بالكتاب منشوراً مثل صحيفة عبد يحاسبه الله قبل يوم الحساب بوقت طويل.

هكذا رحت أنقّب في صحراء هذا الحدث الجديد بحثاً عن إجابات محتملة، لأفعال امرأة مزاجية، وغائبة، وبعيدة.

الأكثر حيرة مني كان أبي الذي لم يفهم كيف صار ابنه الذي يشاركه في الغداء والعشاء كل يوم، مؤلفاً، بين ليلة وضحاها، بينما في الأمس فقط كان لا يهجس بفكرة كتاب، ولا يعرف كيف يرتّب جبينه فضلاً عن أن يرتّب كتاباً كاملاً. كانت تساؤلاته أكثر حموضة

من كأس الليمون الذي يساعدني على جعل ارتجافات وجهي وتقلصاته تبدو طبيعية، ومبررة. لاسيما وأنا أكذب عليه، كما لم أفعل من قبل.

ولكنه كذب الوهلة الأولى، هكذا بررتُ لنفسي هذا الانتهاك الكبير لحقيقة علاقتي بأبي. كنتُ أحتاج أن أفهم أنا أولاً قبل أن أعيد تنسيق الحكاية بأكملها له، هو الذي لا يحترم في حياته شيئاً أكثر من الورق المرصوص بين دفتين، ويجمع في مكتبه، ومستودع المنزل، وسطحه، آلاف الكتب، مثل الورّاقين القدماء الذين يفيضون احتراماً للكتب حد الخجل من كتابة أحدها. كان من المتوقع أن يدهشه الآن، وهو في السبعين، أن الكتاب الذي لم يكتبه هو قط، كتبه ابنه الوحيد الذي لم تبد على ملامحه من قبل سيماء الكتابة.

لهذا هو اليوم يتكلم أسرع من المعتاد. غابت عني لوهلة نبرته البطيئة الهادئة تلك، وراح يُمِرُّ لي اندهاشه في حكايات غير ضرورية، وبعض الضحك القصير، ثم أخذني إلى مكتبه، وهو يمسك بيدي طوال صعودنا الدرج، ويفتح الباب، لندلف إلى المكتب المبطّن بالرفوف الخشبية، وأظهر الكتب الجلدية المدموغة بتلك العناوين الذهبية العتيقة. تركني أجلس، ودار حول مكتبه الكلاسيكي الصغير، وراح يخرج من أدراجه أوراقاً مكدسة، ومخطوطات معدة للنشر، ومعنونة فعلاً، وبخط اليد. كلها في هيئة ورقية نهائية، جاهزة لأن تتحول إلى كتاب حقيقي، ولكنها وقفت دون ذلك.

"كلها من حبر العمر يا ولدي، ولكن أخاف أن تخرج إلى الناس. في النشر شجاعة كبيرة، ما شاء الله عليك، أما أنا..."، وتنهد وسط ابتسامة منكسرة ثم أضاف "... لا أعرف هل كنت سأتشجع يوماً

على النشر أو لا، حتى الآن، ومنذ زمن طويل، قلم الباركر الأثير هو ناشري الوحيد، مثلما أن هذا الدرْج، هو قارئي الوحيد أيضاً!"

وعلى مرمى بصري كانت ملفات أبي البلاستيكية المرصوصة تحوي كل ما أراد أن يكتبه ذات يوم عن تجربته القديمة في السجن: قصاصات الورق الصغيرة الباهتة التي كتبها بنفسه في زنزانته الرطبة في جدّة، بأسطر مائلة، وأسهم تنظم اتجاهات السير لكلمات تائهة، ولدت في ورقة ضيقة جداً، لكنه كان يمتلك نسخاً مصوّرة منها هي نفسها، بعد أن لاحظ أبي أن السنوات التي مرّت، راحت، بوقاحة، تحاول أن تمحو شيئاً من حبر الكلمات الأزرق، وكأن الزمن الذي أرداه سجيناً لم يكتف بذلك، بل تجاوزه إلى الاعتداء الصارخ على ذاكرة بؤسه، ليسرق الأدلة والأحزان.

كان أحد الملفات يضم القصاصات الخمسين تقريباً، بينما ملفٌ آخر يحوي أوراقاً منسوخة من روايات وسير عديدة من أدب السجون، جمعها أبي خلال قراءاته عاماً بعد عام كلما وجد منها ما يتقاطع مع تجربته، ويقع فيها الألم على الألم، لعله يحشد ما يستعين به على كتاب لم يكتبه حتى الآن، وظل يبشّر نفسه به سنوات طويلة، قبل أن يتغلب عليه طابع الحياة الرتيب، وتتراكم أعوامه على ظهره، ويقرر تدريجاً أن يحتسب عند الله أجر هذا البوح الذي لم يحدث البتة.

وفي ملف آخر كانت مجموعة من الأشرطة الصوتية، وبعض الأجندات التلفونية الصغيرة، ووريقات تحمل أسماء أشخاص وعناوينهم كان أبي يرجع إليها كلما احتاج إلى ذلك أثناء الكتابة، قال لي وهو يضحك بعصبية: "معظمهم ماتوا و لم أكتب الكتاب

بعد!"، ثم تنهد، ووضع يده على كتفي وهو يردّد بيت الشعر الأثير لديه، والذي يقوله عند كل نازلة، وأمام كل نعي يقرأه في الجريدة، أو يسمعه في الأخبار: "ذهب الذين يُعاش في أكنافهم..."، وأشاح بوجهه عني، وأطفأ نور المكتب ونحن نخرج منه، وأكمل بقية البيت متصلاً بالزفير: "... وبقيتُ في خلف كجلد الأجرب".

****

في وجهه محرابٌ لا يمكن أن تخطئه عيناي. دائماً ألمح طائفة من الأحزان تصلي فيه، ولا أستطيع تمييز أي منها. لا يفصح أبي عن أي من أحزانه المنيبة الخاشعة، ولطالما ضنّ بهذا البوح المعتق في عينيه، وأشفق عليه من النزول في آذان من لا يملكون شفاعةً ولا جزاءً، ويؤمن أن كل شكوى ينطق بها في الدنيا، تحترق، وتصبح غير صالحة للآخرة، وكأن الآلام أصبحت عملة مؤجلة ليوم الحساب فقط، ولهذا هو يدّخرها لليوم الذي تصير فيه آلامه قابلة للتداول، وتشتري له نعيماً وجنة!

وأنا أسمع كلام أبي، شعرتُ بأنه سيندم قريباً على هتكه كل هذه الأدراج أمامي بعد أن يقرأ كتابي فعلاً، فلا يجده إلا قطعاً غير متصلة من حبٍ لم يؤدَّ كما يجب أن يؤدَّى الحب، فجاء ناقص الفروض والأركان، ومات على عجل، لتنبشه امرأةٌ بعد أن تسنّه في قبره فعلاً، وتُلبسه الكتاب، وتعيده إلى الناس. لا يمكن هذا الشيخ الكلاسيكي الذي يكتب عن انكسارات الظلام في السجن أن يقبل مثل هذه

الكتابة الدائخة، ولا أعتقد أن عينيه ستعبران أكثر من مرتين كتاب ابنه الطارئ هذا.

– ولماذا لم تخبرني أنك تكتب كتاباً؟ كنت ساعدتك على الأقل. أعرف، في بيروت، وديع جلال. جهبذ في اللغة العربية، وأعرف سليم طيراني، عنده دواوين شعر، وعنده خبرة في...

قاطعته وأنا أعرف أنه يتكلم وفق اعتبارات مختلفة تماماً عن حقيقة الأمر...

– لم تكن فكرة جادة يا والدي، كانت مجرد هاجس بعيد، وعندما كنتُ في بيروت في المرة الأخيرة، التقيتُ الناشر صدفة، وقرر أن يطبع كتابي.

كتابي أم كتابها؟

ماذا كان يجدر بي أن أسمّيه وأنا أنسبه إلى نفسي أمام أبي؟

إذا كنتُ أنا الذي نسجتُ النسيج، وهي التي خاطته، فلماذا ألبسه الآن وحدي، رغم أنها تتحمّل مسؤولية أكبر، وتختزل مسافة أبعد؟ ألم يكنِ من المناسب أن تدسّ اسمها الشفاف بجوار اسمي ما دامت قد ارتَكَبَتْ معي كل شيء في الكتاب، ثم أكْمَلَت الطريق إلى نهايته، ونَشَرَتْ وحدها هذا الطلسم القلبي المشترك، من دون علمي؟

تذكرتُ عندما استوقفتها ذات مرة، وهي تقلب معي دفتر خواطرها، ويومياتها غير المنتظمة، قلت لها: "أنتِ تنسقينها مثل كتاب، حتى أرقام الصفحات!"، وابتَسَمَتْ من كلامي ابتسامةً تشبه ابتسامة أبي السابقة، وهزت رأسها قليلاً فسقطت خصلة كانت معلقة بشكل واه خلف أذنها.

- كتاب مرة وحدة؟ لا، صعبة.

هكذا أجابت بخجل، ثم صرفت الكلام إلى مجرى آخر.

كانت صعبة هي الكتابة كما قالت، ولكن يبدو أن تنسيق الكتب الأخرى، والتطويح بها من بعد، لتصيب حياتي في دهشة، لم يكونا بتلك الصعوبة قطّ!

مر أسبوعان منذ أن عرفتُ أن كتاباً باسمي أصبح على قيد الحياة، ويتداوله الناس، وما زلتُ حتى الآن أتساءل عن مدى قدرتي على تحمل مسؤولية هذه الشهادة الحبرية الدكناء. لم يكن هذا ما يؤرقني فحسب، بل لا أدري أيضاً هل كانت هي قد فكرت في احتمال أن يشمّ أبي رائحتها في الكتاب، ويظن أن قلبي ما زال يفرز حباً، وشجناً، رغم أنها تركت هذا المنزل منذ ثلاث سنوات على الأقل.

لا أدري كيف سيتصرف إذّاك، ولكن ما أعرفه، أنه سيحزن على ابنه الوحيد الذي ما زال يتألم، كما يقول الكتاب، وتضيع بذلك كل محاولاتي لإقناعه، طوال هذه السنوات الثلاث، بأني تغيرت، وأفقت، وتجاوزتُ الدوخة العابرة، وصرت أقوى، وأكثر حكمة. من حق قلبه السبعيني ألا يدفع ضرائب قلبي العشريني وخيباته، وهي لابد أنها لم تفكر البتة في هذه الشؤون الصغيرة بين ابن وأبيه، ولا أدري لماذا ترتكبُ كل هذه الفوضى فجأة. منذ أن شق وجودها قشرة هذه الأسرة الصغيرة وهذا النسيان البطيء هو كل ما نعوّل عليه لنستعيد حالة بيتنا المعتادة.

ولأننا متفقون على كل شيء، اتفقتُ أنا وأبي وأمي على حبّها معاً، وفرحنا بها معاً، والتقيناها معاً، وحجزنا مكانها معاً، وحسب

هذا السياق، كان من المحتم أن نحزن عليها معاً، بعد أن فوجئنا بظروفها الصعبة، والحصار الذي فرضه عليها قطّاع الأمل، وتأملناها وهي تخرج من المشهد ببطء مثلما دخلت، وصار بيتنا مليئاً بحزن معقد، يقبل القسمة على ثلاثة، ولا يقل أبداً.

كان حضورها وغيابها، والاحتمال الفائت الذي كاد أن يحول عددنا في البيت إلى أربعة، أقوى ضربة تتلقاها الأسرة منذ دخل أبي السجن، والآن نحن نحاول أن نطرد من هذا البيت ثلاثة أحزان ذات أعمار مختلفة، وآخر ما يحتاجه هذا البيت، أن أخون وحدي هذه المحاولات الجادة، وأكتب كتاباً!

كانا يكبران بهدوء. يتحولان إلى عجوزين، وأنا معهما! كلنا نحمل القدر نفسه من الطاقة، وسلّة الأفكار نفسها، وحتى فصيلة الدم، وكلنا نكره عادات المدينة، ونتفق على أن يبقى البيت صحيحاً، وسليماً، ما دامت المدينة صعبة وخاطئة. و لم يبخل أي منهما بأي جهد ليجعل البيت مكاناً صحيّاً للحياة، ليس معنوياً فقط، بل إن أبي وضع في كل غرفة من غرف البيت، جهازاً لتنقية الهواء، ووضعت أمي قوائم للطعام تجعل الأكل في المطاعم الخارجية خياراً خالياً من الجاذبية تماماً، ووحدي أنا أدخلتُ الفيروس الحزين إلى أجواء البيت الآمنة، وأحدثت الخلل في المكان الذي تعوّد بالفعل حالته الثلاثية الأزلية، و لم يترجم نفسه بعد إلى حالة أخرى.

لحسن الحظ، كانت عائلتنا من الصغر والحياد بحيث أشاحت عنها المدينة المغرورة بوجهها، و لم تحفل بإيذائها كما تفعل مع آخرين. كثيراً ما اعتقدتُ أن هذه الحالة المرنة مفيدة جداً في مدينة كالرياض،

لا يمكن فيها أن نتنبأ من أين ستأتي الصفعة الاجتماعية القادمة، ولهذا السبب، لسنا في حاجة إلى الكتب، ولا الأحزان المتجددة. كان حرياً بها أن تساعدنا على نسيانها بدلاً من أن تنفخ الكدر القديم في وجوهنا مرة أخرى.

حتى الجيران كانوا يتشابهون معنا كثيراً. اخترنا جميعاً أن نقيم على حافة المدينة، ما دام خروجنا إليها محدوداً، لأن أبي تقاعد منذ زمن طويل، بينما تقتصر صداقات أمي على نساء قليلات، ولذلك اشترى أبي البيت قريباً من الجامعة من أجلي فقط، وأستطيع من نافذة غرفتي أن أرى بهوها الشاهق، ومبانيها الشهباء الضخمة، ولا أحتاج إلا أن أستدير بسيارتي عبر الطريق الدائري الغربي حتى أكون في حرمها المزدحم بالطلاب.

جارنا تركي، رجل كبيرٌ في السن، تبنى طفلاً معوّقاً بعد أن وهن العظم منه، واشتعل رأسه شيباً ولم يهبه الله ولداً مثل زكريا. كثيراً ما كان يستضيف أبي في خيمته الصغيرة الملحقة ببيته بعد صلاة المغرب، ويقضيان بعض الوقت في الكلام، ومشاهدة الأخبار، قبل أن يخرجا مرة أخرى إلى صلاة العشاء. كان طيباً وعفوياً كسائر الذين لم تمت في قلوبهم عشبة القرية بعد.

استيقظت ذات صباح على صوته وهو يناديني من صالة بيتنا! كان أبواي قد خرجا باكراً، وبقيتُ وحدي نائماً، ولما جاء موزّعو شركة الغاز لحقن خزانه الكبير في جانب البيت كما يفعلون عادة كل عدة أشهر، لم أجب دقاتهم على جرس الباب، ولم تفعل الخادمة أيضاً حسب قوانين أمي، فكادوا أن ينصرفوا لنضطر إلى انتظارهم

مرة أخرى أسابيع طويلة، ولكن جارنا تركي تشبث بهم، وراح يطرق الباب بشدة حتى فتحت له مأمونة، خادمتنا، التي لا تفتح الباب للغرباء مطلقاً، ولا لشركة الغاز.

– يا حسان... يا حساااان...

خرجتُ من غرفتي فزعاً من هذا الصوت الغريب الذي لم تسمعه من قبل جدران بيتنا. وجدته واقفاً في منتصف الصالة، وقد غطّى جبينه العرق، بينما كانت مأمونة تقف عند مدخل الصالة، وهي تقلب عينيها بقلق بيني وبينه، أجبته وأنا ما زلتُ أفكر كيف تراه وصل إلى هذه النقطة من عقر البيت وحده، وأين أبي وأمي؟

– يا ولدي ما تقوم تشوف حقين الغاز بغوا يروحون ويخلونكم؟

– سم يابو فهد، والله كنت نايم...

– لو أنهم راحوا كان ما تشوفونهم إلا بعد شهرين!

– يا ساتر، لا.. لا.. خير ان شاء الله.

غسلتُ وجهي على عجل، وأنا أضحك من عفويته الفجة تلك، وعندما نزلتُ مسرعاً لأوافيهم عند الباب، كان لا يزال واقفاً معهم، حيّاني تحية الصباح وهو يهزُّ رأسه بأسف، قبل أن يدور على عقبيه، ويتجه إلى بيته. كان ابنه فهد، المعوّق، قد بلغ الحادية عشرة من عمره تماماً في كنف هذا الرجل، يعرجُ بشدة، ويتكلم بصعوبة، ويجلس دائماً أمام باب المنزل، يراقب السيارات الذاهبة والآتية، ولا ريب أنه هو الذي أخبر أباه بسيارة شركة الغاز التي تدق بابنا.

في الجهات الأخرى تناثر جيران آخرون، ما بين الكثير من المساحات الفارغة. كان الحي جديداً نسبياً، تنمو فيه فيلاً رمادية

جديدة كل عدة أشهر، وتحتل مساحة من الأفق. وكلما انتهت إحداها، وانتقل إليها ساكنوها، طرق بابهم جارنا تركي، وأقام لهم وليمة عشاء لا نغيب عنها أنا وأبي مطلقاً، وهو الذي قاد حملة لدى وزارة الشؤون الإسلامية لتغيير إمام الحي، لأنه يرتّل القرآن مثل الأناشيد الإسلامية، وليس مثلما تعودوا، ولا يحترم كبار السن، ويتأخر في الحضور لصلاة الفجر، وعندما يأتي يكون المؤذن قد أمّ الناس، وصلى. كان تركي هو المحور الاجتماعي للحي، عنده تتصل الوشائج، وإليه تنتهي كل أخبار الحي، ولولا وجوده الضروري، لانعزلنا تماماً عن كل من حولنا، لأن أبي لم يكن اجتماعياً على الإطلاق، ولا أنا.

****

كان واحداً من أغرب أيام حياتي!

السادسة مساءً، اتصل بي رجلٌ لا أعرفه، ولا هو يعرفني، وضاعت عدة جمل في الحوار المضطرب وأنا أحاول تفسير أسلوبه وهو يتكلم وكأنه متلقٍّ للمكالمة، وليس هو الذي اتصل، وظلّ يفترض طوال الوقت أنني كنتُ أنتظرها منه. سادت حالة من عدم التفاهم، وكنت قد استيقظتُ توّاً من النوم، وما زلتُ أحاول فك رموز المكالمة، وتوضيح الصورة بصعوبة، وعيناي تجوسان في ظلام الغرفة. راح صوته يبعثر غيوم النوم، ويعيدني إلى يباس اليقظة، وهو يكرر الجملة نفسها أكثر من مرة، "فيه ظرف.."، ما يتنافى مع رغبته الضرورية في التوضيح. اعتدلتُ إثر ضجعتي، ورحتُ أفركُ جبيني وكأني أستحثّه

على الفهم، وبعد محاولات عديدة مع لغته العربية الركيكة، خلصتُ إلى أنه يحمل لي طرداً من بيروت، لا أكثر.

قبل هذا لم يكن ثمة جديد في حياتي، كنتُ مستمراً في تقليب الأيام مثل نسيج من الصوف، لا يمكن أن نفرّق ظاهره من باطنه، وسعيداً بهذه الحالة الصوفية سعادة الذي ما زالت على جلده آثار عراء وبرودة، و لم يكن خيط الصوف لتلك الليلة ليختلف عن المعتاد، بل كان أهلاً في عاديته لأن ينضم إلى النسيج، وإلى العامين المسطحين البسيطين اللذين مرّا على حياتي بسلام وتواضع، لولا هذه المكالمة التي نكثت العهد، وجعلتني أدوّن في ورقة صغيرة قرب سريري عنوان مكتبة الزهراء، لألتقي هذا المجهول الذي وراء الطرد.

دهمني شعورٌ طفيفٌ بالرهبة وأنا أنهي المكالمة. هل كان الحدس أم أني شممتُ رائحة امرأة بعيدة فكَّرت فيّ فجأة، إنْ كانت للأفكار روائح يمكنها أن تجوس في ليل مدينة بأكملها؟ عادت يدي لتلتقط الهاتف مرة أخرى، وتبحث عن رقم أيمن، وعدتُ لأضطجع على السرير في انتظار رده.

– مرحباً.

– أيمن، هل تورطنا في علاقة ما في بيروت، ونسينا؟

ويضحك أيمن، وأنا أفركُ عيني من ثقل النوم، وأحاول أن أرتب حيرتي بهذه السخرية المفتعلة.

– ربما، ليش تسأل؟

– شخص اتصل بي الآن، ويقول إنه يحمل طرداً من بيروت، باسمي.

– ربما مخالفة مرورية.

– طرد يا أيمن، أية مخالفة هذه التي بحجم طرد!

– ربما رضيع إذاً، مرت تسعة أشهر على عودتنا. ولا أعرف بالضبط كيف كان مستوى ذنوبك.

– أقل بكثير من ذنوبك يا عزيزي. مع السلامة.

ولفرط استتباب أيامي وبساطة مجرياتها آنذاك، كانت فكرة بسيطة، مثل أن أتنبأ بطرد مجهول وأشخاصٍ وراءه، مثيرة جداً، ولذلك قررت أن أنهض من السرير ولا أكمل نومي، وعندما دخلت انتعاش الاستحمام، ركزتُ أفكاري إلى مستوى يقلل الكثير من إثارة الأمر. ربما كان طرداً دعائياً من الفندق مثلاً، (ولكن لماذا لا يصل إلى بريدي؟) ربما كان طرداً خاطئاً بما أن الرجل الذي اتصل لم يذكر سوى اسمي الأول فقط.

بعد ساعة تقريباً، كنتُ أنا والطرد وحدنا، في السابعة والربع من ليل الرياض المزدحم، أجلس في سيارتي التي ركنتها في طرف الحي الذي فيه المكتبة، يأتيني عن قرب ضجيج الشارع العام، ومن ورائي يتردد أزيز المآذن التي بدأت تحشد مصلّيها لصلاة العشاء، ولا أزال، أتذكر تفاصيل الموقف، وصعوبة تغليف ذلك الطرد المتواضع، والكتاب الذي صافح دهشتي الكبيرة، بكل صلف وبرودة.

كان عنوانه يبدو مثل شهقة أوليّة في حنجرة ملأى بالبوح، وليس بوسعي أن أنفي أُلفته وأنا الذي اخترته أصلاً، ولكنه كان آنذاك نائماً بين دفتي سطر ما، في صفحة رمادية متعرّقة، في موقع خاوٍ من مواقع الإنترنت، لا يطرقه إلا أنا وقلة معدودة، ولكنه الآن يبدو مختلفاً، ولا

يمكنني أن أتفاهم معه وقد صار مدموغاً بهذا الحبر الأحمر على هامة كتاب.

كان الفهم يتباطأ في عقلي وكأنه لا يريد أن يكتمل. تأملتُ الكلمتين اللتين تربّعتا فوق الغلاف، متشجرتين مثل عروق ورقة العنب، وصيّتين على كل ما وراءه من أوراق عديدة يتيمة، لا علاقة لي بها إطلاقاً، وتأملتُ اسمي الذي يتربّع فوق العنوان مثل أحفورة بازلتية، ويمنحني وهماً بالثبات، والانتماء، والإشارة، مثل كل الأسماء. شعرتُ بأن اسمي فوق الكتاب لا يشبهني كثيراً، وأنه مريبٌ وخائن، ولكنه في النهاية، كان يلتوي على شخصيتي بما يحمله من أدلة كثيرة، ويشير إلى وجهي، كسهم معقوف.

من رآني من العابرين بجوار سيارتي فقد رأى فمي مفتوحاً، وحاجبيّ معقودين بشدة، بينما كانت طاحونة الأسئلة تدور في عقلي بجنون. ما هذا الكتاب الذي يحمل اسمي؟ من نشره؟ من طبعه؟ أنا لا أعرف شيئاً عنه على الإطلاق، لا أعرف أوراقه المنزوعة من جذع شجرة، والمعجونة في آلة مصنع، والملقاة في جوف مطبعة، ولكني بلا شك مسؤول عن كل هذا، والكلام الذي فيه يدينني ببصمة الكتابة، ولهذا هو الآن أمام وجهي المتشنج، في السابعة والربع من ليل الرياض، في حي من أحيائه العادية.

وضعته جانباً، وزفرتُ حتى حركت زفرتي بضع وريقات على تابلوه السيارة، ورحت أجوس بيدي خلف مقودها لأصل إلى المفتاح، وعيناي تتساقطان على مساحات السيارة الضيقة من الداخل، وأشعر بدوخة طفيفة تتمدد في ذهني ببطء.

ماذا يعني ما أنا فيه الآن؟ وكيف يجب أن أتصرف لكي أقطع الطريق على من يحاول إدهاشي بهذا الشكل المتعب؟

لا يمكن أن يكون الفاعل معجباً عابراً بالكلام الذي ألصقته على حائط الإنترنت لأني لم أدونه باسمي كاملاً، واكتفيتُ بالهوية الناقصة، ولا يمكن أحداً أن يربط بيني وبين الكلمات إلا إذا تتبع أثر الحب، واستطاع أن يشم رائحة الظروف، ويقرأ رموز الحكاية، ولا يوجد أحدٌ يعرف هذا القدر من التفاصيل إلا أنا، ووزان، وغالية.

درتُ بالسيارة، وعدت إلى المكتبة مرة أخرى بعد أن خطرت لي فكرة أن أستنطق الرجل الذي سلّم إليّ المظروف عن معلومات أخرى، فهناك خيطٌ مفقود في هذه الليلة البوليسية الصغيرة. ترجلتُ، وسألته باذلاً كل الجهد أن أبدو هادئاً ولا مبالياً، ولا أدري مدى قدرة هذا الرجل على قراءة وجهي، إلا أنه لم يمنحني إلا إجابة صغيرة بالكاد تتجاوز شاربه الكثّ. أخبرني أن مندوبهم إلى معرض الكتاب في بيروت التقى رجلاً ما، طلب إليه أن يحمل النسخة معه إلى الرياض، ويسلمها لصاحب هذا الرقم، لا أكثر.

حركتُ سيارتي مرة أخرى وهي تحمل داخلها رجلاً وكتاباً، يعرف أحدهما كل شيء عن الآخر، ولكنهما يجهلان كل الجهل لماذا هما معاً الآن. كان عندي لغزٌ صغير أسهر عليه الليلة، وأرتّب هذا الخيط الصوفي الذي بدا ناشزاً عن البقية، ولهذا عدتُ إلى البيت، مبكراً عن موعدي المعتاد، وصعدتُ إلى غرفتي من الدرج الخارجي الذي أستخدمه دائماً عندما أحاول تجنّب المرور بمجلس والديّ لأني أحتاج أن أبقى وحيداً، أناقش كتاباً عاد إليّ مثل قارورة حبر رميتها

في المحيط قبل سنتين، فسافرت عكس الاتجاه.

رحتُ أقرأ في مواقع عشوائية منه كلما منحني الارتباك فرصة لذلك. إنه كتابي فعلاً، ولتسقط كل الحالات المريبة التي تفصلني عنه الآن، ورغم تلك الرائحة الغريبة التي تفوح من صفحاته الكثيرة، ورغم جفاف الحروف المطبعية التي لا تريد أن تعلّق كثيراً حول الظروف التي خلقتها، فقد شعرتُ به يمدّ عروقاً أفعوانية ليشتبك معي، ويخترق صدري بلطف، معلناً فعل العودة، بعد سنتين من المرة الأخيرة التي علقت فيها كلماته الكثيرة على الموقع، في هيئة أخرى، وعلى شكل مختلف تماماً. ثم هجرته كأن لم يكن، و لم يولد.

لماذا عاد متنكراً بهذه الصورة؟ ولماذا استشعرتُ في قربه دفئاً غريباً رغم تنكره، وصمته، وعتابه الطفيف الطافر على غلافه الأبيض، والسلم الذي يصعد وينتهي قبل الوصول. دهمني إحساس العودة إلى حقل قديم، كنتُ حرثته من قبل، يوم كانت أوجاعي تملأ هذه الغرفة، وجواد الحب الأصهب يطوي قلبي طيّاً، ووجهي منقسماً بين الليل والنهار، ورائحتي تفضح هرمون الحب العظيم، قبل أن يغادرني الزمن جميعه، وتتوقف ساعتي.

خلال زمن قصير، قرأتُ كل كلمة، وبدت كل كلمة مختلفة فعلاً. أتذكر أماكنها جيداً عندما كانت معلقة فوق شاشة الموقع الذي نشرتها فيه تباعاً، والآن هي في أماكن مختلفة من هذا الورق، وأنا أعيد ترتيبها في داخلي، وأتساءل عن غالية، كيف رتّبتها أيضاً، وهل أدّت هذه الكلمات الرسولة رسالتها الطويلة، أم أنها لم تكن كافية لسعيٍ كهذا؟

هي التي نشرت هذا الكتاب حتماً. اتكأتُ على هذا الاستنتاج المبكر، لعلي أرتاح قليلاً. كانت الدهشة على وشك الانطفاء، والاحتمالات الكثيرة المتوقعة لهذا الحدث قد مات معظمها في الطريق، وصارت عندي صورة أكثر وضوحاً لما يمكن أنه حدث، وكيف كانت ماهيته وخطواته. لقد وضع المنطق أمامي حلولاً مريحة، وإن بقيت عندي أسئلة أطول قليلاً منه.

دحرجتُ رأسي على وسادتي ونمتُ، لعلي أطفئ عقلي قليلاً حتى لا تجد فيه الحيرة مساحةً متاحة للانتشار، ولكن نومي جاء أبعد ما يكون عن هذا، كأني نمتُ في ساحة حرب. قمتُ في منتصف الليل، متعرّقاً، وفي بطني مغص طفيف من الجوع، ولا أشتهي شيئاً.

وعندما أستيقظ في وقتٍ كهذا عادة، أعرف أن لا ملاذ لوجهي البائت إلا المزرعة. كان في هاتفي اتصال لم أرد عليه من أيمن، وكان أمامي ساعتان على الأكثر يمكنني أن أجد خلالهما أحداً أجالسه هناك. فتأهبتُ على عجل، وشربتُ العصير الذي وجدته في مكانه المعتاد من الثلاجة، وخرجتُ من المنزل وأنا أشعر بأن العاصفة الترابية التي في الخارج، لا تقل عن تلك التي في ذهني على الإطلاق.

****

حائرٌ أنا، ومرهقٌ جداً. منذ مدة طويلة وعقلي مرتاح من هذه الصداعات المفاجئة. كانت لدي نزعة أن أكسو الحكاية كلها بأسوأ النيّات المحتملة، وألوم غالية على تخريب هدوئي، وإعادة الارتباك

إلى بيتنا بهذا الفعل، ولكني أفكر دائماً أن امرأة أحببتها إلى هذا الحد، لا يمكن أن تخترع لي هذا الأذى بدون سبب، ولا بد من تبرير مناسب.

لعلها قرأت حزني عليها وأرادت أن تشفيني مثلاً. تعرّضني لضوء الشمس الباهر حتى أشفى تدريجاً من وبائي الصعب الذي شخّصته لها كتابتي، و لم تنتبه إلى أن الأمر قد يبدو وكأنها تحاول أن تحرقني عمداً، وهذا الضوء الذي يغمرني الآن يتحول إلى شعاع حارق تُبئِّرُهُ العدسة التي سلطتها عليّ فجأة، ولن ألبث أن أشتعل تحتها مثل نملة تاهت عن مسارها، و لم تصل إلا إلى جحيم غير متوقعة، جاءتها من الأعلى.

لا أستطيع أن أثبت نيّاتها المحتملة، ولا أستطيع نفيها أيضاً. حتى الآن لم أتأ لم لأستدلّ على أنها تحاول أن تحرقني فعلاً بنشرها الكتاب، ولكني أرى أن الضوء المريب ما زال هنا، والكتاب قابعٌ بين يدي كطفل مهمل يتقاذفه أبواه، والتقويم الطويل الذي يقيس مسافة فراقنا لا يجيز لي أن أطرح السؤال عليها مباشرة.

ولهذا أنا أكتب الآن، مرة أخرى. عدتُ إلى الكتابة من منتصف الفهم المشروخ، وكنتُ أعتقد أن الذين لا يعرفون، عادةً ينصرفون للقراءة، وحدي أنا كلما شحّت بي المعرفة، رحت أكتب! هذه عادات الرجل الذي لا يتحمل جبينه وطأة الحيرة، فيصرفها إلى يده وأصابعه، وكأني أريد أن أعلن هنا، بين رفاقي الجدد الذين نثرتهم هي عليّ بنشرها للكتاب، أن المحرض الأكبر للكتابة بعد الحب، هو استعصاء الفهم، وليس وفرته! لأن شيئاً من صرير القلم يشبه حفيف المكنسة وهي تقنع الأرض بضرورة النظافة، ولهذا ظلّت الكتابة

عندي حاجة ملحة كلما تراكمت الفوضى فوق قلبي، ولا أستغني عنها بسهولة من أجل حياة أكثر توازناً وأماناً، مثل المخمور، لابد أن يمشي على سطرٍ مستقيم، حتى يتبدى له مدى سكرته.

لولا أني تدربتُ سابقاً على ألا أسمح لأسئلتي بأن تطرح نفسها كأسباب كافية للاتصال، لكنت اتصلتُ بها في ليلة السبتِ هذه. ما زلت أحتفظ برقمها المعقد في هاتفي لأسئلة سوداء كهذه التي تحرق العقل مثل قطرات من الحمض، توسلتُ إليها ما دامت راحلة أن تُبقي في يدي طرف خيط يقود إليها عندما تضطرني ظروف جارفة إلى حماقة الاتصال، والقلب طافرٌ مثل مرجلٍ منسي على النار، والروح مريضة جداً مثل شيخ يحتضر، والرياض هامدة تحت وطأة ليلة صيفية ثقيلة.

أتعرف هي الآن ماذا كان من أمري منذ وصلني الكتاب، بقدر ما عرفتْ بالتأكيد من الكتاب نفسه، كل ما حدث لي قبل ذلك؟ أم أنها ستنتظر مني أن أكتب مرة أخرى لأخبرها عن بقية المسلسل؟ لا ريب أنها لم تعد تعرف كل ما يكون، فقد نُشر الكتاب وانكشفت صفحة من أسراري على ملأ لا أعرفهم، وأصبَحَتْ كل صفحة جديدة من حياتي تحتاج إلى كتاب جديد لتعرف هي ماذا حصل فيها. هكذا نحن، أنا وهي، نتواصل بهذه الطريقة السميكة المريبة، أكتب كلاماً، فتنشره هي، من دون أن تعلّق عليه بكلمة واحدة، فأجدني مضطراً لأن أكمل الأداء الذي لم أتفق مع أحد عليه، وتتوقف هي عن نشر مقالاتها التي كنتُ أقرأها عشرات المرات، لعلّي أظفر منها بإشارة رمزية ما، أو شفرة معلقة، بلا جدوى، وكأننا أطفال لم نبلغ من

الرشد ما يؤهلنا لتحمّل البقاء متصلين، يساعد أحدنا الآخر على ما بعد الحب، كما كنا نفعل أثناءه، أوليس هذا هو الوقت الذي نحن فيه أحوج ما نكون إلى تلك المساعدة؟

ماذا يعني أن تعرف هي بالتفصيل خريطة آلامي، بكل الاتجاهات، من نقطة بدايتها، إلى نقطة نهايتي، في الوقت الذي يصعب عليّ تماماً أن أحمل هاتفي الجوّال، وأخبرها أني حائر جداً، تحت وطأة كتاب مفاجئ أصابني في الظّهر؟

أومَضت في ذاكرتي تلك المرة التي اتصَلَت هي فيها، ومن خلف صوتها تتهادى موسيقى أعرفها جيداً، لم تلق عليّ التحية، فقط هتفت بي: "إسمع، إسمع."

تصاعدت الموسيقى بعد هذا قليلاً، ثم أطلق محمد عبده صوته:

ولهااااااااان.
ولهاااان.
ولهان.
أنا بالحيل ولهاااااان.
خليتي وقتي: انتظار.
خليتي وقتي: انتظار.
الليل ما هو ليل.
ماهو ليل.
ماهو ليل.
ونهاري ما هو نهار!

سَحَبَتْ سمعي في اتصال عابر إلى أغنية من أواخر الثمانينات، لأنها أرادت فقط أن أشاركها في شجن اللحظة، بغض النظر عما إذا كنت مشغولاً أو لا، والآن لي أحزانٌ تشبه ساحلاً ملوّثاً بالزيت، ولا أستطيع حتى أن أنقر هذا الرقم الصعب النائم في ذاكرة هاتفي مثل لغز خائب، لا أدري متى يأتي حله!

هي تحب محمد عبده كما تحب المطر والغيوم، وأتذكر دائماً أن مقالها في الجريدة جاءت فيه العبارة التي دفعتني مرة أن أهدي إليها مجموعته الموسيقية الكاملة، وعليها توقيعه شخصياً، "أغنياته أثرت في تشكيل السلوكيات الرومانسية لجيل كامل من البلد، مدرسة ثقافية كبيرة من الغناء لأجل الحب والوطن". ولهذا لوّنت كل حبّنا بأغنياته، حتى لم يبق لنا ذكرى لم يشاركنا فيها هذا الرجل، ويقتسم معنا كل الوقت الحميم، وكل اللحظات الخاصة، ولذلك صرتُ أؤرخ زماننا بصوته، وأربط الموقف بالأغنية، والأحزان بالألحان، حتى تداخلت في ذاكرتي كمية هائلة من الكلمات والنغمات، نسجت لي شجناً طويلاً جداً.

الآن، جفّ هذا الشجن، وتحوّل إلى غابة من الأعواد الجافة، يمكن أن تحترق في أي لحظة، وتحت رحمة أي مذياع، وأصبح محمد عبده، بالعشرات من أشرطته التي كانت تملأ الغرفة والسيارة، جلاداً أليماً، لا أجرؤ أن أبعثه من قمقمه، ولا أحتمل أن أتعثر به في قناة تلفزيونية أو جريدة.

المشكلة أنهم صاروا يذيعون أغنياته كثيراً هذه الأيام. وما زال يرهقني صوته كثيراً، رغم ذبولي، وإعلاني وفاة القلب رسمياً منذ

سنتين، ورغم أني نجحتُ، كما يشهد صديقاي وزان وأيمن، في خنق قصة حبي بشكل عمليّ ودقيق، صفّقا له طويلاً، ونجوتُ بذلك من التحول إلى مريض آخر في التاريخ. لكني أحياناً، أتنازل عن هذه الرغبة الملحة في التواصل، وأدير وجهي جهة الشجن، وأشربُ اللحن القديم نفسه الذي يفسر قلبي الآن بكل فصاحة.

رحتي.. رحتي..
وشاغلني سؤال..
شاغلني سؤال..
ألقاك.. ألقاك؟ أو هذا محال؟ .
"حسب الظروف..
و..
..داخلني خوف!"

****

كانت كتابة الرواية تشبه زرع حقل من الأفيون، يخدّرني إلى أجل مسمّى. فصد مني الكثير من الكلام، كي تعود الروح إلى دورتها المطمئنة عدة سنوات، قبل أن يتراكم كلام آخر، تضيق به المسارب، والطرقات، ومحاولات التفادي والإنكار، وتنمو على القلب مرة أخرى أعشابه العشوائية المعتادة، وينتابني الصحو المؤلم عندما ينتهي مفعول الرواية السابقة.

يبدو أني أمرّ بحالة شبيهة الآن، وكأن أظفاري تنمو أسرع من المعتاد، ويدي حبلى بأشهر طويلة من الصمت والتدخين. عندي نيّات كثيرة، وليس عندي هدفٌ واضح هذه المرة، إلا أن أسوّي وعثاء الروح، وأشذب الأشجار والحديقة، وأكنس الرصيف الطويل نفسه، للمرة الثانية.

كان غريباً فعلاً أن غالية شمّت رائحة يدي المتأهبة للكتابة عن هذا البعد، وفعلت ما فعلت، لا أدري هل لتشجعني على حالة أخرى من الحجامة الحبرية، أم لتعرض عليّ صوراً قديمة لجسدي الملآن بالثقوب، حتى لا أكرر حماقتي.

لقد أفسَدَت كل شيء، عندما تنازلت طوعاً عن طقوس أن أكتب لها وحدها، واضعاً في اعتباري الإلكترونيّ آنذاك أن عينيها الجميلتين هما كل من سيدخل بيت القراءة، ويعبر فوق الكلام، حتى أني لا ألتفت إلى النحو والإملاء، كما لا ألتفتُ إلى ثيابي وذقني عندما أكون في البيت.

ربما هي اختارت أن تعبُرني إلى طقوس أكثر رحابة من ترتيلي المخنوق ذاك، مثل صفحات الجرائد مثلاً، أو رفوف المكتبات، ودكاكين الناشرين، وبيوت الناس؟ ولكن إذا كانت هذه حقيقة، وأنها (تنرجست) من بعدي كما لم أعهدها من قبل، فكيف تراها ستستفيد من نشر الكتاب بهذا الشكل، وكل شيء فيه مموهٌ بالرمز، وما زال اسمها فيه مقفلاً ومجهولاً، مثل جوزة مصمتة ضائعة في غابة كثيفة؟

ها أنذا أعيدُ قراءة نفسي، وكتابتها مرة أخرى، وأقفُ شاهداً

فوق منصة هذا الكتاب، لأبصر كيف بدت أيامي مثل علبة الحائك، فيها إبرٌ مختلفة الأحجام، كلها قادرة على الوخز. لا أدري كيف تصورتُ مرة أن أيامي متساوية في حجمها، متشابهة مثل سرب، وركنتُ إلى حالتها الخطية تلك، ولكني أرى الآن سلسلة من الأيام الغليظة، متراكمة في كتاب، كل يوم يشبه الرحى، عنده منهج مختلف في الطحن، بينما كانت تبدو بالنسبةً لي طوال سنتين من نقاهة الحب، مثل كائنات نحيلة، تمشي في اتجاه واحد، وبسمتٍ واحد، كفريق مهزوم ينسحب ببطء.

وعندما التقيتُ أيمن تلك الليلة، عاودتني الفكرة في منتصف الحوار، عندما اكتشفتُ متأخراً، كعادتي في فهم الزمن، أن اليوم هو أول أيام السنة الهجرية، ولذلك وجدت نفسي أحاول أن أعيد صوغ فكرتي لأسمح لأيمن بمشاركتي فيها. هو الذي كثيراً ما تأفف معي من الزمن، وكأننا شيخان في أرذل العمر، نجلس في وسط هذه التداعيات الساخرة، ونتبادل تعليقات لا تمت بصلة إلى وقتنا ومكاننا أبداً، ونسكب الزمن، لنكتشف فيه كل خواص المواد السائلة، وهو ينفرط من أيدينا، ثم يتبدد، ويتبخر في الأيام الجميلة، ثم يختفي، ونشرق به أحياناً لندخل في سعال مر، ويتكتّل أمامنا كجبل جليدي مستحيل، عصيّ على المساءلة.

كان يشرب الشاي في الوقت الذي عبرت ذهني فكرة الزمن السائل هذه، كما تعبرنا دائماً ونحن ساهمون أنصاف أفكار حكيمة وكسلى. تأملته بابتسامتي المعتادة التي أحرص على بقائها كذلك حتى لا أقع فريسة لأسئلته هو، أو لأسئلة أخيه وزان، ذلك الذي

هزمني مرتين أخيراً، عندما أثبت أني لا أدخن إلا إذا كنتُ وحيداً، لأن علاقتي النادرة بالتدخين هي علاقة سيكولوجية وليست كيميائية إطلاقاً، ومرة أخرى، عندما اكتشف بهدوء، وبكل دقة، لماذا أنا خارج الحب، منذ سنتين.

"لأنك تبالغ في وجومك، مثلما تبالغ في فرحك. هذا يعني أنك تعيش قيد الحب، أو ما بعده. الحب لا يعلق على وجوهنا لوحة الحزن الثابتة كما نتوقع. كل ما يفعله هو أن يزيد حرارتك درجة واحدة، تكفي لتجعلك متذبذباً بين حالات مختلفة، وهذا ما كنتَ أنت عليه أول ما عرفتك، ولكنك الآن مستكينٌ جداً، ثابتٌ حتى في نزواتك. هذا يعني أن حرارتك عادت إلى مستواها الطبيعي. انتهى الحب يا صديقي!"

قلتُ لأيمن:

– أشعر أحياناً أنه لا يمكن أن يعبرنا الزمن بوتيرة ثابتة، وأن الأيام لا تتساوى في حجمها كما توهمنا الحقائق. شخصياً، أنا على يقين أن السنتين الأخيرتين كانتا أقصر بكثير من شهر واحد في السنة التي قبلها.

ووافقني أيمن الرأي. قال عدة جمل، ولم يُحل السبب في عدم التكافؤ إلى الظروف، وتسارع رتم الحياة، كالعادة.

– فعلاً، لأن سلوكنا أحياناً يتحكم في الزمن، وطاقته، وحجمه، بينما لا يملك الزمن، في المقابل، إلا التحكم في معادلة بيولوجية بسيطة وثابتة مع أجسادنا. في الحقيقة، نحن نؤثر في الزمن أكثر مما يؤثر هو فينا.

– ربما أننا، في حقبة معينة من الفلسفة، قمنا بتضخيم دور الزمن، حتى منحناه بعداً وحشياً لم نتخلص منه عبر أجيال.

– ربما.

ثم أردف بعد صمت قصير:

– هذا الزمن مسكين!

ثم عاد ينشغل بقنوات التلفزيون، وعدتُ أنا أكمل كلامي

– انتهى العام. لا أتخيل كيف بدأ وانتهى بهذه السرعة. ألا تلاحظ كيف صارت عبارات التعجب من سرعة الأعوام دارجة في كلام الناس؟

– أنا شخصياً لا تعني لي نهايات الأعوام شيئاً مثيراً للشجن، ودائماً أنظر إلى السنة على أنها حلقة دائرية أصلاً، ليس لها بدايات ولا نهايات، لأن هذا هو الشكل الحقيقي للزمن.

– ماذا تعني بالشكل الحقيقي للزمن؟

– أعني أن هذا الزمن دائري أصلاً، وعندما بدأ الإنسان يشعر بالدوخة من دائريته، قرر أن يضع له بدايات ونهايات، واخترع الأيام والسنوات.

– ولكن ما أقصده هو مجرد وقفات مع السنة، ليس بالضرورة أن تكون في أولها أو آخرها.

التفت إلي، بوجهه النحيل الحليق الذي تتعلق عليه نظارته الخفيفة، وقال وهو يبتسم:

– على فكرة، ما زلنا في مارس.

– أنا أتكلم عن السنة الهجرية.

- الهجرية...

قالها بصوت ممدود، ينضح باللامبالاة، ، ممعناً في الإشارة إلى أن الأمر لا يهمه أبداً، وماداً ذراعه بقدر ما يستطيع ليلتقط كوب الشاي الضئيل الموضوع على الطاولة.

ابتسمتُ مقلداً سخريته، وسكتّ، وساد صوت موسيقى طفيف من التلفزيون يسبق نشرة الأخبار، قبل أن يردف هو بعد قليل:

- تعرف؟

وضحك ضحكة قصيرة، وهو يميل ليعيد كوب الشاي إلى مكانه، ثم قال

- هذا ما يجعل وقع الزمن أثقل علينا، أن نعيش في بلد يعتمد تقويمين لتدقيق حساباته معه. ليه يا أخي؟ سنة هجرية، وسنة ميلادية، والسنة تنتهي مرتين، والعمر ينقضي مرتين.

وأنا أقود سيارتي عائداً من مزرعته البعيدة تلك الليلة، فكرتُ في كلام أيمن، وزمنه الدائري، ربما كان أفضل مني وأنا أؤرشف أرباحي وخسائري بهذا الطابع الوهمي، وكأني ألمع وجه الشمس للعام المقبل، وأنفض عن نفسي درن الماضي مرةً كل سنة، لأكتشف أن الماضي يعود منتصباً أمام وجهي مثل خيال مآتة أنيق.

دهمتني رغبة أن أحسب فرق عمري بين الميلادي والهجري، واكتشفتُ بالحساب الذهني السريع أن التقويم الهجري يجعلني أكبر سنةً تقريباً من عمري الميلادي، فأين ذهبت هذه السنة الهاربة؟ أتراها كانت هي تلك السنة الفقيرة التي وقعت فيها تحت الحب، وانتهت كأنها أشهرٌ مسروقة من خزانة العمر؟

لم أفكر من قبل أننا ربما كنا نعيش في زمنين فعلاً، ولأسباب تاريخية، وليس فلكية كما يفترض، لأن الفلك لم يختلف بعضه مع بعض منذ بدء التكوين، ولكن نحن الذين اختلفنا فيه. كل هذا لأننا حائرون في تقويمنا بين نبيين، لا ندري أيهما أقدر على ترتيب أيامنا، ولا أدري هل حَفَل النبيان بهذا الصراع الوقتي الذي أقامه بينهما الرعايا، ولكني أعرف أن لهذا أثراً في فصم العمر إلى فصين يتداخلان بشكل مؤذ، ويتخالفان بشكل أشد أذى.

سواء أهجرياً كان الزمن أم ميلادياً، يبدو أن طباعه الرصينة قد تغيّرت كثيراً. فهو الذي كان يزرع خلف آذاننا زيتون الحكمة، ويمضي مثل قاموسٍ ثقيل من العظات، وقد أصبح الآن جامحاً مثل الصبيان، يؤلّب عليّ أيامه لتلاحقني في الأزقة، وتزعجني بألفاظ ونكات سوداء، وبذيئة. هذه السنة بالذات لم تبدأ جيداً. وأشعر منذ الآن بأن شهورها القمرية القادمة لن تكون إلا طابوراً من اثني عشر مخرّباً، ينتظر كل واحد منهم نصيبه من المرح في بعثرة أوراقي، وتوسيخ سجادي، وتمزيق سكينتي، ودحرجة الصناديق القديمة من الأعلى، ولا أعرف كيف يمكن أن أتعامل مع كل هؤلاء الأطفال النزقين الذين يخربون هدوئي، هذا الذي بنيته من أعواد الكبريت، وعلب الدواء الصغيرة، والعشرات من كتب التاريخ الهزيلة، وشهادة ماجستير في إدارة الأعمال، وفن التصوير، وغرفة هادئة تتجمّع في أركانها المئات من أقراص السي الدي، والأفلام، وأوراق بريدية لا توجد في الرياض غالباً.

يمكنني أن أفتعل وعياً يخدّرني من ضجيج هذا العام الذي يبدو

أنه سيأتي نافراً من التقويم فعلاً، ولا يستحق إلا فصلاً واحداً من الكتابة، يشبه القفل الحديدي الثقيل، أحبسه خلفه حتى لا تتقافز منه شياطين التخريب الشقية، ولا تتمدد إلى أعوام أخرى، قررتُ أن أعيشها بهدوء، ووسط ترتيبات نفسية دقيقة، وآمنة، ورتيبة جداً.

II

شممتُ في معطفي الوبري الثقيل رائحة الغبار. أخرجته من زاويته الوقور في خزانة الملابس وأنا أمنّي نفسي بشيء من وجاهة الشتاء هذه الليلة، وعندما فردتُ المعطف قليلاً، ونفضته لعلي أجد أنفي كاذباً، فوجئتُ أن العثّة تركت على أطرافه دائرة غير مكتملة، وفوجئتُ أيضاً أن في جيبه فاتورة مقهى، يرجع تاريخها إلى أربع سنوات خلت.

ورغم أني لا أتذكر تحديداً كم كلفني هذا المعطف، أو حتى إذا كنتُ أنا الذي اشتريته وليس أمي، فقد شعرتُ بالكدر لأن العثة خرّبت معطفي، أحنّ قطعة ملابس عندي، وليس جورباً مثلاً، أو قميصاً عادياً. أسفتُ عليه فعلاً. هذا المعطف الذي يحمل دليل هوانه في جيبه، لم يكن يكنُّ لي إلا الدفء، فلماذا كان يجب أن تثقبه العثة هكذا؟

رميته بنفسي في زاوية مهملة هذه المرة، لتحملها الخادمة مع كومة ملابس أخرى راحت تعلو مثل قمم صغيرة في سطح الغرفة، وقد قررتُ أن أغتال السكون الذي اعتاده هذا الركن الشتوي من خزانة

الملابس. كنتُ مستاءً من العثة والغبار، وعاجزاً عن لوم الخادمة على إهمالها التنظيف لأني أنا الذي رحتُ أصرّ أخيراً على إبقاء الغرفة مغلقة طوال مدة غيابي، وإبقاء الجوار هادئاً أثناء وجودي فيها.

تدريجاً، فرغت زاوية الخزانة الشتوية من سكانها إلا القليل من الجاكيتات الجلدية التي لا طاقة للعثة عليها، وشعرتُ براحة عابرة، كتلك التي تخلفُ الانتفاضات الصغيرة.

همست لي الخادمة

– أرميها أم أغسلها؟

– إرميها يا مأمونة.

وراحت تنقل الملابس على عدة مراحل، بينما جمعتُ أنا مفاتيحي، وهواتفي، وبقية أشياء الجيب المعتادة، وخرجتُ من الغرفة مرتدياً ثوبي الأبيض الخفيف فقط، في ليلة تبدو باردة، وكأني أتبنّى نوبة عناد طفولية، لا أدري أأعاقب بها العثة، أم الشتاء، أم صدري الذي لا يتفق كثيراً مع الهواء البارد؟

على أية حال، ليس ثمة برد يستحق. لم يعد الشتاء يُجيد الوقوف بنا مثلما كان يفعل من قبل. صار شيخاً مسنّاً بلا حول، أخفت الأيام صوته القوي، وانتهكت حنجرته الجبارة، وتركته عليلاً يوشك أن يتقاعد من عمله في الزمن، ويترك المدينة وراءه لفصلها الوحيد الذي تعرف لغته، الصيف.

ولأني مصابٌ بالربو، كنتُ دقيقاً في رصد تراجع الشتاء، وهرمه، وضعفه. ورغم أن هذا لا يبشرني بالهدوء على أية حال، فللصيف أغبرته وعواصفه الترابية، والزمهرير الصناعي الذي تبثه أجهزة

التكييف غير المنضبطة يؤلم رئتي أيضاً. ولكن الشتاء في هذا العام بالذات كان الأضعف على الإطلاق. رأيته يجمع في بساطه الأبيض نفحاتٍ واهية لا تغني من برد، بالكاد يوزعها على الأشهر القليلة التي يلفظها عليه التقويم، وبالكاد يحركُ أوراق الشجر، ويغير شكل الشارع، وبالكاد يؤلف بين أحاديث الناس وظنونهم، مثلما كان يفعل في الأعوام الخوالي. وهذا العام بالذات، كنتُ أكثر الشامتين بضعفه هذا. سخرتُ منه في كل الأمكنة التي اعتاد أن يضطهدني فيها، في مدينة لا تنصر المظلومين على ليلة باردة، ولا على أيّة مظالم أخرى. حشرتُهُ في زاوية من الذاكرة البعيدة، دون أن أستثني رجفةً واحدة كالها لي يوماً ما، أو سعلةً جافة خدشت حلقي في إحدى نكباته، فما لبث أن أرتجف هو ذاته، ولملم نفخاته الرتيبة، ورحل.

كان آخر شتاءات الرياض، أقول هذا وأنا أعرف شتاءاته جيداً، وأحس بها في مرصدي الصدري الذي لا يعبأ بالفلك، لأنه ليس بدقة السعال، ولهذا أستطيع أن أستشعر حضوره ورحيله من دون أن ألتفت للتقويم، ومن دون أن أنتبه إلى رعشاتي، وملابسي، وحديث النافذة، وقرفصاء السماء.

وبخلاف السعال، عندي أدوات شخصية جداً أتحسس بها وجه الشتاء إذا دخل. أدواتٌ قلبية أعرف بها دائماً دخوله الرمادي، عندما أجدني خانعاً أمام كل حالات الذاكرة، نزاعاً للبكاء، والحنين، والجنس، مثل عازف ضائع. أبحث عن مأوى، وعن موقد، وعن إصغاء، وعن أحلام تخليتُ عنها منذ زمن طويل. هكذا يجعلني الشتاء أتوهم أني أملك جذوراً وأعرف أين أقف، وأجدني في يومه

الأول، غصناً يتبنّاه الرصيف والريح معاً.

رحتُ أنقر سطح جبيني، وأقلّب بصري في وجوه العابرين جواري كأسوأ عادات الرياض، وأتساءل وأنا ألمح ملامحهم المثبتة على حالة تذمر مشتركة: ترى ما الذي يستعجلون حدوثه في الرياض؟ ستمرّ الليلة، وتأتي أخرى شبيهة جداً بسابقتها، فليس ثمة رحمٌ أكثر إنتاجاً للتوائم المتشابهة من ليل الرياض، فأي شيء يجعلنا نسبق الزمن لنبلغ اليوم الذي يليه إذن؟

ربما كان الكثير من الكدر هو ما ينقص سكان هذه المدينة، ليستيقنوا يوماً ألا شيء مختلفٌ في الشارع القادم، ولا في وجه العابر المجاور، ولا في خمار المرأة البعيدة، ولا في بركة المطر الكبيرة، ولا خلف الإشارة التالية، ولا في الغد، فليتوقفوا إذن عن ملاحقة هذا الزمن المماطل، ولكن يبدو أنه ما زالت هناك آمال يذكيها كل جيل بطريقته، وأنّ ثمة شيئاً ما قد يتغير.

تركتُ لأغنية صاخبة مهمّة تغيير مزاجي، ورحتُ أتأمل المشهد من حولي في ليلة كان من المفترض أن تكون شتائية. ورغم انحراف قسوة البرد عن هذه المدينة كثيراً هذه الأعوام، فقد بقيت للشتاء حالاته، ودلائل قليلة على حلوله وهويته. لاسيما معي أنا. شيء في رائحة الهواء يدقُّ في قلبي أجراساً ضعيفة لأبواب لا أفتحها كثيراً إلا في الشتاء، منذ أول يومٍ يعلنُ فيه سعالي ابتداء الفصل الرمادي مثل ديك الفجر، أعرف أنه بدأ فصل المشي أثناء النوم، وفصل العودة إلى الدفاتر الأولى. الفصل الذي أستخرج فيه الأرقام العتيقة، وأستجدي الكريمات من النساء الباقيات قريباً مني، وأقول الكلام نفسه الذي

قلته لهن كل شتاء سابق، "عندي نوبة حب، تماماً كنوبة الربو، فعودي موقّتاً، وساعديني" أقولها بطرق مختلفة، ونبرات تتفاوت في مستوى الكرامة، والإقناع، ولكنها تصف الحالة نفسها في النهاية.

كم يوجعني الشتاء!

ذاكرتي منه موبوءة ومريرة، مثل تواريخ البلاد التعيسة، ليس لأن كل أحزاني حدثت في الشتاء. ولكن الشتاء يملك قدرة وحيلة على بعثها من جديد، وعلى أن يعيد سرد أخباري مثل راديو، ويستطيع أن يعيدني صغيراً جداً، ويلقيني مرة أخرى في الزاوية المظلمة المغبرة من خزانة الثياب. يستطيع أن يفعل العجائب. هذا الكائن البارد عنده مهمّات قهرية أكثر بكثير من مجرد الزمهرير والبرودة.

عندما كنتُ طفلاً كانت الرياض أشدّ برداً، وأمضى حيلة، وكان شتاؤها مليئاً بعافيته، معتداً بزمهريره، يمارس حضوره في الفراغات الكبيرة من المدينة بفحولةٍ صارمة، ويجعل فكرة الخروج في الصباح الباكر فكرة قابلة للمراجعة، وإعادة التقييم، ووزن الضرورة مع التعب. وفي الليل، كان يضطرني أن أنام في جوار مدفأة الزيت الحديدية استجداءً لدفء أمين، عندما يكون المكان عادةً محاصراً بالبرد الراكد مثل معادلة فيزيائية ثابتة، كما يصفه الجميع هنا، برد لا يتحرّك، ولا يركب الرياح مثل البلدان الأخرى، بل يثبت في مكانه، وينحشر في حلق الهواء المحيط بنا، غصةً كبيرةً من الارتعاش والقسوة. يخرج من الأرض ولا يأتي من السماء، كأنه ردة فعل حانقة من الأرض على الخطاب الشمسي الطويل الذي يركبها طوال الصيف، تلده الصحراء وتقذف به قلب المدينة، ويشعلون النار، لا

شيء يشفي من برد الرياض إلا حرز الحطب، ولغة المواقد، وعندها نجد أن كلامنا المتجمد في القلوب قد أخذ في السيلان، وراح يتجه نحو الآخرين ببطء، وسرعان ما تختلط الأحوال، ويضيع فيما بينهم وجل البرد.

هذا يفسر أحياناً، لماذا إذا تأخّر الحب طويلاً أصبحت المواقد ضرورة، ولماذا إذا تمزق الذي يحب بين ذاكرتين، صار وجهه رماداً، وكلامه يشبه طقطقة النار. هل لأنه يعرف أنه لن يتكلم عنها، أو عنهما، أو عنهن إذا كن أكثر، إلا إذا قوّلته النار ما لم يكن ليقوله من أكاذيب الحب الوحيد، والوفاء المديد، وخرافة هو النبيل، وهي الجميلة؟

لهذا يتضاعفُ حزني شتاءً، ليس لأني أتذكر أكثر، ولكن لأني أتذكر بشكل أصدق، وبلغة صريحة جارحة، تجعلني أعترف بنفسي، وبقلبي المتعدد اللغات، حتى لو عاقبني البرد، والهجير، والوحدة، كانت النار التي تأتي أحياناً مثل نعيم معكوس، هي التي تحرّضني على انكشافات كهذه، انكشافات الحب الكبير.

أنا لا أحب الشتاء، ولكنه الحالة الوحيدة التي تستوجب النار، ولهذا أنتظره وأنا مثقلٌ بالأكاذيب، وبمثالية القلب العوجاء. ليس من أجل زمهريره ونوافذه المقفلة، ولا من أجل الصوف، والمعاطف التي تأكلها العثة، لكن لأني أنتظرُ حضور الموقد الذي سأنتظمُ فيه ثلاثة أشهر، مثل عاشق نجيب، لأتعلم الكلام، والدفء، والحكاية.

الأمر يشبه علاقتنا بالحرب، نكرهها جداً، ولكننا نؤمن على اختلاف ولائنا، أنها الحالة الوحيدة التي يمكن أن نلمس من خلالها

الوطن على حقيقته. الشتاء يجعلنا ندخل غرفة الحقيقة ولو على مضض، ونعترف للنار مثلما يعترف المخطئون، ونخرج من الشتاء بقلوب لا يعني شيئاً طهرها من عدمه، المهم أننا صرنا نعرفها أكثر.

الأطفال الآخرون كانوا يحبون الشتاء، ويبتهجون بأشهره الثلاثة التي تكسر رتابة تسعة أشهر أخرى اختصرها الصيف، وجعلها تابعة له في النهج والصفة. كانوا يحبون تجدده، ملابسه، سمره، رحلاته البرية، ليله الطويل، وأمطاره التي تبثّ دفئاً عابراً، وبرك الماء الكبيرة في الشوارع الرئيسة، والصلوات المجموعة للتخفيف عن الناس، وعدة رموز أخرى لا يفعلها الصيف كثيراً، والأطفال يحبون الأشياء التي تتغير.

غير أني لم أكن مثلهم، لأن أمي كانت تدوخ إذا نامت في غرفة فيها مدفأة، ويجعلها الهواء الساخن تفقد التركيز، وحتى القدرة على المشي أحياناً، ويبثّ في رأسها صداعاً ضبابياً، وشعوراً بالغثيان، ولذلك كانت تكتفي بالملابس الثقيلة، والأبواب المغلقة، بينما أبي لا يستطيع أن ينام في حجرة مغلقة منذ تجربة سجنه، وأنا لا أتحمل البرد، ولا أستطيع النوم محشوراً في لباس ثقيل، أو مطموراً تحت أغطية لا تنتمي إلي، ولهذا كان الشتاء يشتت عاداتنا، ويغير أماكن النوم أيضاً. كانت أمي تنام في غرفتها، بباب مغلق، وتحت بطانيات عديدة، وكان أبي ينام في غرفة الضيوف، مكتفياً بلحاف خفيف، ومدفأة بعيدة، وشباك نصف مغلق أحياناً، بينما تجبرني أمي على النوم وحيداً في غرفتي، ملتصقاً بمدفأة الزيت التي تشعلها منذ غروب الشمس لتدفئ الغرفة، وتعلق في ثقبي الكهرباء مصباحاً صغيراً وردي اللون،

له شكل دبّ وحيد هو الآخر، وأنا لم أكن في طفولتي معتاداً النوم وحدي، ولكنه الشتاء، يفرق بين الطفل وأمه.

هكذا، كان الشتاء يعني لي: وحشة الليل، والتهاويم الغريبة التي تمر في ذهني قبل أن أغفو، وصور غير مفهومة أتخيلها على السقف، والشبح الذي يتربص بي في الزاوية الخفية من السرير، وبعض مخاوف أخرى يبعثها في وجدان الطفل ذلك السكون الرهيب الذي يأتي به الشتاء، بعد أشهر صيفية من الاعتياد على أجهزة التكييف، وهديرها المستمر طوال الليل، وعلى رائحة أمي وأبي في غرفة تضمنا جميعاً.

وحتى الصباح الشتائي كان نكداً مثل ليله. إذا استيقظتُ للذهاب إلى المدرسة، تبدأ مفاوضاتٌ مشوبة بالدموع مع أمي التي تساومني على جميع ملابس الخزانة، وأنا أرفضها كلها. كانت بشرتي شديدة الحساسية، و لم أكن لأحتمل التصاق أي نسيج صوفي بها، ولذلك كنت أهرب إلى القطن دائماً، و"القطن لا يدفئ يا ولدي"، قالت أمي كثيراً عبارتها اليائسة هذه آخر المطاف، معلنةً نصف استسلام، وقلقاً يائساً.

لم تكن تستطيع إجباري، إذ إني أستطيع أن أبكي بسهولة في الصباح، بسبب اعتكار مزاجي أصلاً بدافع الاستيقاظ من النوم، والبرد، والمدرسة، وكانت تعرف أني قد أخلع ما تجبرني على ارتدائه في السيارة، وهذا ما ينقله لها السائق فور عودته، مما يضطرها إلى إرساله مرة أخرى إلى المدرسة حاملاً ما خلعته من الملابس في كيس صغير، لعلي ألبسها إذا مسنّي البرد، واضطررتُ إلى ذلك، وكثيراً ما أفعل.

ولأنها لا تثق بلعب الصبيان، وتعرف أن الملابس الفوقية،

كالمعطف أو الجاكيت، سهلة الخلع، ما دمت ألبسها فوق الثوب أصلاً، فقد كانت تصر أيام البرد الشديد على تدفئتي بالملابس الداخلية التي تحشرها تحت ثوبي، حتى لا أخلعها بسهولة، وهذه الملابس تقتلني قتلاً! كنتُ أكرهها أكثر مما أكره الأولاد البذيئين، والصراصير التي تطير، وبرك الماء التي تبلل أطراف الجورب. حتى إذا أجبرتني أمي عليها استجرتُ بالدمعات الصباحية القابعة قاب جفنٍ من النقاش، وبالوعود الكبيرة، أن لا أنزع معطفي أبداً حتى أعود، إذا هي سمحت لي بارتدائه.

وفي الأيام التي يكون البرد شريراً جداً، بما لا يدع مجالاً للنقاش، كانت تجمع عليّ الآفتين، الملابس الفوقية، والأخرى التي تلبس تحت الثوب، وكانت تمر لي تهديداً بمستوى وعيي كطفل: "ترى إذا شلت ملابسك أنا أعرف، أشمها، وأعرف أنك ما كنت لابسها في المدرسة". و لم تكن أمي بحاجة إلى هذا الأنف النابه، كان سعالي سينبئها بامتثالي على أية حال، هذا الربو كان جاسوساً مخلصاً لقلب أمي الخائف.

ولا أدري هل كان مدير المدرسة الابتدائية التي درست فيها قد تلقى اتصالات من والدة طالب كاتصالات أمي، فإذا اشتدت صولة البرد، فلم تكن تتوانى عن ذلك، لتطلب منه أن يتأكد أني ألبس معطفي، وخجلاً منها، كان يبعث رسوله الأشيب البذيء الذي يتذمر من هذه المهمة، فلا يعبر عن تذمّره إلا بسخريته السيئة، فيطرق باب غرفة الدرس، ثم يهتف متعمداً إضحاك الطلاب: "حسان بن إبراهيم، أمك تقول البس جكيتك!"

ولا أدري لماذا كانت تلك الحالة الإنسانية العادية، تثير سخريته إلى

هذا الحد.ألم يكن لديه أبناء وأحفاد؟ ليس هو فقط، بل بقية التلاميذ من حولي وهم يضجون بضحكات مكتومة إذا كان الأستاذ حاضراً، وأخرى عالية ساخرة في أثناء غيابه. كان تحولي إلى أضحوكة الطفل المدلل يؤذيني حتى الصميم قبل أن أفكر في تبرير يجعلني أتجاهل معاييرهم الغبية، أصبحتُ كثيراً ما أنقم على أمي، وأتمنى لو أتخلص من عاطفتها الحديدية التي تشد بها عليّ، وتجعلني أبدو مختلفاً، محط أنظار الساخرين، المتهكمين، في مدرسة حكومية كبيرة، لا تخلو من أمثالهم.

وكان هذا الشأن المتكرر يلفت أنظار المعلمين إليّ. هذا الطفل الذي تهتم به أمه إلى هذا الحد، ذو اللهجة المهذبة، الخجول جداً، الهادئ دائماً، يبدو ناعماً، ولدى بعضهم، يبدو مثيراً، ولدى آخرين أشد جرأة، وربما كنت أبدو كتوماً، لا أبوح بما قد يحدث لي. لذلك لم تكن أغلب لمساتهم حانية لوجه الحنو فقط. لأنه إذا كان هذا المعلم يعطف عليّ فعلاً كأب، فلماذا لم يكن يضمني إلا ونحن، أنا وهو، وحدنا؟ لماذا خارج الفصل؟ ولماذا لم أر غيري من الطلاب ينال هذه المعاملة الحنون حد العناق؟ حتى الأول في الفصل، والأفضل في كرة القدم، وأفصحهم خطابة في الإذاعة الصباحية، لم يكونوا جميعاً ليحوزوا معاملة كهذه التي أشعر بأنها تحط عليّ أنا فقط.

أتذكر أني كنتُ أشعر بالضيق، من دون أن أفهم السبب. ثمة معلم آخر لم يكن يقبّلني قبلات الرجال بالتصاق الخدين فقط، بل كان يطبع شفتيه بقوة على خدي، وإذا نجح في خلق موقف كان يجعل القبلة تبدو عابرة سريعة، لكنه كان يسعى إلى جعلها أقرب

إلى شفتي، وأحياناً في البقعة الصامتة من رقبتي، ويستنشق بقوة ما يتسرب إليه من رائحة جسدي الصغير آنذاك. لم أكن أعي أن ثمة تحرشاً كهذا يحوم حولي، وأني أكاد أكون على مرمى خلوة محتملة من شبه اغتصاب. كان جلّ ما أخشاه هو أن ينتبه أحد الطلاب إلى هذه العاطفة الجياشة، كما كنت أظنها، والتي يكيلها بعض المعلمين تجاهي، خوفاً من سخرية زملائي مني فيما بعد، لأن بعض المعلمين كان يستخف بعقول الصغار، ويستهين بأفهامهم الفطرية البسيطة، فلم يكونوا حريصين على إخفاء محاولاتهم السريعة في اللمس والتقبيل أمامهم، كما يحرصون على إخفائها عن بقية المعلمين، أو طلاب الصفوف العليا. حتى إذا انتهى الموقف، اشتعلت ألسنة الطلاب بالسخرية شهوراً طويلة بعدها.

أحد أولئك المعلمين ألح كثيراً على تسجيلي في الأنشطة خارج الصف، حتى يتسنى له دائماً إبقائي في غرف النشاط، وقتاً أطول، وفي معزل عن الفصل المكتظ بالطلاب الآخرين، وأيضاً لم أكن أفهم نيّاته، و لم أفهم أيضاً ذلك الحوار الحاد الذي دار بيني وبين معلم أحد المواد الدينية، الذي اشتم رائحةً سيئةً في سلوك ذلك المعلم تجاهي.

كان ذا لحية كبيرة، وحضور مهيب، رغم تلطفه معنا، وحكاياته التي لا تتوقف، غير أنه كان لا يلمسني بل يربّت رأسي تربيتاً طفيفاً، وبأصابع نزيهة جداً.

ذلك اليوم قال لي:

– حسان، ألاحظ تردّدك الدائم إلى غرفة النشاط، لماذا؟

– لأن الأستاذ سلطان يأخذني معه إلى هناك.

– وماذا تفعلان؟

– نرتّب الأوراق، نعلّق بعض اللوحات.

– لوحدك، ولا فيه طلاب غيرك؟

– أحياناً يجي طلاب غيري، وأحياناً ما يجي أحد.

– إذا لم يأتِ طلاب غيرك، لا تجلس وحدك، عد إلى فصلك.

– طيب.

– ترى إذا شفتك لوحدك مع أي أستاذ في غرفة النشاط بزعل منك، هذا ممنوع.

– طيب.

– وإذا أحد عمل لك أي شيء، لا تسكت، رح للمدير، أو تعال اعلمني، أو قل لأبوك.

– طيب.

وأركض بعيداً، وأنخرط في اللهو مع بقية الطلاب، أو أعود إلى فصلي، وتتبعثر تحذيراته تلك خارج رأسي تماماً.

لم أتذكر كلمات معلّم الدين ذاك إلا وأنا أرتجف تلك الظهيرة، في المقعد الخلفي للسيارة، وأنا عائدٌ إلى المنزل، أسترجع ما حدث في الصباح، وكيف دسّ المعلم يده بوقاحة في مؤخّرتي، بينما أنا منشغل بألواني، وكراسة الرسم، مفجّراً في جسدي طوفاناً من الارتباكات، والخوف، والرجفات التي احتلّت يدي وصوتي، وجعلتني أبتعد عنه فجأة، وأرمقه بتلك النظرة المتسائلة المذعورة!

أمي وحدها كان يمكن أن تبلغ يداها مؤخّرتي في تلك المرحلة من طفولتي، ولكن ليس هكذا، أمي تساعدني في الاستحمام، وتعبر يداها

جسدي بلطافة، ومن خلف قطعة الاستحمام القماشية الصغيرة، وتمرّ من مؤخّرتي بشكل أفقي سريع، وليس عمودياً كما فعل المعلم. للمرة الأولى في حياتي أستشعر يداً خشنة، تلمسني بشكل فجّ جداً، وعلى غير انتباه. هذا الشعور غير المعتاد هو الذي جفّلني مثل القطة حين نلمس بطنها، شعرت ببرودة سريعة في صدري، وعلى جانبي عنقي، وببضعة انقباضات لا إرادية في مؤخّرتي، ثم عاد دمي تدريجاً يبث دفئاً مضاعفاً في أوصالي التي جفّت وهلة، لتقييم الموقف.

وقتذاك تركني، وراح يتحدّث عن أشياء أخرى مع بعض عمّال المدرسة، وكأنما يريد أن يصرف انتباهي عن غرابة تصرفه معي، واقتحامه خصوصية جسدي بتلك اللمسة المباغتة، لم أستطع العودة إلى مكاني والاستمرار في الرسم مرة أخرى. حملت حقيبتي، وخرجت من غرفة النشاط بصمت، فناداني قبل الخروج:

- حسان، وين رايح؟

- بروح الفصل.

اصطنع نظرةً جادة، ووجهاً جديداً، ولكني لاحظت دوران عينيه في محجريهما فيما يشبه حيرة عابرة، ثم قال لي بارتباك وإن بصوت عال:

- طيب، طيب، آ، لا تنس الواجب بكره.

لم يكن ثمة ما يدعوه إلى تذكيري بالواجب في هذه الأثناء، ربما لم يكن هناك واجبٌ أصلاً، لا أتذكر، ولكنه كان يحاول جاهداً تشتيت تركيزي، وإرغام التيار الذي اضطرب فجأة على العودة منسجماً داخلي، لأنسى ما قد حدث، وتمر شهوته الإصبعية بسلام،

من دون أن أتكلم عنها أمام الآخرين.

بالفعل، عدتُ إلى المنزل من دون أن أنبس بكلمة واحدة لأحد، ولكني كلما تذكرت الموقف سرت في بدني كهرباء مؤلمة، وشعرتُ بأن شيئاً ما في نظراته التي أعقبت تلك اللمسة، كان يشي بأمر غير مطمئن، ولكني لا أملك التخمينات اللازمة لوضعه موضع شك، و لم أفهم ما هو التحرش، كيف يكون، ولماذا هو سيئ.

ربما غابت عن ذاكرتي تلك الحادثة آنذاك، ولكن جزءاً منها تحرك داخلي، واستقر في أصابعي التي تحمل سلوكاً كامناً منذ الطفولة، يتجه بها لاإرادياً لتكرار الصدمة ذاتها، ولا تفهم الفتياتُ اللواتي عرفتهن تباعاً لماذا تكون يدي دائماً هي أسبق خيولي إلى أجسادهن.

في لقاءاتي الأولى مع جوريّة، ارتسم في عينيها عتابٌ خجول، ومن وراء ابتسامة مرتجفة، قالت لي:

– يدك.

رفعتُ وجهي الذي كان ملقىً وراءها في ضمّة عصبية لأنظر إلى عينيها العسليتين مباشرة.

– ما بها؟

ازدادت عيناها انخفاضاً، وأجابت بخفر:

– طويلة شوي، يبيلها قص!

كنا قاب شفة من أول قبلة، حتى القبلة نفسها لم تكتمل، بينما كانت يدي قد توغّلت فعلاً مسافة غير قصيرة من فخذها، وراحت تدبّ ببطء على جلدها وحبيباته المتوترة، وبإصرار خُلْد شجاع على إكمال تنقيبه في الأرض، و لم أكن قد أعلنتُ وإياها أن الجنس حَدَثٌ

محتمل بعد، وسلوكٌ مقبول، فكيف تراها يدي قد قررت قبلي؟ ولماذا تنطلق في خيارها المستقل من دون الرجوع إليّ، ومن دون أن تلتفت إلى ظروفي التي أختارها مع الفتاة قبل ذلك، وما يمكن أن تضعني فيه من حرجٍ محتمل؟

راحت يدي تطبق دوراً كُتب عليها قبل سبع عشرة سنة من هذا اليوم الحنون مع جوريّة. حتى هي فعلت الأمر ذاته، كانت تغمض عينيها، ثم تترك يديها تجوسان في جسدي حيث تقودها شهوتها، وكأن أقصى ما يسمح به ضميرها المرتبك آنذاك هو أن تلمس، ولا ترى. وظلت تمارس هذا العمى الاختياري في الجنس عدة لقاءات بعد ذلك، قبل أن تجد أن حكر الذنب على يديها لا يجعله يبدو أصغر، فاندفعت ببقية حواسها الأخرى، ولم تتوقف حتى آخر ملوحة الجنس، وأول ارتواء له في حياتها.

الآن فقط، أستخرجُ من طفولتي تفسيرات محتملة لكل عاداتي البسيطة، عندما كان جسدي الطفل لا يفهم الجنس، ولكن عقلي الباطن يفهمه حتماً، ويستوعبه، ويدركه، وعندما يكبر، يظل العقل الباطن على إدراكه السابق، ولكنْ يصبح هناك جسدٌ ناضج مستعد لتلقي تلك الأوامر المختزنة، وممارسة السلوكيات التي يمليها عليه هذا الذي أحاط بكل شيء، و"الجسد لا ينسى" كما يقول فرويد.

لو يعلم وزّان أني أشخّص نفسي أفضل من تشخيصه النفسي الدؤوب لي، لربّما ابتهج، وشعر أني أتوهم فهماً عابراً لمنحنيات حياتي. أنا أوقن أن شهادته النفسية أكثر احترافاً من تخرصاتي، ولكن أوقن أيضاً أنني أكثر صدقاً مع نفسي، وأكثر جرأة في مواجهتها ذاتياً،

قبل أن أواجهها معه. هو الذي كان طبيبي، ثم صديقي، ثم طبيبي مرةً أخرى، ثم أصبح شخصية فقدت تصنيفها في دائرة حياتي.

هو طبيب نفسي، وأنا يستهويني فرويد الذي يرى وزّان أن نزعته للفن وميتافيزيقاه أفسدته، وأنه كان ظاهرة عصره لأن المعطيات العلمية المحدودة آنذاك كانت تجعله يبدو باهراً، "... من علل التاريخ أنه يفرض علينا أن نرتدي الانبهار القهري بالسابقين، من دون أن نعاير انبهارهم هذا بمعطياتنا الحاضرة التي ربما تجعل من فرويد شخصاً عادياً"، هكذا كان يقول.

ولكني كنتُ أرى أن العبقرية كينونة متحررة من الزمن، ويمكنها أن تنتج نتاجاً مرادفاً لمدى توهجها أينما استقرت على معطيات محرّضة، ومحفزّة للإبداع، وكان أخوه أيمن دائماً نصيري في الآراء العقلانية، ودائماً هو اللدود عندما تكون الشؤون قلبية. هو المهندس الذي يفكر بنصف عقله الأيسر، وأنا الحالم الذي يفكر بالأيمن. ولربما لو عرفني أيمن في مراهقتي لوجدني مغلق القلب، مدفوعاً في غمار يشبه ما يندفع فيه الآن هو، وما يراه في الحياة، وما يطلبه منها، ولكننا التقينا في زمن كان كلٌّ منا قد انقلب، على المستويين العقلاني والعاطفي، كمقص.

لم أكن إلا راكباً في عربة نقاش عابر مع الأخوين، نخيط به ما تمزّق من ثوب الليل، وفي الحقيقة التي اكتشفتها متأخّراً، وفي شتاء ما كالمعتاد، لم يكن فرويد أستاذي ولا طبيبي، ولا كنتُ يوماً مهتماً بعلمه ولا نظرياته، ولا لحيته وغليونه. كل ما في الأمر أن فرويد كان الوحيد الذي وقّع بثقة صكّ براءتي من أي نزعة شرّيرة وراء جموحي

الجنسي، وطهارتي المكسورة، وألقى بكل التبعات، كلها بلا استثناء، في فجوة سوداء من العدم اسمها اللاوعي، تاركاً لي ممحاة رائعة، أمحو بها الذنوب غير الضرورية كلما تراكمت فوق ضميري.

ألم يكن فرويد رائعاً عندما نزل على عقلي مثل رجل الإطفاء، لينقذني من لجّة حريق كبير من الندم، أشعلته جوريّة حولي وهَرَبت؟ كان ملاذي الوحيد فعلاً عندما كانت جورية تغيّر رقم هاتفها، وترمي عليّ ثلاثة أطنان من اللوم لتخنق أنفاسي، وتتهمني بأربع تهم معتادة: تشويه أحلامها، واستهداف جسدها، وتحريضها على خذلان ثقة أهلها، وخدش الصورة المثالية التي كان يجب أن يجيء عليها حبّها الأول، وفارسها المنتظر. ولهذا لذتُ بكتب فرويد، وبأي نظرية أخرى تنقذني من كلامها المدبب الذي كان يخترقني بسهولة، وينفجر في داخلي بشكل مكتوم، وصامت.

كنتُ أتعجب من هذه الفتاة التي لم تتجاوز العشرين من عمرها آنذاك، كيف تملك موهبة في تبكيت الضمير، وإشعال الندم، ولديها قدرة استثنائية على عكس مسارات الذنوب تماماً، ولهذا تطلّب الأمر عدة أشهر حتى نفذتُ بضميري من قصبة شنقٍ كبيرة كانت قد أعدَّتها لي على عجل، وهي ترتب دموعها حتى تبكّي أمامي بشكل أنيق وترحل، في اليوم الأخير من أكتوبر كما يقول تذكارها الأخير، ثم تضعني في مواجهة غريبة مع قلبي.

وحتى عندما تجاوز رحيلها ردحاً زمنياً طويلاً، وظننتُ أنها غابت في النسيان إلى الأبد، وجدتها ما زالت تمارس هواية تأنيبي عن بعد، وتترك لي رسالة إلكترونية تعلّق فيها على كتابي الذي انتشر فجأة "لا

يبدو وكأني أقرأ أشياء جديدة هنا، الرجل يبدو مألوفاً جداً إلى حد الرثاء، والأحداث كانت شبه متوقعة..."، ولم تطل التعليق، حتى لا تكسر سطوة غيابها هي الأخرى.

حاولتُ تفادي الألم الذي أحدثه حضورها غير المتوقع في مكان لم يكن معداً لها على الإطلاق، ووسط ظروف مشوّشة تماماً، أحاول فيها ابتلاع حقيقة نشر كتاب لي يتحدث عن حبّ امرأة أخرى. حاولتُ، ونجحت بشكل ناقص، لأن الجورية تجيد ابتكار الألم، وتعرف جيداً كيف ترشّ المسامير في الطريق.

وفي الرسالة القصيرة نفسها سردت الجوريّة شيئاً من أخبارها. لم أسألها، ولكني لم أستغرب البتة أن تكون كل أخبارها جيدة، وسعيدة. لا يمكن الجورية أن تسرّب لي نصف شك في أنها حزينة على فراقي. ذات كبرياء تعمل تلقائياً بدون أزرار أحياناً. أخبرتني أنها تدرس في بريطانيا الآن، ولم تكن تلك معلومة مهمة، ولكنها كانت طريقتها في التلميح إلى أنها تجاوزتني جغرافياً أيضاً مثلما تجاوزتني عاطفياً.

وعندما أعيد قراءة كلماتها التي وافتني بها رسالتها الالكترونية، موقّعة باسمها المستعار المعتاد (غدير)، أكتشف أنها تزداد بعداً إلى حد مريح بالنسبة إلي. لقد انقشعت الجوريّة تماماً عن سمائي مثل غيمة وجدت نفسها فوق الأرض الخطأ.

بقيتُ أياماً أفتش في تعليقها عن لمحات أخرى تجعله أخف وطأة قبل أن أكتشف تدريجاً أني أفتش عما لا أحتاجه أصلاً. هل سأكون أقل تعاسة لو وجدتُ في كلامها أنها ما زالت تحبّني مثلاً؟ لا أعتقد. حيوان الاعتزاز الموقّت الذي سيقفز في صدري حينذاك كعاشق

سابق، سرعان ما يلتهمه حيوان أكبر، اسمه الذنب، وينهشني بعده قطيع من الندم المريض.

كانت الجورية تريدني أن أتحمل وحدي إثماً ارتكبناه معاً. ليس إثم الرغبة، والجسدين الملتحمين تحت السماء مباشرة، فوق سطح منزلنا في الرياض، عندما ضاقت الأمكنة، بل إثم الوقوع في حبّ غير مبرر، بين شخصيتين متعاكستين تماماً، تفوح من علاقتهما رائحة المنافسة أكثر من الانسجام والتآلف، حتى لكأن كل حالات الانكسار العاطفي التي نتبادلها على شكل الحبّ ليست إلا هدنات موقّتة تفرضها ظروف السباق، حتى يتأتى لكل منا بعد ذلك، أن ينقض انقضاضة قادمة على مساحة أوسع من قلب الآخر.

تعرفتُ عليها مصادفةً في أحد مقاهي بيروت. كانت محجبة، تلبس نظارات أنيقة، وتقضم أظفارها طوال المساء، وتقرأ كتاباً إنجليزياً صغيراً تاركة العالم وراءها صاخباً في مساء صيفي معتاد في قلب السوليدير. كان أبي وأمي يمشيان على امتداد الشارع، وأنا أبقي عيناً نصف مهتمة على ما تركاه في عهدتي من أكياس ومشتريات قليلة. ولأني كنتُ في مزاج رائق جداً، وفي حالة مناكفة غزلية لم أعرف أنها ستكلفني الكثير في ما بعد، شعرتُ بأن فتاة تقرأ أمامي بكل هذا التركيز، تبعث رسائل متحدية.

ركزت بصري حتى استطعتُ أن ألتقط عنوان الكتاب الذي تقرأه، ولم أكن أعرفه قط، فتركتُ مكاني بعد أن عاد أبواي، وهرعت إلى مقهى إنترنت صغير في طرف المكان، وأدخلتُ عنوان الكتاب في محرك بحث جاد عليّ بنتائج كثيرة. سرقتُ من

تعليقات القراء التي وجدتها ما يجعلني أستطيع أن أرمي على الفتاة عن قرب تعليقاً بسيطاً يشي بأني قرأت الكتاب من قبل، ويصنع شيئاً من الألفة المفتعلة.

وبالفعل، ألقيتُ عليها تعليقي المسروق ذاك وأنا أمر في جوار طاولتها عائداً إلى مكاني، وخلّفتها ورائي من دون أن أنتظر ردها، تاركاً ابتسامتي تلك معلقة في الهواء.

لم تعقّب عليّ، ولكني شعرتُ بأن عينيها تتابعان حركتي البطيئة وأنا أتجه إلى والديّ اللذين عادا إلى الطاولة، وأقبّل جبين أمي، ويد أبي، من دون داع، إلا استشعاري نوع نظراتها المعلقة على ظهري.

كانت الجورية تفتش عن حبّ مختلف كهذا تفضُّ به بكارة قلبها العشريني المغلق، وأنا الذي أقرأ الكتب الإنجليزية نفسها التي تقرأها، وأقبّل والديّ في الأماكن العامة كإنسان طيب، منحتُها شيئاً شبيهاً بما تحلم به، والكثير من مساحات الغموض، لتخربش هي معادلاتها الافتراضية كما تريد، ولترسم تدريجاً أسهماً مطواعة، وراضية، باتجاهي.

هندسة الغواية هذه تكاد تكون ألذَّ كثيراً من ارتعاشات الجنس الكبرى في أحلام الذكور، لم أكن أعوّل كثيراً على محاولتي تلك، وكنتُ أحتسبها ضمن عبث المزاج السياحي عندما يكون رائقاً، ومناكفاً.

أصبحنا صديقين، وعدنا إلى السعودية لنتواصل أكثر، ولنتورط معاً في حالة أصعب كثيراً من عبث بيروت المكلف ذاك. لم تكن جورية الأولى، وليس عندي ورقٌ فائض أتبجح عليه بسلسلة طويلة

من الحكايات، فمنذ أن بلغتُ سن الشهوة وأنا أعرف أن طهارتي مكسورة، ووجهي مشقوقٌ إلى نصفين لا علاقة لأحدهما بالآخر، كوجوه البجع. أستطيع أن أدخل في علاقة مع امرأة ما، وأخرج من علاقة أخرى في اليوم نفسه، من دون أن أشعر بأصوات الأبواب التي تغلق وتفتح. لا أدري من أَودع فيّ كل ذلك الصلف العاطفيّ، رغم أني طيب مثل دراجة هوائية يملكها طفل قروي، ولطالما اعتقد أبواي أن ابنهما الوحيد الذي ينهب الربو صدره كل شتاء، يملك حساً دقيقاً، وروحاً مرهفة، وأنه قاب ورقة أو أدنى من الشعر، ولطالما أرهقهما الحذر الزائد، وترّساني بكل نصيحة تحرّضني على أن أصبح أقوى، وأكثر قدرة على المواجهة واختراق الحياة. ولكن، ويا للأسف، لم أستطع أن أكون هذا القوي الذي يرجوانه إلا مع النساء!

ولكن جورية كانت الواصلة الأولى إلى نقطة الذنب في داخلي، أليس في الأجهزة الالكترونية أحياناً نقطة صغيرة مختفية، نضغطها لنمسح ذاكرة الجهاز تماماً؟ جورية وصلت إلى نقطة شبيهة في داخلي، وضغطتها بكل مرارة أيامها الضئيلة معي، لتلغي جبروتي في عدة أيام، ولأصبح ضعيفاً إلى حد استجداء فرويد ونظرياته ليرمّم ما أفسدته الجورية من شخصيتي، ليس لأنها ناعمة كما لم تلمسها يدٌ من قبل، ولا لأنها تجيد فعلاً العبث بمساحيق التجميل الملونة لتتحول إلى حلم تلفزيوني غير قابل للمسّ، ولا لأن خصرها ينحني جيداً على صدري كثعبان يتعلم الرسم، ولكن لأنها أيضاً تعرف أين تجد في داخلي تلك النقطة التي تمسح رصيد القلب تماماً، وتجعله صفراً.

أهديت إليها باقة من الزهور الحمراء القانية لأعلن عليها الحب

بدون مقدمات باطلة، فأهدت إلي في المقابل قرآناً مزخرفاً، وتمثالاً خشبياً نحتته بنفسها. أهديت إليها بعد ذلك علبة من الحلوى الفاخرة في عيد ميلادها، فأهدت إلي في المقابل ورقاً بردياً جميلاً في قارورة من الزجاج، تحمل رسالة قصيرة منها. لم أنتبه لسياق الهدايا وأنا أقطع معها الحب لقاء بعد لقاء، وأكسر نحوه حاجزاً بعد حاجز، حتى خلصنا في النهاية إلى جسدين موتورين يقتسمان البرونز والملح والرغبة المتصاعدة. قالت لي بعد ذلك: "ألم تلاحظ أنك أهديت إلي أشياء لا تبقى، بينما هداياي إليك عكس ذلك؟"

اللعنة!

كل ما يحدث كان يُنقشُ بحذر في قلب جورية الجديد، ولم أكن أعرف أنها، ككل الإناث، ترصد حبّها الأول بجميع حواسها الممكنة، حتى لا تفر منها لحظة قد تتسرب منها الحالة من دون أن تشعر. كنتُ مراقَباً في كل أفعالي بعدسة لم أتوقع حجمها الهائل، ودقتها المخجلة. ها هي جورية الآن تستشهد بهداياي ضدي، وتوقعني في بقعة خطيرة من اللوم الموثق بالأدلة. "... ألا تظن أن نوعية هداياك هذه يمكن أن تعكس شيئاً من نيّاتك المسبقة تجاهي؟"، ولم أستطع أن أفرّ من سؤالها الأول حتى حاصرني الثاني من الجهة المقابلة. الضحكات التي افتعلتُها لأكسر جدية المصارحة لم تكن جيدة، وانتبهتُ أخيراً إلى أن هداياها في المقابل، كانت صعبة التجاوز.

من يستطيع أن يتجاوز شاهداً مقدّساً مثل القرآن؟ أو ذلك التمثال الصغير الذي نحتته الجورية في ساعات من جهد أصابعها، وصدق

يديها؟ وحتى تلك الورقة كانت نصاً مكتوباً يدينني، بينما القارورة الصغيرة التي تحملها لم تكن إلا رمز الوصول الأبدي، مهما طال السفر في البحار التي لا تعرف القراءة، ولا تنوي تعلّمها.

– ما الذي جعلكِ تفكرين في هذا يا حبيبتي؟

– تأملتُ غرفتي هذا الصباح، وانتبهتُ إلى أنها لا تحوي شيئاً يدل على أني أعيش قصة حب، أي شيء! حتى الزهور ذبلت برغم كل ما فعلته لأطيل عمرها الميت أصلاً، وعلبة الحلوى انتهت لأنها لم تأتِ إلا لتؤكل. ماذا تريدني أن أفعل؟

ضحكتُ بعصبية وأنا أداعبها.

– كان بإمكانك تجفيف الزهور مثلاً.

وتجاهَلَت هي ضحكتي واقتراحي تماماً، وراحت تكمل كلامها، بتلك النبرة التي لا تصعد، ولا تهبط، وتبقى ثابتة على مستوى واحد من الحقن الهادئ المستمر لأطنان من الذنوب الصغيرة، تحت جلدي.

– بالطبع إن خلوها من علامات الحب لا يعني أني لا أمر بحالة حب حقيقية، ولكن ثمة ما يشعرني بأني لن أعيشها كأمر محتوم.

سكتُّ، كما لا ينبغي لي إلا أن أسكت، بينما ألقت هي سؤالها المفاجئ:

– حسان، قل لي بصدق: هل ستبقى معي إلى الأبد؟

أجبتها بصوت يفضحه ارتجافه:

– طبعاً، طبعاً، يا حبيبتي، بلا شك.

– لماذا لا نتزوج إذن؟ ماذا ننتظر؟

كان طموحها أسرع من قصتنا، هذه كانت مشكلتنا الواضحة،

وهذا ما جعلني أتعثر، وأسقط، وأركض في الاتجاه الآخر لأنجو من عربة الذنب المجنونة التي كنا نركبها معاً. كانت لدي بضع مشكلات صغيرة مع فكرة الارتباط بأنثى واحدة، وكيف أن كل البرونز الذي تفرزه بشرة جورية معي، والذي قد تفرزه مع رجال آخرين، لا يمكن أن يقنعني بارتباط أحادي دائم كهذا، و لم أكن أعرف أن امرأة قادمة سوف تأتي بعدها، لتعلمني على مهل، فن التوحد فيه.

وبعد أشهر قليلة، كانت جورية تصرخ في سمّاعة هاتفي: "وسامتك التي تتباهى بها، ستورثك ندماً عميقاً أيها الجبان!"، وتهشَّمَ كل شيء، كما كان متوقعاً لهذا الحب أن يتهشم مثل الخزف المغشوش، ظلت الجورية تبتزّ مني وعداً جديداً كل صباح، ثم صارت أكثر تطلباً فيما يتعلق باتخاذ إجراءات جادة للارتباط، وبقية الشؤون الكثيرة التي لا تطفئ قلق فتاة تجرب الحب للمرة الأولى، وتعيش منذ أشهر خارج السقف الدافئ للصدق الأسري، وبعيداً عن دور الإبنة الشفافة المستحقة ثقة الأهل، كما تعودت أن تعيش دائماً.

قرَّرَت هي في آخر المطاف أني أتعبتها، وتسببتُ في تأخيرها، وتعطيلها، وانحشرتُ مثل حصاة صغيرة في عجلة طموحها الضخم، ولهذا غيَّرَتْ رقم هاتفها فجأة، ولا أتذكر أنها قالت وداعاً، بينما تنفستُ أنا الصعداء، ولكني ما زلتُ بين حين وآخر، أفعل مثلما يفعل العشاق الكلاسيكيون في العصور الوسطى، أمرّ بباب بيتها في ليلة شتائية ما، لآخذ نصيبي من الذنوب، وأمضي.

ها هي تُعرّض بوسامتي الآن رغم أنها لم تذكر ذلك كثيراً أثناء الحب، والآن تلقيها عليّ في غمرة الغضب وكأنها تهمة! لم يكن

بإمكاني أن أخبرها أن الذي تراه هي وسامة في الوجه، ربما جعلتني أتلقى العشرات من التحرشات الشاذة في طفولتي، وأتركها ترسبُ في داخلي ببطء. وهي لا تعرف حتماً كيف أن إصبعاً واحدة تبلغ ما لا يحق لها أن تبلغه من مؤخّرتي تكلف ذهن الطفل الصغير عشرات الأيام من التفكير الثقيل، وتزرع في سلوكه العشرات من العادات السيئة. فكيف إذن بأصابع كثيرة، وعشرات الأيدي، وعشرات الأعضاء التي تنتفخ من وراء الثياب، وتطرق ظهري في النشوات العابرة، كلها ترسبت جيداً، لتنحت لها هذا الوجه الصلب في النهاية.

لم تكن تلك المعاناة تطرق ذهني كثيراً، ولكني اضطررتُ إلى استدعائها من صندوقي النفسي القديم عندما أوجعني رحيل الجورية البارد، واحتجتُ إلى لحاف ما. لا يمكن أن ندفع الذنب المقترب مثل غاز، إلا بالاختباء في ملجأ صغير كهذا، يقنعني بأني أنا المظلوم، ولا أستحق ما يحدث لي معها.

لم أسمع الجورية تصفني بالوسيم أثناء حبنا قط، هذا ما يجعلني أكثر اقتناعاً بأن حبنا كان مشوهاً بحالة تنافس غبية، و لم تكن هي تريد أن تمنحني نقاطاً أكثر. وربما كان هذا سبباً إضافياً يجعلنا لا ننسجم حتى في حالاتنا الجسدية، هي التي فكرت في الجنس على عجل كعلاقة علوية، طرقت بابها فجأة مع حب لم يكن متوقعاً، و لم تستعد له بحقيبة من الألوان الأخلاقية الجميلة، واكتفت بالفوضى التي تأتي مع الحب، وتبرر الأشياء وحدها لفترة موقّتة، يصبح خلالها كل شيء محتملاً وجائزاً في خضم الدوخة الكبيرة. هذا أقصى ما منحها إياه تسارع العلاقة من الوقت للتبرير، بالإضافة إلى إلحاحي على لقاء

جسدي ما، فلم تجد للجنس رفّاً مناسباً في خزانة حياتها المثالية جداً، ولذلك احتسبت هذا الجنس المبكر أقساطاً مقدمة لعلاقة لابد أنها ستنتهي بالزواج عاجلاً أو آجلاً، و لم يكن إلا ذلك ما يمكن أن يبرر لها أن تمكّنني من جسدها البرونزي الثمين ذاك، ذي الخصر المطواع، رغم كل الحواجز المتراكمة.

أما أنا، فلم أفكر وقتذاك في الجنس كحالة سامية البتة. كنتُ لا أراه إلا حالة لاحقة محتملة لأي من التحرشات التي تعرضتُ لها في طفولتي. الجنس شيء قبيحٌ يجعل الكبار يتصرفون بفجاجة مع الصغار، كان هذا تفسيري الطفولي الأولي، فلماذا كان يجب أن يتغير فهمي؟ ولهذا كبرتُ، و لم تتغير الفكرة كثيراً، ولكنها اندمجت مع مرحلتي العمرية التي صرتُ أتعرض فيها لإلحاح الرغبات، وتحوَّل الجنس إلى فلسفة لم أصغها، و لم أطلع عليها، بل مارستها فقط مثلما وجدتها، وقد تكوّنت في داخلي وحدها. فلسفة الجنس المادي. سلسلة الاحتكاكات الجلدية التي تُورث السعادة، وقليلاً من الشجن النفسي ليبقى الفعل إنسانياً فحسب.

ولهذا اختلفتُ معها عند أول فراش. هي التي انتبهت إلى يدي الطويلة، رغم أن طول اليد أو قصرها لم يشكل فارقاً كبيراً في الأيام التي تلت ذلك، بعد أن اشتعلنا سريعاً في علاقة جسدية محمومة، وأصبحت يدها أطول من يدي بعدة سنتيمترات حرجة، ورغم أنها كانت الفتاة التي تتعرف على أسئلة جسمها للمرة الأولى، وأنا الذي راقني فعلاً أن أجيب عنها بكل سعادة، وأعلمها، حرفياً، معنى أن تتكلم الأجساد، وترقص بعضها مع بعض على إيقاع الهرمونات،

والرعشات، والدقات العصبية المجنونة.

ولكن تلك الدروس لم تكن هادئة دائماً، بعد أن أصبحت هي غير قادرة على ترتيب جسدها وروحها بشكل مثالي بعد الطوفان الذي أحدثته تجربة الجنس في حياتها، ولهذا انتبهتُ أنا إلى أن جورية كانت بعد كل لقاء جنسي بيننا، تدس تحت وسادتي لغماً موقّتاً من الذنب، تظن أنها قد تحتاج إلى تفجيره يوماً ما، لتقذفني باتجاهها.

انتبهتُ مبكراً أيضاً إلى أنها كانت أكثر اعتداداً بالنفس مما يمكنني من مواكبته. استفزتني طريقتها في الاستحواذ التدريجي عليّ، وشعرتُ بأني قد أتحول سريعاً إلى شهادة صغيرة معلقة في جوار شهاداتها الأخرى إذا نجحت في حيازتي زوجاً، أو عشيقاً تاريخياً مجنوناً، أو حتى مستمعاً مجانياً إلى نوباتها الغنائية. تهربتُ من الارتباط المطول بها ملقياً بكل التبعات على أسباب قبلية واجتماعية، رغم أن عائلتي هي أبعد ما يكون عن الهاجس القبلي، ولهذا تسمني هي بالجبن، وهو صفة أستطيع تحملها حتماً أكثر من قدرتي على تحمل طموحها الأرعن بقية العمر.

الغريب أني أكتبُ هذه الاعترافات المسيئة إلى قلبي وأنا في حالة كتابة ذائبة، في موقد من شتاء ما، بعد أن أكملت غالية ما بدأته جورية، وتحوّل قلبي إلى مكان منكوب، يصلح أن تجرى عليه التجارب الخطيرة التي لا يمكن توقع عواقبها. والغريب أيضاً أني أكتب اعترافاتي من دون أن يضطرني شيء إلى ذلك، وكما حدثت تماماً، خالية من كل ما يضفيه المعترفون على اعترافاتهم من ضمانات مسبقة لتعاطف منتظر. أعتقد شخصياً أن مفهومي للتعاطف يختلف تماماً عما يعرفه المجتمع، وربما

هذا الاختلاف هو الذي انتهى بي في عيادة وزّان، بحثاً عن تعاطف معدَّل، يناسب اعترافي الفج، وذنوبي الغريبة.

لم تكن هناك امرأة أنسب من غالية بالذات لتأتي بعد جورية حتى يكتمل هذا الثقب الكبير في قلبي، ولم تكن هناك فتاة أنسب من جورية، كي تمهد الطريق لغالية، لتتمكن من إكمال هذا الثقب، بهذا الاتساع. كلتاهما جاءت في الوقت المناسب، لتؤدي الدور المناسب، وفي تعاقب مناسب، بشكل غيبي نسقته لهما الأقدار، وأوقعتني بينهما مثل قطعة حديد أنهكها حدادان، قرعاً وطرقاً.

ومن دون أن تعرف إحداهما الأخرى، تآمرتا على صفعي جيداً، حتى أنتبه إلى أن جسدي قد يتسبب في إيذائي أحياناً، أو ربما دائماً بعد ذلك، وأن الجنس العشوائي يشبه التدخين، تأتي أضراره لاحقاً، وأن طريق الرغبات لا ينتهي، وأن أجساد النساء مسمومة، لاسيما الراحلات منهن.

أحياناً أعبر باب جورية في الليالي الشتوية التي تضعفُ فيها مناعتي، وليس من موقد، فأقرر أن أخرج في منتصف الليل، أجوس بسيارتي الشوارع التي حوّلها المطر المتقطع إلى بركٍ عشوائية، وأقرر أن أمر ببيوت كل الفتيات التي عرفتُ، ورحلن، حسب ترتيبهن التاريخي في قلبي، وليس حسب تقارب بيوتهن أو تباعدها، ولا أدري لماذا كان باب الجورية دائماً أكثر الأبواب انغلاقاً، ولا يبدو أن ثمة حياة وراءه على الإطلاق؟ بابه الحديدي الأنيق يرسم كل الأشكال الممكنة ليجعلني أتهيب فكرة النظر إليه، فضلاً عن فكرة الدخول مثلاً. كل شيء في تصميم بيتها، تلك الفيلاّ الغربية المكعبة،

يمعن في تنبيهي إلى أمرين: الأول، أن الجورية كانت مستحيلة جداً آنذاك، و لم يكن بإمكاني الدخول إليها بقلب مطمئن. والثاني، أن الجورية صارت أكثر استحالة الآن، مئات المرات.

أما بيتُ غالية المتواضع الذي كانت تسكنه مع أمها فلم أكن أعبره كثيراً، لأني أعرف أن النافذة المطفأة لا تضم وراءها غالية حتماً، فهي تعيش في جدّة مع زوجها المريب، وعلى العكس تماماً من جورية، كان باب بيتها الذي خدشه الزمن، وأمسى يحتفظ بطلائه بصعوبة، يبدو متعاطفاً معي، وعندما تمر سيارتي أمامه، كان يمنحني ملامح انكسار حكيم.

جزتُ هذا الباب يوماً، وأنا زوجها، فكيف لا يعرفني؟

كم يفتح الشتاء من النوافذ الخلفية. هذا الذي كان يكيل لي كل تلك القسوة، وألم الخجل الكبير في طفولتي وشبابي، من بكاء الصباح، حتى قيود الملابس، إلى سخرية المدرسة، واستجداء الأبواب، وكتابة الاعترافات، واستنطاق الأرقام المطفأة. لطالما تمثّل لي مارداً ضخماً، قاسياً، عندما يجيء يجيء معه الهم، والكآبة، والبوح غير الضروري، والأحزان المتتالية.

كبرت الآن، صرت شاباً في التاسعة والعشرين، وأصبح الشتاء ضعيفاً، هزيلاً، في عامه المليون ربما. هزمتُهُ بأعوام قليلة فقط، منذ طفولتي حتى الآن، هزمتُ فصلاً كاملاً، و لم يبق منه إلا أنفاسٌ هزيلة يوزعها على ثلاثة أشهر ناقصة الأطراف. صار الشتاء يجيء لتسجيل حضور فقط.

III

قبل أن أخرج من المزرعة بساعة تقريباً، توقفتُ عن التدخين حتى لا تعلق الرائحة بثيابي، وأحصيتُ في المنفضة ثلاثة أعقاب لا أكثر، من أول هذا الليل الجزيل، ورحت أنظف فلتر التدخين البلاستيكي الصغير قبل أن أعيده إلى جيبي، وأنفض ثوبي من جعدات الجلوس، وعندما أوشكتُ أن أخرج فعلاً، أحضر لي صوام، كالمعتاد، تلك المدخنة الخشبية الصغيرة، وقطعة ضئيلة من العود، أحرقتُها فيه على مهل، ورحتُ آوي في غترتي وثيابي ذلك البخور الهارب، لعله يخفي ما قد يعلق بي من آثار التدخين عن أنف أبي، ثم ألقيتُ تحية الوداع على الشقيقين، واتجهتُ إلى سيارتي.

لم يكن ضمن قائمة ممكناتي أن أجعل أبي يشك أني أدخن. رغم أن تدخيني قليل ومزاجيّ، فإنني أعرف كم تؤلمه فكرة أن يعتني بي طوال عمري مثل عود أخضر، ثم يلفيني أحرقُ نفسي بكل برودة، وكأن تلك الأبوة الهائلة التي أنفقها عليّ انتهت إلى ابن غير مبال. كل شيء عنده قابلٌ للتفاوض إلا التدخين، ولا أفهم كيف تركّب البناء الأخلاقي طوال حياته ليضعه هذا العبث الصحي العابر، في

رأس الذنوب التي لا تغفر.

عندما كنتُ مراهقاً، أرسلني أبي إلى معسكر صيفي للشباب في إيرلندا. كنت على أعتاب السادسة عشرة تقريباً، وكانت هي المرة الأولى التي أسافر فيها وحدي. وفي غمرة ما يحدث في تلك المعسكرات من أنشطة كثيرة، أفرزتُ الكثير من الأدرينالين، وقررت أن أمارس مغامرة خطيرة، كالتدخين مثلاً، في وسط المعسكر.

وفي صخب احتفال مسائي صغير، ووسط ثلة لا أحصيها من فتية وفتيات من أنحاء العالم كافة، أشعلتُ سيجارتي، واتكأت على سور صغير مثل رعاة البقر، ورحتُ أنفثُ الدخان بينهم بكل ثقة، وأنا أظن أن كل شيء سيمضي كشغب عابر، ولم أعرف أن المشرفة على المعسكر قد نقلت سلوكي هذا هاتفياً إلى والدي في الرياض، في الليلة نفسها.

- حسان يدخّن.

بعد أيام قليلة، كنتُ أقضي استراحة الظهيرة في غرفتي التي يشاركني فيها شابٌ بوليفي في مثل عمري وهو يغط في نوم عميق بينما أنا أتصفح مجلة. فجأة، انتبهت إلى الباب ينفرج بهدوء، وأنفاس شخص ثالث تشاركنا في الغرفة. التفتُ وجلاً لأجد أبي واقفاً أمامي، يرتدي بذلة رمادية كلاسيكية، وربطة عنق أرجوانية، وحذاء لامعاً، وشعره مصفف بعناية فائقة جعلته أشبه ما يكون بالأب الروحي للمافيا.

ولم يكد يرتد إليّ بصري حتى شعرتُ بأن شيئاً بلاستيكياً متوسط الثقل يرتطم بوجهي بقوة جعلتني أتراجع وأسقط على السرير، وأفقد

الرؤية لثوان، وعندما استعدتُها ببطء، كان أبي ما زال واقفاً حيث هو، والمنطقة ما بين وجنتي وشفتي العليا تنبض بذلك الألم المفاجئ، وقد بدت لي شفتي أكثر تورماً من المعتاد. ألقيت نظرة سريعة على أرضية الغرفة لأعرف ما الذي ارتطم بوجهي، فوجدت علبة دخان صغيرة، جديدة، ومغلفة، تدحرجت قليلاً، وسقطت قريباً من خزانة الملابس، وسقط معها كل ما في جسدي من الطمأنينة والقرار!

استيقظ الفتى البوليفي من النوم على صوت ارتطام علبة الدخان بوجهي، وأقنعته عينا أبي الصارمتان بأن يخرج من سريره، ويتسلل من وراء ظهر أبي محاذراً أن يلمسه، إلى خارج الغرفة، ويتركني وحدي في مواجهة هذا المارد الذي خرج فجأة من الرماد.

وقفتُ أمامه من دون أن أنطق بكلمة واحدة، وضممتُ رجلي معاً، ورحتُ أنتظر. كان وجهه جامداً على حالة غضب لم أره في مثلها من قبل، وكأنه تمثالٌ سومريّ مرعب، برز فجأةً في وجه عالم آثار. لم أكن أدري ماذا يجدر بي أن أفعل، وماذا يمكن أن أقول. أبي الذي لم أره منذ شهر تقريباً يقف أمامي الآن، في دبلن، ويضربني لأول مرة في حياتي، ثم يقف صامتاً وكأنه ينتظر مني ردة فعل لا يمكن من هو في موقفي أن يأتي بها إطلاقاً.

بقيت صامتاً، أنتظر أن يكمل أبي ضربه، أو عتابه، أو أياً من نيّاته المبيتة للتعامل معي، ولكنه ظل صامتاً أيضاً لدقيقة كاملة، لا يمكن أن تكون لدقيقة أخرى في حياتي مثل جبروتها الذي كان يقطر في قلبي مثل صنبور مهمل في زنزانة سجين. مارس معي ذلك الصمت الهائل فقط، ولا شيء آخر، وبقيتُ أنا مطرقاً مثل علاقة ملابس مهمَلة،

أرتجف من الخوف، وأشعر بدوخة طفيفة من فرط الفَرَق.

عندما طال إطراقي، شعرتُ بأن صمته هذا كان مدبراً بخبرة عسكري سابق، يجعلني مطرقاً تحته مدة دقيقة كاملة، ليتسرب في داخلي شعور الذل من هذه الوقفة المهينة، حتى وجدتني أتساءل في جوف عقلي الخاوي المضطرب: "يا لي من غبي، ماذا فعلتُ بنفسي!" كان صمتُ أبي وحده كفيلاً بقدح الندم في داخلي، فماذا لو تكلم؟

راحت دموعي تنزل بغزارة من دون أن أرفع رأسي، أو أتحرك من مكاني. شعرتُ بأني وضيعٌ جداً، وفمي أقذر من أن أخاطب به أبي. لوهلة، بدت لي علبة الدخان التي طوح بها أبي في وجهي، والملقاة في جوار خزانة الملابس، علبة ملعونة، خدعتني، ولم تف بوعدها لي بأن تحيلني إلى فتى رائق، وكبير. ها أنا الآن رازحٌ تحت الخزي الثقيل، أرتعد أمام أبي مثل قطعة قماش مهترئة لا ترحمها الريح.

بعد أن مضت تلك الدقيقة الحارقة. سمعتُ أبي ينطق ببطء قاتل:

– خذ البكت ودخن الآن قدامي!

– لا.

وتضاعفت غزارة الدموع السائلة من عيني.

– ليه ما تدخن مو كويس التدخين؟

– لا.

– ما تبغى تنبسط وتكيف راسك؟

– لا.

راحت دموعي تتضاعف مع كل سؤال بطيء آخر ينزل على سمعي مثل الإبر الحادة. لم أعرف إلى ماذا يرمي أبي، وما هذه

الزاوية الملعونة التي يحاصرني فيها الآن، ويقيدني فيها بخيوط خفية مثل خيوط العنكبوت، ليجلدني صوته الهادئ، وأسئلته البطيئة، على مهل. لماذا لا يتصرف مثل بقية الآباء عندما يعاقبون أبناءهم؟ صفعات، ركلات، أي شيء حركيّ يجعلني أهرب من هذه الغرفة، وأفكر في كل شيء بعد ذلك، بعيداً عنه.

– جبت لك نفس نوع الدخان اللي يعجبك، كينت أزرق، مو؟

كانت هذه السخرية المدمرة التي لم أسمعها من أبي من قبل أقسى مما يتحملها وضعي المتهالك أصلاً، فانفجرت أخيراً في بكاء كبير جداً، وجلست على الأرض فيما يشبه السجود الناقص، ورحت أنتظر منه أن يركلني مثل كرة مثقوبة، ويتركني وحدي. ازداد بكائي حتى تحول إلى شهيق متصل، وفي واحدة من تلك الشهقات الكثيرة، سمعتُ عقبي أبي يستديران، وصوت انسحاق ذرات الغبار بين كعب حذائه الكلاسيكي وأرضية الغرفة الخشبية، ولمحته يبتعد بخطوات هادئة، ويترك الغرفة.

ظلت تلك الحادثة واقفة في منتصف عقلي مثل خيال مآتة، تطرد كل احتمالات التدخين المقتربة، وتجعل منها آخر الأفكار الممكن تطبيقها على الإطلاق. لم ألتق أبي في إيرلندا بعد أن ترك الغرفة، و لم أره إلا بعد انتهاء الصيف، في الرياض، عندما دلفتُ من باب البيت وأنا أتوجس من شكل استقباله، وقطيعته المحتملة، ولكني وجدته يضمّني كعادته بعد السفر، وكأن شيئاً لم يحدث إطلاقاً، و لم يكن تغاضيه المفتعل هذا إلا ليزيد من سماكة الحاجز، ويمحق الفكرة تماماً.

غير أني عدتُ إلى التدخين في تلك المزرعة الوزانية بعد عشر

سنوات. شيء في هدوئها المشتبه فيه يجعل كل الأفعال مقبولة، كأنها قطعة خارج الحياة، يجوز فيها ما لا يجوز خارجها، ولأن وزان خان أمانته الطبية مرة، وأخبرني أن الكثير من الرياضة، والقليل من التدخين، يمحوان بعضهما بعضاً، وكان الحب، والخيبة، وبقية المحرضات الروحية الصغيرة تجعلني أشعرُ بأني أستحقُّ، بعد جولة سيئة في الحياة، أن أخرب جسدي قليلاً.

كانت التمارين الرياضية اليومية جزءاً من العادات التي لا تتوقف في حياتي. ومنذ بلغت العشرين، حتى الآن، وأنا أنقش هذا الجسد نقشاً مثل بيجماليون، وأحاول أن أجعله أنيقاً، وشهياً، لأغراض عدة، لا علاقة لها بالحكمة، وليس أكثر من نزوة شاب مغرور بدأت فجأة، وتحولت إلى عادة يومية. فإذا لم أكن قوياً، فلعلي أبدو كذلك على الأقل، وإذا لم تنفعني هذه القوة العضلية في واقع الحياة وظروفها، فلعلها تكون سبباً إضافياً يجعلني أقرب إلى عيون العابرات.

أخبرتني الجورية يوماً ما، وهي تلعق صدري مثل قط ضرير، أنها تتمنى لو كانت عضلاتي أقل بروزاً، حتى أبدو عادياً، وممكناً، وليس مثل أبطال أفلام العنف المستحيلين. كانت تحاول أن تجعل حبنا أكثر واقعية وهي تعترف ضمنياً بأني كنتُ أبدو مثل حلم هوائي يعبر حياتها، ولا يمكنها أن تحبسه في قنينة ما مثل قطرات الحقيقة. كانت تريد أن تكثفني حتى أصبح أكثر قابلية للتناول. وقتذاك أخذت شهادتها تلك على محمل الجد، على اعتبار أن الذوق الأنثوي متشابه في مجمله في محيط الرياض على الأقل، وخفضت معدل تمريني اليومي أكثر من النصف، وتوقفت عن تناول البروتين تماماً. وعندما كانت

جورية تزمّ شفتيها الغاضبتين وترحل إلى الأبد، كان جسدي قد فقد الكثير من اتساقه العضلي فعلاً، لتكتمل عندي بذلك صورة العلاقة الخاسرة مسبقاً، والحب المصاب بلعنة الغبن.

لو كانت جورية عبرت وسط علاقة فقط، لكان ذلك أكثر من رائع، ولكنها كانت أكثر حنكة، وأطول أظفاراً. قبل أيام قليلة، رأيت صورة أخيها في الجريدة، في حفل زفافه، كما تنشر الجرائد المحلية أحياناً صوراً كتلك. "أخي هذا يشبهك في كثير من الصفات، ستنسجمان جداًا!"، كانت تقول هذا، وغيره من المشاهد المتوقعة التي كانت تختلقها أثناء كلامنا دائماً، لتجعل فكرة زواجنا أكثر ثباتاً في ذهني، وتحاصرني بالكثير من الأسوار الجميلة، حتى يصبح التراجع عما لم نتفق عليه بعد، خيانة تخوّلها أن تلعنني، بلا تردد.

خرّبت قلبي وجسمي ومضت. واحتجتُ بعدها إلى امرأة أخرى، وثلاث سنوات، لأقنع نفسي بأن لا آسف عليها أبداً ستظل امرأة على تنافر مع طباعي بشدة. وبيننا ما بين الرجل والمرأة من برج العذراء، ذلك التشابه الظاهري في الصفات والعادات والذي يطلي العلاقة بخديعة المرآة، والنصف الآخر، وشريك القلب، وبقية الكذبات التي يصنعها هذا البرج المشتبه فيه، وبعد ذلك يتكشف لهما أثناء العلاقة ذلك التنافس الخفي، والسباق على السيطرة، ونزعة الاستيلاء على زمام الحب.

لا أسف على الجورية لأنه لا يمكن أن توجد ظروفٌ تجعلني أعيش منسجماً معها، وما يعزيني في جراحها السامة أنني أشعر دائماً بأني كنتُ حكيماً عندما تركتها تركلني بشدة طوال أيامنا الأخيرة، حتى

غابت تماماً. كان لا بد لأحدنا أن يلعب دور الكبير هنا، بعد أن فشلنا في أن نكون كبيرين معاً، أو حتى صغيرين معاً!

****

وصلت إلى البيت وأبي لا يزال مستيقظاً. فتحت الباب بهدوء، فألفيته جالساً على كرسيه الأثير في الصالة، يتابع برنامجاً وثائقياً، ويأكل حبات برتقال، وإلى جانبه تقبع نظارته المطوية على الطاولة الصغيرة فوق رزمة صغيرة من الورق، بينما ينسدل جورباه من مسند المقعد بشكل أنيق، وكأنهما لم يُلبسا بعد.

كانت الإضاءة خافتة كما لا يمكنها أصلاً أن تكون أكثر من ذلك في بيتنا. ابتسم لي عندما دخلت في مجال رؤيته، ثم عادت عيناه لتتعلقا بشاشة التلفزيون بشكل آلي.

شعرتُ بأني أرغب في البقاء معه قليلاً، ولا شيء في غرفتي ينتظرني على أية حال، فانحنيت لأقبّل جبينه، ثم جلست على الأريكة المواجهة لكرسيه. سألني:

– ايش عندك الليلة؟

– ما عندي الا الخير يا والدي.

تابعت إصبعه المعروقة وهي تشير إلى الشاشة، ويقول بنبرة تستحث اهتمامي:

– انظر، الحرب العالمية، في أيامها الأخيرة.

جلستُ أراقب معه بعض صور بالأبيض والأسود لدبابات

وجنود قدماء، وحاولتُ أن أحشر بعض التعليقات عقب الأحداث التي تظهر على الشاشة، من دون أن أظفر بالكثير من اهتمامه. كان يحك أذنه من حين لآخر منذ أن آذاه التهاب أذنه الوسطى الأخير، وأفقده التوازن، ثم هوى به يوماً ما عشر درجات كاملة بطول الدرج، ليسقط على الأرض مباشرة.

من حسن حظه وحظنا أنه لم يصب بأذى كبير، باستثناء بعض الخدوش في جبينه وساعده، كما ارتضّ ظهره قليلاً، وبدا أن بنيانه العسكري القديم لعب دوراً جيداً في حمايته. وفي الليلة نفسها، تصدّق بعشرة آلاف ريال، كعادته عندما يريد أن يبعث بامتنانه إلى الله، بينما أنفقت أمي المبلغ نفسه تقريباً في تركيب دعائم إضافية بطول الدرج، وقطع من السجّاد السميك على كل الدرجات الرخامية تلك.

انقضت نصف ساعة وأنا أتابع مع أبي أحداث الحرب العالمية، وأكوام القتلى في الخنادق المهجورة، وقد منحها اللونان الأبيض والأسود حاجزاً زمنياً يجعل حدوثها مرة أخرى بصورتها المهولة تلك أبعد احتمالاً. تذكرتُ الحرب الوحيدة التي كان يمكن أن أجربها لولا أن أبي لم يشأ ذلك، فمنذ أن دقت حرب الخليج أجراسها الأولى، كنا جميعاً قد بلغنا الدار البيضاء فعلاً، لنقضي في المغرب ثمانية أشهر كاملة، هي مدة الحرب، وهذا كان قرار أبي، رغم السنة الدراسية التي أضعتها، ورغم الحماس الصبياني الذي أُخذْتُ به موقّتاً مع موسيقى الحرب، فقد ظلّ أبي مصراً على موقفه أنَ سلامة أسرته الصغيرة أهم من كل أوطان الدنيا.

علّمني أبي من تعليقاته التي ألتقطها منه منذ طفولتي على نشرات الأخبار، أو الصحف الصباحية، أو النقاشات العابرة مع ضيوفه الأسبوعيين، أنه لا توجد حربٌ شريفة، وأخرى وضيعة. كل الحروب أراها الآن على طريقته، كما يقول أبي: "طريقة البشر في إعلان فشلهم"، وأتساءل، كم مرة منذ بدأ التاريخ أعلن البشر فشلهم إذن؟

وما زال أبي عند رأيه مثلما أنا كذلك، عند رأيه. تلك الهزات الطفيفة من رأسه وهو يتابع الفيلم الوثائقي الآن، علامة الأسف والامتعاض، كانت تشي بذلك. ولم يعلق أبي على مشهد واحد، ولم أفعل أنا أيضاً. حام بيننا الصمتُ طويلاً إلا من أصوات المدافع، وصوت المعلق على أحداث الحرب القديمة. رحتُ أسرب بصري قليلاً من الشاشة، وأتأمله وهو غارقٌ في متابعة أحداث الحرب باهتمام شديد، وكأنه يسمع عنها للمرة الأولى في حياته.

كم أؤمن بشيباته التي تصبغ ذقنه القصيرة المحفوفة بعناية، وبالتجاعيد التي تكونت إثر ملايين المرات التي رسم فيها ملامحه الجادة تلك، علامة التركيز، أو حتى علامة الرحمة المباشرة عندما يخضعها لطابع عملي يشبه سائر حياته. أؤمنُ أيضاً ببشرته البيضاء التي ترك عليها الزمن بعض آثاره اللطيفة، والندبة البادية في طرف حاجبه الأيسر، عميقة، وغائرة، أثراً لجرح لم ينغلق جيداً في شبابه، فبرأ كما يريد، ونظاراته النحيلة التي يختارها دائماً فضية الإطار، وتتعاقب على وجهه من خلال السنوات عندما يستبدل واحدةً بأخرى، فلا تفلح أي واحدة منها في تغيير منظره، سواء تلك المخصصة للقراءة، أو النظر البعيد، أو التي يرتديها في كل الأحوال. في النهاية، كانت

كلها تفقد صفتها المعدنية، وتذوب في ملامح رجلٍ طيب.

ولأني نشأتُ وأنا لا أرى رجلاً غيره، وهو لا يعرف ابناً غيري، كان لهذه العلاقة طعم الإيمان حقاً. فهو الرجل الذي يكفيني الكثير من التنقيب في جهد الدنيا، ويمنحني دائماً ما أحتاجه في كل الظروف، وفي شكل عصري قد لا يتناسب تماماً مع سنواته السبعين التي مرت ببطء. وحالما كبرتُ بما يكفي لأنتبه لهذه العلاقة المتوحدة، صرتُ أفكر أن الأمر أشبه ما يكون بحاجة اجتماعية متبادلة، إذ عليّ أن أكون ابناً مثالياً جداً حتى لا يحزن أبي الذي لا يملك إخوة ولا أعماماً، وعليه هو في المقابل أن يكون أباً كافياً، حتى لا ألومه يوماً ما إن لم يجعل لي عائلة أكبر، وإخوة وأخوات. ولهذا أنا أطيب الأبناء عندما يتعلق الأمر بأبي، لا أملك في حضوره إلا تلبّس حالة شعورية تشبه الخنوع، لا أدري ما الذي يسحبها على سلوكي معه. هل هو وجهه المتسامح أم صوته المرتب جداً كأنه نشيد أم دقته في اختيار الكلمات، وتجنبه توضيح موقفه من الأحداث والأشخاص مثل فيلسوف يطوي زمنه بيديه، ولا تفر منه عِبرةٌ واحدة؟

أحببته بشكل غريب، وكأنها حالة أوديب أبوية. كان يقف في منتصف حياتي مثل نقطة غامضة من الطاقة، لا يمكنني مسّها بشكل مباشر، ولا يمكنني أيضاً أن أخرج بسهولة من نطاقها المغناطيسي الهادئ الذي يبث موجات السكينة إلى الأبد. علّمني أبجديته، ولم يفرض عليّ حرفاً واحداً، ولكنني لم أجد في نفسي أي ميلٍ لاختيارات أخرى، كانت قناعتي أنه قضى وقتاً كافياً في الحياة ليختار الأفضل، ومن الغباء أن أعيد المحاولة بنفسي. لا يمكن أن أضيع عمراً

آخر، مادمتُ أتكئ يومياً على مدرسة صغيرة تناسبني تماماً، ولا أريد أن أصبح أفضل، ولا أنبغ. حتى طريقتي في اللبس والتأنق كانت تستنسخه تماماً، وتشتري لنا أمي قارورتين من العطر نفسه، ونوعاً من الغتر الحمراء القانية نفسها، حتى نبدو ونحن نمشي معاً في الطريق إلى المسجد، مثل أخوين انشقت بينهما هوة عمرية غير مبررة.

بدأت معي نزعة تقليده منذ طفولتي، و لم تتوقف قط. كلما مرت بنوّتي له بمشاهد أكثر، ازداد ميلي إلى نحتها أكثر في شخصيتي، لأنها تشعرني بالأمان. وكلما حبكتُ أسلوبه في التعامل مع موقف ما بالطريقة نفسها التي كان هو يتعامل بها، شعرتُ بكبرياء التلميذ النجيب، فمسار أبي في حياته الطويلة كان يبدو لي أكثر المسارات أماناً ونقاءً، ولم يكن عندي فضول البحث عن مسار آخر، لقد تشرّبت من شخصيته نزعة الاستقرار والهدوء ومحاذاة الطرق، وكأننا بحيرتان منسيتان في بقعة جغرافية ما. كانت مناكفة الحياة، وتحدّي أقدارها أقصر نزواتي عمراً، تولد وتموت في الليلة نفسها، وعلى الوسادة نفسها.

وفي مكتبه حديثٌ شريف منقوش على قطعة خشبية بيد خطاط دمشقي "من أصبح آمناً في سربه، معافى في بدنه، مالكاً قوت يومه، فقد حيزت له الدنيا"، يحب أبي هذا الحديث كثيراً، ويستمد منه حاجته اليومية من الرضا منذ سنوات لا أعرف عددها تماماً، وأنا أخبرته يوماً في مكتبه أن هذا الحديث عميق جداً، وبسيط في الوقت نفسه، وأجاب: "عميق، وبسيط، هكذا يتكلم الأنبياء يا ولدي". وهكذا يتكلم هو أيضاً.

كنتُ أقلب بصري بين التلفزيون وبينه، وأحاول أن أبتلع فشلاً آخر في أن أكون ابناً مسلياً. أبي الذي بدأ عامُه السبعون بالفعل قبل أشهر، يفصلني عنه حاجز زمني هائل بحجم أربعين سنة تقريباً، ورغم محاولتي أن أتقاطع معه في الرؤى والعادات، إلا أن فارق السنوات يجعل من الصعب أحياناً أن نقع على لغة مشتركة في لقاءاتنا اليومية، وهو لا يبدي لي ذلك على أية حال، ولكن ردود أفعاله الباردة تجاه كل ما يجدّ عليه من الأمور، كانت تجعلني أشعر بأنه بلغ عمراً صار يتوقع خلاله كل شيء، وأصبح يراقب الحياة وكأنها مجموعة من الأحداث المسلية فقط، لا تعني له شيئاً. وفي أحيان أخرى كثيرة كنتُ أشعر أنني أنا وأمي، لسنا إلا طفليه، وهو منشغلٌ بتربيتنا معاً، وتأمل حالاتنا اليومية بابتسامات عميقة، وفهم مسبق.

كان قد تقاعد من عمله قبل ولادتي، وبدأ وظيفته كأب بعد أن انتهى تماماً من سيرة وظيفية كاملة كضابط في سلك الأمن، وولدتُ أنا في النصف الثاني من حياته، وقد بدأ مشواراً جديداً، واتجه إلى وجهة أخرى من الحياة، ولذلك فكرتُ طويلاً من قبل كيف أن حياتي بأكملها، حدثت في حقبة ما بعد تقاعده، ألا يمكن أن يبدو له الأمر مملاً بعض الشيء؟

أحياناً يمعن بي الشعور بالذنب، وعدم الأهمية، إلى أن أتخيل أن وجودي في حياته كان خذلاناً مستمراً بطول سنوات عمري، ولربما كان يتمنى لو عاش بعد تقاعده حياة زوجية جديدة، مختلفة، في بلد آخر، وظروف مختلفة. ولكن ظروف تربيتي التي تحتم استقراراً وعناية مستمرين جعلته يعزف عن الأحلام القديمة تلك، ويمارس

أبوته الحتمية. وأحياناً أخرى، ينكسر هذا الشعور السلبي الموهوم، وأعود أشعر بأننا نتعايش معاً، كأب وابن، بشكل حيوي وجيد، وأتفاءل.

ولكني متأكدٌ أن ولادتي أحدثت نكداً ما في منطقة معينة من طموحه، أو ربما جئت أقل قليلاً من أحلامه. هذا الرجل الذي عاش معظم حياته ضابطاً كبيراً، ثم عندما أولد أنا، تحدث لعنة غامضة، ويجد نفسه وراء القضبان، بعد كل ذلك العمر الطويل الذي قضاه أمامها.

استأذنته في الصعود إلى غرفتي، فأومأ لي، ومنحني ابتسامة دافئة، كتلك التي تتقنها شفاه الآباء، فحملتُ حقيبة كمبيوتري، وصعدتُ إلى غرفتي وأنا أفكر: ما الذي يمكن أن يجعل أبي راضياً عن ابنه الوحيد؟ لا أذكر أني أتيتُ يوماً ما بإحدى تلك البشائر الاستثنائية التي تنبسط لها أسارير الآباء مطلقاً، حتى ذلك الحدث الوحيد المحتمل الذي يمكنني القيام به من دون حاجة إلى عبقرية إضافية، الزواج، لم يكتمل، رغم أني أشعلتُ كل شموعه الممكنة في البيت، ولكن الزوجة المرتقبة لم تبق فيه، وظلت خيبة أبي معلقة في قلبه الصبور، مثل شرنقة جافة.

حتى الكتاب الذي نُشر، مرت أيامٌ ولم أسمع من أبي تعليقاً واحداً عليه، على قدر معقول من الجدية، بخلاف تعليقاته المازحة التي يلقيها عليّ من وقت لآخر، ولقب الكاتب الذي صار يخاطبني به في أوقات تبسطه، وأثناء الوجبات. لم أكن أتوقع من أبي انفعالاً أكبر بمادة الكتاب الموشّحة بالحب المتخبّط، كما لم أتوقع أي انفعال

من أي قارئ آخر ما دمتُ قد كتبته خارج نية النشر، لولا صفاقة غالية، وتصرفاتها الفردية التي ظنّت أنها ستنزل مني منزلاً حسناً، و لم تدر أنها نكشت عشّ الأحزان، وأعادت الحمى إلى جبيني البارد منذ سنتين.

ولكن، مع أبي بالذات، يبدو لي أحياناً أن سقف توقعاته مني منخفض جداً، إلى حد مريح، فأنا لا ألوي على شيء، ولا أنوي تغيير خارطة الدنيا، وليس في وجهي أي ملامح تشبه المستقبل أو تومئ إليه. يبدو لي أحياناً أني موجودٌ لأكمل شيخوخة أبي، وليس لأبدأ من جديد، وهذا يناسبني تماماً.

****

ثمة أسباب جعلت أبي وحيداً إلى هذا الحد، فقد مات جدي قبل أن يولد هو، وانتقلت جدتي بعد موته من ينبع، حيث كانت تقيم، إلى بيت أخيها في جدّة وهي حامل بالطفل والأحزان، لتلد أبي هناك، بعيداً عن أعمامه الذين لم يعرفوا شيئاً عن حملها هذا أصلاً، و لم يسألوا عنها وقد غابت، ما دامت غريبة، وقد انقطع بينهم ما انقطع. هكذا ولد أبي وتربى في بيت خاله، من دون أن يعرف أعمامه أن لأخيهم طفلاً يعيش في جدة، أخفت جدتي عنهم أمره خشية أن يطالبوا بتربيته بين أهله، فتضطر إلى فراقه، وأن ينشئوه بينهم على غير ما تريد.

هكذا ظل أبي طفلاً سرّياً حتى بلغ اليفاع، لا يعرف له أباً إلا

الخال الحنون الذي ضمّه إلى عياله وبناته، وأشرف على تعليمه نهاراً، وتدريبه ليلاً على العمل عندما كان يصحبه للحراسة معه عند باب إحدى المصالح الحكومية.

ربما كانت هذه المهنة المبكرة قد صاغت الكثير من شخصية أبي، فأن يبدأ حياته بالحراسة، جعلته حارساً إلى الأبد، مسكوناً بهاجس الأمن كقيمة عليا قبل كل شيء آخر، وظل معتمداً على هذا الهاجس في كل قرارات حياته القليلة، كأن يتزوج امرأة بدون عائلة كبيرة ليخفض احتمالات الخلاف إلى حدودها الدنيا، وأن ينجب ابناً واحداً ليخفض احتمالات الخطر إلى حدودها الدنيا أيضاً، وأن يبقي نصف أمواله دائماً خارج الوطن، ليتجنب احتمال الانحباس في قفص رديء، في آخر العمر.

منذ أن بلغتُ العشرين، وأبي يبرّر لي من حين لآخر الكثير من تصرفاته التي لم أكن أفهمها، كان يمعنُ في الوقوف معي أمام أحداث عابرة، ليسجل على هامشها الكثير من التوجيهات، وبخلاف إيجارات عقاراته التي أصبح من مسؤوليتي تحصيلها كل ستة أشهر، وجدته يدفع باتجاهي بعض القرارات وكأنها أصبحت منوطة بي، وعندما أخبرته بأن أحد المستأجرين تأخر كثيراً في الدفع، أجابني بلا مبالاة، بتلك النبرة المتحشرجة التي تصدر عنه عندما يتكلم أثناء قيامه عن الكرسي، وقد امتص جهد الوقوف الكثير من جهد الصوت، "افعل ما تراه مناسباً في هذه العمارة، ما بنيتها إلا لك!"

قبل عامين بالتحديد، اتصل بي وأنا خارج المنزل، وأخبرني أنه يريد أن يجتمع بي بعد صلاة العشاء لأمر مهم، ولم يكن قد طلب

مني العودة إلى البيت بهذه الطريقة الغامضة البتة. وعندما رافقته إلى المسجد تلك الليلة لم يتكلم كثيراً، وأوجز فقط بأنه يريد أن يكلمني في بعض الأمور القديمة، ولا أدري لماذا خطرت لي فكرة كرتونية ساذجة أنه قرر أن يصارحني، مثل الروايات الكلاسيكية، بأنه ليس أبي!

عندما عدنا إلى البيت، طلب من الخادمة أن تحضّر لنا الشاي، وتحضره إلى غرفة المكتب التي تبعته إليها وأنا لا أزال أضرب الأخماس بالأسداس، حتى وجه أمي الذي استنطقته بنظرة أخيرة قبل أن نغيب معاً في المكتب لم يخبرني بشيء، وبدا لي أنها هي نفسها لا تعرف أن ثمة أمراً ما على وشك الظهور، وإلا لباحت لي ملامحها بالقلق على الأقل، أنا الذي أجيد قراءة وجه أمي جيداً، بمقدار ما أقف عاجزاً أمام وجه أبي دائماً.

بعد نصف ساعة قضيتها معه في المكتب، اتضح لي أنها صفتي المعتادة في الخوف من المفاجآت، وتضخيمها، هي التي جعلتني أسيء تقدير الموقف، وأعرق أكثر من اللازم. فما كدنا نلج المكتب، حتى فتح أبي خزانته الحديدية تلك، وأخرج منها حقيبة سامسونايت عريضة، وضعها على سطح المكتب، وطلب مني أن أسحب كرسياً وأجلس إلى جواره. "سلامتك يا ولدي، الدنيا حياة وموت. وأنا بصراحة أخاف يصير لي شيء وتحتاس من بعدي، قلت خليني أمر وياك على شوية أوراق يمكن تختصر عليك بعض التعب..."

– الله يعطيك طولة العمر.

قاطعته بهذه العبارة، وعيناي زائغتان تقريباً، وقد شعرت برهبة

تحتجز الكلمات في صدري، ولم يكمل أبي عبارته، بل راح يخرج من أحشاء الحقيبة أوراقاً كثيرة، يبدو أن أحدثها على الإطلاق قد حقنه الزمن بالغبار والصفرة. كانت هناك صكوكٌ قديمة، اهترأت تقريباً، ولم يبقها متماسكة إلا تلك الخطوط المتقاطعة من اللاصق البلاستيكي الذي يجمع أجزاء الصك نصف الممزق، وثمة فواتير، وإيصالات، وعقود مكتوبة بخط اليد، وأوراق رسمية صادرة عن جهات حكومية سعودية ولبنانية على السواء، وشهادات إيداع أسهم، والمئات من قسائم الإيداع الكربونية الصفراء الخاصة بالبنوك.

منحني أبي في تلك الجلسة تفاصيل حساباته الكاملة، وشرح لي قصة كل ورقة في تلك الحقيبة العريضة، وكل ما يتعلق بمعاملاته التجارية مع الناس، والبنوك، والمستأجرين، والحكومتين السعودية واللبنانية. كل تلك المعلومات المنبسطة على بضع عشرات من السنين لقّنني إياها أبي بالتفصيل حتى أكون منتبهاً لما قد يطرأ بعد موته "تذكر دائماً أنه ما عندي للناس أي دين أو حق، ولكن أعرف أن هناك من سيطالبك بديون وهمية بعد موتي، وسيستغل ضعف الناس النفسي تجاه تحليل ذمم أمواتهم، خليك صاحي وفتح عينك، كل معاملة أجريتها في حياتي تجدها في هذا الصندوق، وأما ديوني عند الناس فأنا مسامحهم عنها سلفاً، فلا تقبل منهم أي تعويض، واطلب منهم أن يدعوا لي وكفاية".

هذه الجلسة الجنائزية التي ما زلتُ أتذكر تفاصيلها جيداً عكرت مزاجي شهوراً طويلة، وظلت رهبتها معلقة في صدري مثل هواء محبوس، يرفض أن أزفره. كان مجرد احتمال غيابه فجأة يشبه أن

أستيقظ من النوم فلا أجد سقفاً لغرفتي، وأكتشف أني في العراء التام. حزنٌ محتمل، ولا يمكنني أبداً أن أتخيل شكله، ولا أن أستعد له مسبقاً، كما يفعل أبي الآن.

هكذا يهتم بترتيب شؤوننا حتى في حالة موته، غير أن كل شيء يبدو على ما يرام حتى إن المشكلة الوحيدة المتوقعة ستكون التعامل مع غيابه هو، وليس ما قد يحدث بعد هذا الغياب. ما زلتُ أعتقد أن والدي حرص على حمايتنا من كل الآلام المحتملة، إلى حد أن صارت فكرة غيابه فجأة هي الألم الأكبر الذي لن يحتمل، ولو استطاع حجبه عنا فعلاً لفعل ذلك من دون تردد، وأحياناً أشعر أن عنايته المفرطة بصحته ليست إلا لهذا السبب. هذا الرجل، الحارس الأبدي، منذ أن كان طفلاً يذاكر دروسه على سراج الشارع، أمام أبواب محافظة جدّة، وحتى الآن، ما زال يحرس.

حكى لي ذات يوم عن المرة الأخيرة التي عاد فيها إلى ينبع، عندما بلغ السادسة عشرة تقريباً، وأخذته حماسة الجذور، وحميّة الأهل، وسافر لعله يلتقي الأعمام الذين لا يعرفهم، وهو يتصور في ذهنه الغض حفاوةً هائلة يحيطه بها الجميع عندما يكتشفون ابنهم الغائب، ولكنه لم يجد منهم ما توقعه قلبه الوحيد بتاتاً، وعلى العكس، واجهته عيونٌ حذرة، متشككة، نفّرته منهم، فغادر على الفور. "ظننتُ أني لو بقيت أطول من هذا، لكانوا بلغوا حداً من التشكك يتهمون فيه أمي بالحرام، وبأنها أنجبتني من رجل آخر، وقد ظنوا أني لم أعد إلا لأطالب بإرث أبي. ولهذا وفّرتُ على نفسي هذا الألم، وعدتُ إلى جدة".

وعندما بلغ العشرين، التحق بالثانوية العسكرية، وانتقل إلى الرياض، ليقضي بقية حياته غريباً بعد أن قضى أولها يتيماً، وزاد من وحشته أن فارقت جدتي الحياة بعد سفره بعدة أشهر وهي في المعزل الصحي بسبب الجدري الذي نهش منها الجلد والعينين، ولينقطع أبي تماماً عن جذوره، ويجد نفسه وحيداً بلا قريب أو صديق، في الرياض الجافة الموحشة، وفي الخمسينات الميلادية، بلا أهل ولا عون، فلم تترك الحياة أمامه من خياراتها الضئيلة إلا هذا المستقبل العسكري الذي قد يمنحه الدعم والمال، فتشبث به بروحه التي دهمها الخوف، وبحرص الغرباء المعتاد، وتزوج زوجته الأولى التي طلقها لاحقاً، لأنها جُنّت، كما يقول، ولا يسرف في أي تفاصيل أخرى عنها، ثم كرّس حياته لعمله، وسافر إلى القاهرة عدة مرات للدراسة والتدريب، وتسارعت ترقياته، على مدى عشرين سنة، وأصبح في يوم من الأيام كما يقول، أصغر عقيد في مديرية الأمن العام في الرياض.

ظل أبي عازباً بعد انفصاله عن زوجته الأولى فترة طويلة. ولم تكن الرياض مدينة ترحم العازبين، قبل أن تختفي هذه الرحمة كلها. ولهذا لم يكن ثمة مناص من التشبث بالعمل حتى ساعته الأخيرة. كان أبي ينام في مركز الشرطة معظم أيام الأسبوع، ويخلص في أداء عمله بشكل نادر، مما جعله يصعد سريعاً، ويبرز اسمه في كل الأوساط الأمنية، وتُعرض عليه مناصب أخرى في المباحث العامة، والحرس الملكي، وغيرها، ليرفضها جميعاً لأسباب مختلفة، ويبقى ضابطاً في الأمن، يمارس عمله الأزلي الذي يتقنه أكثر من أي عمل آخر: الحراسة.

غير أن هذا الإفراط في التعلق بالعمل هو ما جعله يصدف عنه فجأة، ويقرر التقاعد في أقرب وقت ممكن. شيء من طاقته نفد، أو أنها الأربعون عندما دقّت بابه لأول مرة، ذكّرته بأنه قضى عمره في حراسة الناس، تاركاً عمره هو نهباً للزمن، يختلس سنواته بصمت. فطلب تقاعده المبكر في بداية السبعينات، والتقى أمي في صدفة غريبة أثناء ذلك، في المدينة التي لا تلعب الصدف أدواراً كثيرة مع رجالها ونسائها، ولكنها فعلت ذلك مع والديّ، وجاءت بالرجل الحجازي ليلتقي المرأة الجنوبية، في قلب الوسط الجاف.

كانت أمي مطلقة رجل قبله، عاشت معه عدة سنوات قبل أن تصبح عاجزة عن تحمل خشونته وصلفه، وانهماكه في تجارته، وانشغاله بما خارج البيت عن داخله، وأسباب أخرى كثيرة جعلتها تنفر منه عمداً. ورغم أنها أنجبت منه أخي الأكبر، أحمد، فقد نجحت في أن تجعله ينظر إليها كزوجة عاصية، إثمها أكبر من نفعها، فطلّقها فور ولادته.

ظروف زواج أمي السابق تشبه المسلسلات البدوية، كانت هي آخر من يعلم، والقرى التي تمعن في الجنوب تفعل هذا من حين لآخر، والنماص لا تختلف في ذلك كثيراً، وهي قرية أمي التي ولدت وتربّت فيها، والتقطت منها اللهجة الشهرية التي ما زال أبي يداعبها بها حتى الآن. لم تكن أمي قد تجاوزت الرابعة عشرة عندما تزوجت من زوجها السابق، وجاء بها إلى الرياض وهي طفلة لا تعرف لماذا تحول الحقل فجأة إلى صحراء، والجبل إلى سفح. كانت ابنة القرية، في الزمن الذي كانت القرى منزل الأغنياء، والمدن مقصد البدو من

العمال والفقراء والمنقطعين. كان المجد للقرية، للحقل، للأرض، وكانت أمي تعيشُ أرستقراطية الطبيعة، قبل أن تسقط مثلما تتشابه السقطات دائماً، بين يدي من لا يدرك مكانها، ولا يفهم رموز الأرض على جبينها وشفتيها.

وزوجها السابق، علاوة على كونه ذا نسب مقبول، كان قد قرر فعلاً السفر للعمل في الرياض، وكان التزود بزوجة ما جزءاً من أمتعة السفر، بعد أن يدبر له أحد أبناء جماعته عملاً في قصور الناصرية، وتلك ميزات فارهة لشاب قروي، تجعل رأي أمي، بسنواتها الأربع عشرة، غير مهم على الإطلاق. أنجح زيجات النماص تمت بالطريقة نفسها تقريباً، فلماذا تشذ أمي عن السرب؟

ربما لم تكن أمي مختلفة كثيراً، وأحياناً أفكر أنها ربما كانت آنذاك تستشعر حظها السعيد الذي جلب إلى بابها الزوج الذي تحسدها عليه نصف بنات النماص، وعلى مغامرة الرياض التي ستأخذها إليها هذه الشاحنة الحمراء العتيدة التي يلمس الصبية جسدها المعدني بارتياب وجذل منذ الصباح. وفي كل الأحوال، كنتُ أعرف أن أمي هي المصدر الوحيد الباقي لتلك الحكاية، ومن شأنها هي وحدها أن تصوغها، وتعيد ترتيب ماضيها كما يحب قلبها الودود. وبما أنها صارت متزوجة من رجل آخر الآن، فليس من الوارد أن نسمع منها ثناءً على السابق، أبداً.

لا يملك أي شخص يتعرف على أمي الآن إلا أن ينتبه إلى غرابة ما في طريقة كلامها، وأسلوبها المصطنع في استدعاء الثقافة. لأنها لم تكن تعرف القراءة والكتابة، ولا تفرق بين الألف والياء، ثم

عندما تعلمت ذلك، في مدرسة للكبار في بيروت، قفزت مباشرة من كتاب الهجاء إلى مؤلفات جبران، ومي زيادة، والمنفلوطي، وانكبت على تعلم ما فاتها من أعلى الهرم، وليس من أدناه كما يفترض بالأميين، وحديثي العهد بالقراءة، فنزلت هذه الثقافة الثقيلة على أساس ضعيف، لم يقو بعد بما يكفي لاستقبال فلاسفة العربية وأدبائها آنذاك. هذا ما يجعل أمي عندما تتكلم، تبدو وكأنها تتكلم على منبر، وعندما تكتب يومياتها كما دأبت على ذلك منذ سنوات طويلة، تبدو وكأنها تخاطب الجماهير مباشرة، وليس دفتر اليوميات.

كانت تحاول أن تجاري أبي في ثقافته بأسرع ما يمكن، وتلك طريقتها في التعبير عن امتنانها الهائل له، هو الذي انتشلها من حالة حياتية صعبة عندما كانت مطلقة، ونفساء، ولم تتجاوز التاسعة عشرة من عمرها بعد، ولا تعرف مكاناً في الرياض يؤويها، ولم يعد في النماص من يحفل بها إلا خؤولة قديمة، لا تأمن أن يدبروا لها زيجة أسوأ من سابقتها إذا ما عادت إليهم بهذه الحال، في قرية لا مكان فيها لامرأة وحيدة.

ولذلك هي دائماً مليئة بالمرارة عندما تتحدث عن زوجها السابق، ولربما ازدادت مرارتها مع الزمن من دون أن تشعر، فأصبحت تسكب على ذكرياتها قدحاً إضافياً من الملح في كل مرة تحكيها لي، أو لأبي، أو لأي من جاراتنا. وكلها تدور حول الرجل الفظيع، والذي لا أراه أنا شخصياً إلا رجلاً عادياً وفق معايير العادي من الرجال من جيله، لاسيما أولئك الذين كانوا من العصامية أن اجترحوا ثروات هائلة خلال سنوات، وهو في آخر المطاف، والد شقيقي، وأراه من حين

لآخر في المناسبات والأعياد. وأبتسم خفية وأنا أتخيل ما يدور في خلده عن أمي، زوجته القديمة، وما يدور في بال أمي عنه.

وفي الحالات القليلة التي يصفو فيها الوداد بيني وبين أخي أحمد، يخبرني وفمه مليء بالضحك كيف يتحدث أبوه من وقت لآخر عن أمنا المشتركة "كانت طيبة، لكن أفسدتها الشامية الله يعلن والديها!"، والشامية التي يقصدها هي مديحة، صديقة أمي السورية التي كانت تقطن مع أخيها وأمها في البيت المجاور، في شارع ضيق من حي دخنة الشعبي في الرياض. وهي بالفعل، من وجهة نظر اجتماعية محايدة تتفق مع معايير ذلك الوقت، قد أفسدت أمي.

و لم يكن ذلك من خلال الشرخ الذي تحدثه المقارنة بين الحالتين الاجتماعيتين المتفاوتتين اللتين كانتا تحدثان في بيتين متجاورين فقط، ولكن لأنها قدّمت لأمي دفعات من الأفكار شديدة الاختلاف عما تعودتها، أدت إلى إغراق أمي الأمية الصغيرة آنذاك في حالة من الحنق الهائل، دفعها إلى الدخول في عصيان غير مبرر لزوجها السابق.

أستطيع بصعوبة كبيرة أن أتخيّل الصورة كاملة، في الرياض، منتصف الستينات الميلادية، كانت هناك امرأةٌ جاءت من النماص، لتقطن مع زوجها في حي دخنة، ثم تغيرت فجأة، وصارت تحاول بصعوبة أن تتفاعل مع أغنيات أم كلثوم، مثلما تفعل جارتها مديحة، وتصدح في البيت الضيق الذي يكشف المار في الشارع كل صوت فيه بكلمات الأغنية، معرضةً زوجها لحالة تهكم جماعية من رجال الحي، وتقريع مباشر من إمام المسجد.

أتخيّل أمي أيضاً وهي تغير أسلوب كلامها مع زوجها ليصبح أكثر

ندِّية مثلما تفعل مديحة مع زوجها، وأتخيّل كذلك كيف يمكن أن يتقبل رجل جبليّ مثل زوجها كل هذا الانبساط الذي تحاول أمي أن تحوزه لنفسها، مناقشة أوامره، اكتساب الصديقات، وسماع الأغاني، وتصفح المجلات اللبنانية، والأكثر رفضاً وصعوبة، محاولة الخروج من البيت لزيارة الصديقات، أو التنزه.

كانت هذه سلسلة السلوكيات الكارثية التي مارستها أمي تباعاً لتتحول بذلك من زوجة عادية، إلى زوجة ناشز، قليلة الأدب. ويبدو أن عبدالرحمن آنذاك كان على عتبة نجاحاته الأولى، ومنشغلاً إلى الحد الأقصى بطموح يتضخم مثلما تتضخم المدينة نفسها، ولم يكن يملك وقتاً كافياً لتأديب المرأة التي تتصرف مثل جَدْيٍ جبلي عنيد. ولذلك طلقها فور انتهاء نفاسها، وأبقاها في غرفة مستقلة من البيت حتى يجد من يعيدها إلى أهلها في الجنوب.

كان ذلك في أوائل السبعينات تقريباً، وقد قرر أبي أن يترك عمله العسكري ويتقاعد مبكراً، وفي تلك الأيام الأخيرة، كان يزور صديقاً سورياً له في منزله في الرياض، ويحدثه عن قرار تقاعده، وعن حلمه بالرحيل إلى لبنان ليكمل حياته هناك. لم يكن صديقه ذاك إلا زوج مديحة. حلقة الوصل التي كان من شأنها أن تخلق حياتي أنا. وأخبرته مديحة عن جارتهم الجميلة التي طلقها زوجها بعد ولادتها مباشرة، وأنها وحيدة، وذكية، ومتفتحة، ومؤدبة، وأقنعته بالزواج بها، ودبرت لهما آنذاك لقاء قصيراً في بيتها، تحدث فيه أبي إلى أمي مباشرة، وهي تخفي وجهها بوشاح قصير، ثم جعلته ينظر إليها عدة ثوان، قرر بعدها أن يتزوجها. ولما لم يكن لأمي وليّ قريب

في الرياض، رأى إمام المسجد أن يقوم القاضي بتزويجهما. وبعد ذلك مباشرة، سافرا إلى بيروت، ليتركا وراءهما المدينة ترك ناشدي الحياة في مكان أقل خشونة من الرياض التي لم تكن تعني لهما فرعاً ولا أصلاً، ولكنها هجرة لم تكتمل.

لم يتوقعا قط أنهما سيعودان قريباً ليقضيا بقية عمرهما في الرياض، ولكن السنوات تخاتلت من حولهما حتى سرقت منهما القرار، وأبي يقول: "إذا قررت أن ترحل عن الرياض فارحل فوراً، لأنك إذا بقيت فيها بعض الوقت، فلن ترحل، هذا شيءٌ من شعوذات المدن!" وأبي عاش في الرياض عشرين سنة، كانت كافية أن تحقن في دمه طلسم العودة.

جاءا إلى بيروت في أوائل السبعينات، وهي ناضجة جداً، منتفخة بالخير، وتثير شهية من يراها، لولا أن الثمار التي تنضج جداً، تسقط قريباً، ويبدو أن مشاريع الهجرة كانت تستدعي أقداراً أكثر تفهماً للأسباب. وهذا ما لم تكن عليه أقدارهما البتة. حملت بي أمي فوراً. وكانت جميع الأشياء المحيطة بها، والجديدة عليها كلياً آنذاك، تضاعف خصوبتها كما يبدو، مثل زهرة تتوق إلى تكوين حياة أخرى، هي التي لتوها تتذوق هذه الحياة في كنف أبي، النموذج الرجالي الذي لم تعرفه من قبل، ولم تتوقع أن يكون على الأرض أزواجٌ يقتسمون كل شيء مع زوجاتهم مثله. اتفق الجمال والهناء على جعلي أجيء مبكراً، حتى تحمد لأبي النعم التي أغدقها عليها، بنعمة الولد الذي تمناه طويلاً، وحرم منه، وهو في أوائل الأربعين آنذاك.

بعد أن ولدتُ بأشهر قليلة، استدعي أبي للمثول في السفارة السعودية في بيروت، وهناك تسلم أمراً للحضور إلى جدّة للتحقيق في بعض الشؤون العسكرية التي حدثت أثناء توليه منصبه العسكري، فودَّعَنا على أن يعود خلال أيام، وكل ما يدور في خلده آنذاك أن الشأن متعلق ببعض إجراءات المحاسبة التي يتم اكتشاف أخطائها عادةً بعد عدة سنوات، أو بعض المستندات التي ترك عليها توقيعه من دون تبرير يوضح السبب الذي وقعها من أجله، فاحتاجوا لاحقاً إلى سؤاله عنها. ولكن الأمر لم يكن بهذا القدر من العادية التي استجاب لها أبي بكل عفوية؛ بل كان في انتظاره أمرٌ لا يمكن أن يتوقعه من قضى أكثر من عقدين من عمره شرطياً في الأمن، سيارة جيب تنتظره في المطار، استقلها مع ضابط وجنديين، إلى السجن العسكري مباشرة.

اتهم أبي بالانتماء السياسي إلى جماعات محظورة، وذات أهداف ونشاطات مشتبه فيها، وإدارة خلية من خلايا المعارضة الداخلية من خارج البلاد، مستنداً إلى خبرته الحساسة في الجهاز الأمني للدولة. كانت التعدديات الحزبية والسياسية التي انتشرت آنذاك، على اختلاف أيديولوجياتها وانتماءاتها إلى القوى العظمى السائدة، قد حفلت ببعض النشاط أيضاً في السعودية، وكان تكوين الخلايا المعارضة، والجماعات الحزبية أمراً شائعاً لدى زمرة المثقفين، والطلاب، ورجال الدولة آنذاك، ولذلك وضعت الحكومة جميع أولئك الذين ليسوا في مناصبهم الرسمية تحت المراقبة. ولهذا كان أبي تحت أوراق البحث مثيراً لريبة المحققين، إذ إنه ترك منصباً عالياً

في الأمن العام فجأة، ثم غاب عن البلاد فترة من الزمن، واستقر في لبنان، الذي هو قلب التعدديات الحزبية، وأخصب نقطة تتعاطى فيها الأقليات حريتها السياسية، لاسيما المد الشيوعي والبعثي، فكان لقمة شك سائغة جداً.

ودخل أبي السجن من دون محاكمة ولا قضية. وبلغ أمي خبره هذا وهي تعطر له البيت كل ليلة ترقّباً لعودة مفاجئة، ولكنه لم يعد، وكان عليها أن تتركني عند نادية، الجارة اللبنانية التي تحولت تدريجاً إلى مربية، وهي تقيم مع زوجها وحيدين من دون أبناء. كان عمري عدة أشهر آنذاك، ووجهي لا يجيد صنع علامات الاستفهام جيداً، تركتني أمي وراءها وسافرت إلى جدة وحدها، لتلاحق ما يمكنها ملاحقته من أطراف قضيته الغامضة، وتحاول أن تلملم أطرافها المبهمة، وفي قلبها عويل امرأةٍ جنوبية مفجوعة في الزوج الذي تحب.

كانت أمي خائفة جداً، . مشت كل الهموم في صدرها المثقل بحليب لا يصل إلى فمي، ولكنها لم تيأس. ظلت تقصد كل وسيلة تساعد أبي و لم تعْيَ قط: أبواب المسؤولين، أصدقاءه القدامى في الأمن العام وسلك الشرطة، أقاربه الذين كان قد اعتزلهم منذ زمن، مجالس الأمراء الرسمية أحياناً، وشيوخ الدين المشهورين أحياناً أخرى. لم تترك طريقة تستطيع أن تساعده فيها إلا فعلتها، كان يساعدها في ذلك مديحة وزوجها إذ ينقلانها في سيارتهما من مكان إلى آخر. والغريب أن أبي كان مسجوناً في جدّة، بينما كل الجهات المسؤولة عن قضيته كانت في الرياض، وهكذا كانت أمي تقضي أسبوعاً أو

أسبوعين في الرياض لتتابع القضية، ثم تسافر إلى جدة لتحاول أن تزور أبي من دون جدوى، لأن الزيارة كانت ممنوعة على السجناء السياسيين بالذات.

أخبرها جنديٌ طيب أن أبي بخير، وأخبرها سجين أُطلق سراحه أنه يعاني مغصاً دائماً وقيئاً مستمراً، وأخبرها أحد أقارب أبي الأبعدين أنه متهم بقضية سياسية، وأن حبسه قد يستمر سنوات طويلة، ولكنها ظلت تدأب وراء الحقيقة الصعبة، ولم تجدها تماماً، حتى خطّ أبي الذي قرأته في ورقة جلبها إليها الضابط المسؤول كان محفوفاً بالأسئلة. "أم أحمد، إصبري لا حرمني الله من صبرك، سأخرج قريباً بإذن الله كما وعدوني، أنا بخير والجميع يحسنون معاملتي هنا، كلهم كانوا زملائي وبعضهم تلاميذي، فلا تخافي عليّ، إنتبهي لنفسك ولحسان، زوجكِ/إبراهيم".

ما زالت أمي تحتفظ بالورقة المرتعشة تلك في خزانة ثيابها، رغم أن أبي طالبها بأن تتخلص منها مراراً لأنها تذكره بأيام تعيسة، ولكنها لم تلبّ مطالبه، وقالت له مرةً: "لو كنت تعلم كيف كنتُ، ثم كيف صرتُ بعد هذه الورقة لعرفت لماذا أحتفظ بها"، وتقيم أمي طقوس امتنان رهيبة لقطعة الورق تلك، كعادتها في المبالغة في الأشياء التي تعكس حبّها للأسرة، وإصرارها الكبير على أننا جنّتها التي تنعم بها، ولا ترضى بغيرها.

مرت أشهر على تلك الورقة، وخرج أبي محض صدفة قدرية تلت مقتل الملك فيصل في الرياض، إذ لم يلبث أن أصدر الملك خالد من بعده عفواً عن زمرة من المسجونين في قضايا سياسية، بتهم حزبية

مختلفة، فخرج أبي بلحية طفيفة، وحزنٍ موقّت، ولكنه مُنع من مغادرة البلاد بعض الوقت، واندلعت أيضاً حرب لبنان الطاحنة، فانتهى مشروع الهجرة إليه، وركن أبواي إلى الرياض بعد أن صدر أمر ملكي بمنح أبي فيلاّ كبيرة، وراتباً تقاعدياً تاماً بدلاً من راتب التقاعد المبكر الجزئي الذي كان يستحقه، بأمر من الديوان الملكي، كنوع من تلطيف النفوس، وتأليف القلوب.

أبي الذي روى لي ذلك مراراً، لم يحدثني مرة واحدة عن مفصل الأمر، هل كان بالفعل على علاقة بخلية معارضة ما؟ وهل كانت له أية أنشطة سياسية بشكل مباشر أو غير مباشر؟ ربما كان الأمر يمسُّ جانباً حرجاً من شخصية أبي، وصمته المقصود هذا هو ما جعلني أذهب غالباً إلى تفسيري الشخصي، وهو أنه انساق فعلاً وراء تنظيم ما، قوميّ الطابع في الغالب، استجابة لمتطلبات المرحلة، ثم تراجع عن ذلك، وندم عليه، وأحياناً أذهب إلى أن هدية الملك قد نجحت فعلاً في تأليف قلبه، فوقع بين سندان مبادئه المخالفة، ومطرقة امتنانه الشخصي للملك خالد آنذاك، فأصبح يتحاشى التطرق للأمر، وتعوّد هذا حتى الآن.

****

لطالما شعرتُ بأن علاقتي بأبي كانت ستبقى أبسط لولا حادثة المسرح التي حدثت في طفولتي، وجعلت كل الأبعاد التي كان يولدها وجوده كأب تتضاعف بشكل لا نهائي، وتظل متجذرة في داخلي كاحتياج

متزايد إلى هذا الرجل السبعيني الذي أبوء إليه بأمني وخوفي.

سبق أن اضطررتُ أن أسردها لوزّان، تحت تأثير دواء خفيف، من دون اقتناع بضرورة ذلك، ولكنه في جلسة ما ألحّ عليها بعد أن سمعني أعرِّضُ بها مازحاً في غمرة ضحك عابر، قلتُ له إنه إذا ظن أنه سيجد فيها فرجة على فضائي النفسي كما كان يردد دائماً، فسيضيع وقتاً، لأن القصة لم تكن بتلك الحدة لتؤثر، رغم أنها كانت أكثر حدة مما يحاول الحياء تمويهها، ونبذها في ركن مهمل من أيامي الحادة القديمة.

كنتُ في العاشرة، والحفل المدرسي على وشك الابتداء، وأنا أشاركُ في النشيد الجماعي مع أكثر من ثلاثين طالباً آخر، تدربوا معي عليه طوال شهر ونصف الشهر. وعلينا أن نحضر بالزي الرسمي، وبالغترة والعقال. طلب من المعلم أن أحضر تمام السادسة مساءً، وأكد على ذلك كثيراً، وعندما أتيت مساءً، وجدتني وإياه في المدرسة الخالية إلا من عمّال النظافة، وبعض العمّال الآخرين الذين يجهّزون المكان للحفل، وقتذاك ابتسم لي ابتسامة واسعة، وصافحني مبقياً كفي الصغيرة في يده طويلاً حتى تعرّقت، "عليك أن تضبط غترتك مائلة قليلاً!"، قال ذلك، وراح يجرني معه متجهاً نحو جهة مقصودة، "ثمة مرآة في غرفة المسرح الخلفية"، حاولتُ ضبطها فوراً بيدي الحرة الوحيدة، دون تلك التي ما زالت غائبة في كفه الجافة، ومشيت، وليس عندي حدسٌ كافٍ لقدح الخوف، ولا وعيٌ ينتبه إلى ريبته الواضحة.

كان عمري عشر سنوات قضيتها كلها في كنف أمي وأبي، ونادية.

وفي كل أحوالي الصغيرة، كنتُ محمياً جداً من قبل أمي وقوانينها الاجتماعية التي لا تنكسر أبداً، وبعيداً عن أية ظروف أخرى تتيح لي مساحة أوسع من الفهم، حتى الصبية الآخرون في مثل عمري لم تكن أمي تسمح لي بأن ألعب معهم في الحي، أو في بيوت الأقارب، ما لم يحضروا إلى بيتنا لأظل دائماً أمام عينيها الحذرتين.

الآن أنا في المدرسة الخاوية، مع رجل تربّص بي منذ الأمس، ومنحني موعداً خاطئاً، وكأن الموقف أسوأ كوابيس أمي على الإطلاق، ولو أنها تراني الآن لأنشبت أظفارها في عنقه مثل لبوءة جنوبية، ولكنها لا تعلم. حممتني بعد العصر جيداً، وألبستني الثياب المكوية النظيفة، وقطرت عليّ عطراً خفيفاً، وألبستني الساعة الرقمية الصغيرة التي تُشعرني بالفخر، وتركتني أذهب إلى المدرسة بالهيئة الجميلة التي لا تدري أنها تزيد من فداحة الموقف. والآن هي تجلس في البيت، تتخيل ابنها الجميل الذي يصدح بالنشيد من فوق المسرح أمام المئات من الحضور، بينما هو محشورٌ أمام مرآة مكسورة في غرفة المسرح الخلفية، مع رجلٍ بيّت نيّاته منذ الأمس.

ترك يدي بعد أن دخلنا الغرفة فعلاً. وقفتُ أمام المرآة، أحاول تعديل غترتي وأنا أشعر بالخجل من عدم استقرارها فوق رأسي، ثم وجدته يقف خلفي تماماً، وصار وجهه يحتل المساحة المجاورة لوجهي في المرآة، وهو يعض على شفته بشهوة بدأت تتصاعد في دمه، راح يحاول أن يساعدني على ضبط الغترة، بينما جسده يلتصق بي من الخلف بخفة، ومن دون مبرر، كان يثني ركبتيه حتى توافي

قامته قامتي القصيرة، لم أحفل بذلك في البداية، حتى عندما لاحظتُ أن يديه تخربان انضباط الغترة أكثر مما تعدلانها، لتطول بذلك هذه الوقفة المريبة.

بعد ثوان، شعرتُ بشيء صلب، كبير، يتحرك خلفي، بشكل بطيء، ومتكرر. كان ينتصب تدريجاً، رغم حيلولة الملابس، وشعرتُ أنه يلمس مؤخّرتي كما تلمس الأظفار سطحاً معدنياً صدئاً، فارتجفتُ بفزع، ورأيتُ عينيه في المرآة تنغلقان ببطء، ثم ترتجفان في محجريهما، بينما يندفع من فمه هواءٌ ساخنٌ يرطّب أذني. أيقنتُ أن الأمر مخيف حقاً. ابتعدتُ قليلاً فطوّق بيديه كتفيّ الصغيرتين، والتصق بي بشدة، وتأوّه بلذة. تملصتُ منه بشكل عنيف وقد قُرع في داخلي جرس تنبيه هائل جداً، علقته أمي في ذهني على مدى سنوات ولم أنتبه إليه من قبل حتى هذه اللحظة، راح يرنّ بجنون، ويحرض عظامي وعضلاتي كلها على فرار كبير، ولم يستوقفني عندما قررتُ أن أفرّ فعلاً، فخرجتُ من الغرفة، ومن مبنى المسرح، وركضتُ بعيداً باتجاه الشارع، وتجاوزتُ بوابة المدرسة، ورحتُ أركض بحذاء سورها الطويل في جهة لا أعلمها، إلى خارج هذه المساحة من الذعر التي تصاعدت فوق السماء. ركضتُ من دون توقف دقائق كاملة، لا أدري إلى أين أذهب، وإلى متى ينبغي أن أستمر في هذا الركض. بدا لي فعلاً أني غير قادر على التوقف عن الركض حتى لو بعثتُ أوامر عقلية إلى ساقيّ وجذعي. كان جسدي يتصرف وحده، وينقذ نفسه، بعد أن فقد ثقته بعقلي الصغير الذي ورّطه في كل هذا.

عندما خشيتُ الابتعاد والضياع رحتُ أدور حول المباني الصغيرة،

ولكني لم أتوقف عن الركض. اختبأتُ في الحي الخلفي من مدرستي، وأنا بالكاد ألتقط أنفاسي، وبالكاد أرتب أدراج عقلي التي انفتحت كلها دفعة واحدة على عدة أشكال من الدهشة القاسية، العنيفة، التي لا يستحملها أبداً جبينٌ صغير كجبيني.

هل من الممكن أن يكون ذلك الشيء القاسي الثقيل الذي لمس مؤخّرتي هو عضوه؟ إن يديه كانتا ظاهرتين في المرآة وهما تمسكان بكتفي وغترتي، هل يعقل أن يكون للمعلم عضو بهذا الحجم؟ ولماذا يتضخم هكذا فجأة؟ ولماذا لا نراه من وراء ثوبه ما دام كبيراً إلى هذا الحد؟ وهل توجد أعضاء بهذا الحجم أصلاً؟ أنا الذي لا أعرف أعضاء أخرى إلا عضوي، بحجمه الطفولي الدقيق!

عندما كنتُ في الرابعة من عمري، كانت نادية تخوّفني في الليل من الرجل ذي اليد الكبيرة. لم أكن أفكر ماذا يعني أن تكون يده كبيرة بمقدار ما كنتُ أعرف فقط أنه مخيف، لأن يده كبيرة، وإلا لما حذرتني نادية من القيام من فراشي، أو الخروج من بيتها في ضواحي بيروت ليلاً، حتى لا يخطفني، ويحملني بيده الكبيرة تلك.

الأشياء الكبيرة مخيفة، فقط لأنها كبيرة، هذه قاعدة نفسية تأسست في داخلي منذ الصغر، ونادية التي غرستها فيّ، وعلمتني أن أخاف من الأشياء الكبيرة، سواء أيداً كانت أم قضيباً، ويبدو أنها بذلك هي التي أنقذتني من المعلم الذي همّ بي فعلاً، من دون أن تدري.

كانت الشمس قد أكملت غروبها، وبدأ الليل، والحي هادئ، وعن بعد تتراءى لي أضواء المدرسة. جلستُ تحت نخلة، لهثتُ قليلاً وأنا أشعر بذلك الألم الطفيف جانب البطن جراء الركض المفاجئ،

ورحتُ أفكر طويلاً في الموقف، وأعيد توليد دهشتي من جديد كل مرة.

رسمتُ بإصبعي على التراب قوساً محنيةً، تخيلتُ أنه عضو المعلم، مسحته بيدي، ورسمته أكبر، ثم أكبر قليلاً، ثم أكبر كثيراً، ورحتُ أتأمل القوس، وأتخيل كيف يمكن أن يكون شكله فعلياً، ولمستُ مؤخرتي، وشبّرتها بيدي الصغيرة، لأحاول تصور حجمه بشكل أوضح، حتى وصلت إلى صورة قريبة.

ولكن إذا كان هذا الحجم ممكناً، فمن أين له تلك الصلابة؟ لقد كان قاسياً وكأنه آلة معدنية، هل حقاً هذا عضوه؟ أو ربما كان المعلم يخفي أداةً ما خلف ملابسه ليخيفني بها؟ ربما كان عصا غليظة، يشدّها إلى ظهره بحبل قصير، أو شيء مثل هذا القبيل. هل كان يمازحني إذن؟ ولماذا يمازحني ونحن وحدنا، وليس على مرأى من آخرين ومسمعهم؟ ولماذا كانت طريقته في ضبط غترتي مرتبكة، حتى إنه كان يتعمد أن يميلها كلما اعتدلت؟ كان يكذب، هو لا يريد لغترتي أن تنضبط إطلاقاً، ماذا يريد مني إذن؟

تحت تلك النخلة التي شهدت فزعي الأول، مكثتُ أكثر من ساعة. ومن بعيد، لمحتُ أضواء سيارات المدعوين وهي تجوز بوابة المدرسة. لابد أن سيارة أبي بينها، ولابد أنه سيبحثُ عني، ويخاف، مثل ذلك الخوف الذي أتذكره في وجهه عندما ضعتُ في بيروت ذات مرة. حزمة من الأفكار التي بعثتها صورة أبي منحتني دافعاً للعودة إلى المدرسة على مهل، لعلي أشارك في النشيد وكأن شيئاً لم يحدث. مسحتُ القوس المحنيّة الكبيرة التي رسمتها على التراب،

ورحتُ أمشي باتجاه المدرسة، وعندما اقتربتُ منها أكثر رحتُ أحاول أن أميز الأشخاص عن بعد حتى يمكنني أن أتجنب الأستاذ إذا كان هناك. أخيراً دخلتُ المسرح. كان لباسي مميزاً كملابس بقية الطلاب المنشدين، بذلك الوشاح الأخضر الذي يحمل شهادة التوحيد، ولهذا استوقفني صوت أحد المعلمين:

– حسان، ليه ما طلعت في النشيد؟

لم أجب، و لم أكن أعرف إذا ما كنتُ أستطيع بلورة القصة كلها بالكلام، هل يمكن أن يُحكى هذا الشيء ويقال كبقية الأشياء؟ هل عندي شيء مقبول ومنطقي يمكن أن أحكيه أصلاً؟ نظرتُ إلى المعلم بارتباك، وقبل أن أنطق، تدخّل معلم آخر:

– حسان، فاتك النشيد، انتهى قبل قليل، وكان مكانك على المنصة خالياً.

– أعرف.

– ليه ما أنشدت، مو حافظ النشيد؟

كانت أسئلتهم تأتي بنبرة عادية، ولكني لا أدري لماذا شعرت بأنها تحاصرني بقسوة مثل أسلاك شائكة، أطرقت وأنا أفكر في مهرب من الوقوف أمامهم، أنا الصامت حتى الآن، دون أن أجيب عن أسئلتهم المتقافزة حولي مثل شياطين شقية. معلمان كبيران، وأنا طفل وحيد، يخفي تحت لسانه أحداثاً صارت معه، لا يدري كيف تقال، ولا ماذا تعني.

أسئلتهما لم تكن إلا مندهشة، لا غير، ولكنها أوقدت في داخلي شعوراً صغيراً بأني مذنب، كنت أتصور أني أفسدت الحفل، وأني

خيبت ظنون الجميع، وأن المدرسة كلها ستنقلب ضدي، ورحتُ أفاقم العواقب في داخلي بخيال الطفل الخائف، وبدأت تنمو في حلقي غصة صغيرة.

أثناء ذلك، وقف مدير المدرسة مع المعلمين اللذين كانا يكلمانني، لم يتكلم معي، ولكني سمعت أحدهما يخبره أني تخلّفتُ عن النشيد، أدار رأسه نحوي، وفور أن لمحتُ وجهه السمين، وذلك الشحم المتجمع في رقبته التي يضغط عليها زرّ الثوب المحكم، لم أعد أستطيع التماسك، فغدرت بي دمعة، وارتجفت شفتي منذرة ببكاء وشيك، وقبل أن ينبس هو بكلمة واحدة.

دهشوا تماماً، وأمسك أحد المعلمين معصمي، بعد أن فاجأتهم دموعي، وفور أن لمستني يده، استرجعت لوهلة مشهد المعلم الآخر الذي لمسني بعضوه قبل ساعتين، وعينيه المنغلقتين على حافة الشهوة، وتراجعت محاولاً الإفلات منه، بينما شدني هو بحركة لا إرادية، فوقعت أرضاً، و لم أعد أقدر على التحمل، وانفجرتُ في بكاء طويل جداً، ودفنتُ وجهي في زاوية صغيرة بين يدي والأرض، محاولاً ألا يرى أيٌّ من الحاضرين ملامح وجهي وأنا أبكي. انحنى عليّ المعلمان، والمدير، وآخرون لا أعرفهم، كانوا يحاولون جذبي، تنحيتي عن الأرض والممر، وعليّ تنهمر أسئلتهم الحانية الملأى بالاستغراب.

– ما بك يا حسان؟

– أحد ضربك؟

– ليش تبكي؟

– أنت ولد شاطر، والنشيد تقدر تنشده بعدين.

– ما يصير كذا، أنت رجال. كيف تبكي يا حسان؟

اندلقت عليّ هذه العبارات، وأشباهها، وأنا أنشج نشيجاً أحاول أن أجعله مكتوماً، وبشكل متواصل، مستمر، ودمع لا عهد لي به يهطل من عينيّ. لم أعد أدري كيف أتصرف، لست أملك تفسيراً لهم، ولا لي، وليس ثمة مبرر مقنع لحالة بكاء كالتي تنتابني، وفي غمرة أسئلتهم بدأت أفكر في شيء مختلف، شعرت بأنني لا بد أن أقدم لهم بعد أن ينتهي بكائي تفسيراً مقبولاً، وإلا بدوت أحمق، وهذا أسوأ، خصوصاً بعدما بدأت أشعر بوجود طلاب آخرين من زملائي اقتربوا، وراحوا يتفرجون عليّ بفضول وأنا أبكي، وتحت وطأة هذه المسؤولية الجديدة، مسؤولية التبرير اللاحق، ازددتُ بكاءً، وخوفاً، وقلقاً.

فجأة جذبتني يد قوية، ورفعتني عن الأرض، وأنا أقاومها بشدة، وعيناي الدامعتان تمنعانني من الرؤية، وأحاول أن أدير وجهي إلى الناحية الأقل ازدحاماً بالمتفرجين، إلى أن وجدتُ نفسي محمولاً إلى الأعلى، ووجهي على مسافة سنتيمترات فقط من وجه أبي، وملامحه الحافلة بالأسئلة، وإن كساها وقارٌ وهدوء بالغان.

ابتسم لي، وقال: "خلاص يا حسان، تعال نغسل وجهك!"، أنزلني إلى الأرض، ومشيتُ معه بطواعية وهو يمسك بيدي، ودخل بكائي مرحلة الشهقات الأخيرة التي ينتهي بعدها، وأمام المغسلة كنتُ قد توقفت عن البكاء تماماً. غسل أبي وجهي بيده المليئة برائحة عطره المعتادة، فشعرتُ بأمان كبير وهي تتخلل أنفاسي ورئتي، مسح أنفي، ومسارب دموعي، وجفّف وجهي بمنديله الحريري الذي

يحتفظ به دائماً في جيب ثوبه.

عندما خرجنا، جذبني أبي بعيداً عن تجمع المعلمين الذين انشغلوا في شأن آخر. كان المكان قد أخذ بالازدحام بعد أن انتهى الحفل، وأخذ الناس في الخروج، وراح بعض الآباء يدخلون في حوارات جانبية مع معلمي أبنائهم، بينما كنتُ أنا مطرقاً. بعض أصدقائي حاولوا لفت انتباهي بإشارات، ونادوني همساً وهم ملتصقون بآبائهم، ولكني لم أعر أحداً انتباهي، كنتُ أنتظر أسئلة أبي التي لا بد أنها ستأتي.

ولكنه لم يفعل، لقد تجاهل الأمر تماماً، وركبتُ معه في السيارة، واتجهنا إلى بقالة صغيرة بمحاذاة المدرسة، واشترى لي حلوى، ومجلة أطفال، وهو يتحدث معي عن كل شيء، عدا المدرسة، والحفل، وما حدث هناك.

كنتُ مقتنعاً بأني تسبّبتُ لأبي بعارٍ كبير نتيجة عدم تنفيذي وصلة النشيد الجماعي تلك، خصوصاً أن أبي الذي كان يشجعني على التدريب، وحفظ النص. كان يعلّق آمالاً هائلة عليّ في هذا الحفل ذي الأهمية العظيمة، فلم أفهم كيف يمكنه أن يتجاهل هذا الخذلان الكبير مني، ويبدو هادئاً، ومرحاً هكذا.

في البيت، استقبلتنا أمي بابتسامة كبيرة جداً، وراحت أسئلتها تنهال عليّ فعلاً لولا أن أبي أومأ إليها بإشارة خافتة انتبهتُ لها، فخضنا في حديث غيره، وعندما أويتُ إلى غرفتي، سمعتُ أبي يحدث أمي بينما كنتُ أغسل أسناني.

- ....

– خاف من المسرح، واختبأ.

– ليه؟

– الناس كثيرون، وهو طفل، لم يتحمل الموقف. المشكلة أنه بعد الحفل ازداد خوفاً، وراح يبكي.

– يا حبيبي، مسكين، أكيد أحس بالفشل.

– ....

ظل هذا الحوار يدق في رأسي طوال الساعة التي أرقت فيها و لم أنم. هل كنتُ خائفاً فعلاً؟ ممَّ؟ نعم كنتُ خائفاً، وإلا فلماذا هربت. حتى تلك اللحظة لم أكن قد جلستُ مع نفسي لأفهم تحديداً ما هو التصرف الذي قمت به في الحفل، ولذلك كان أبي في حواره مع أمي يضع لي احتمالاً منطقياً، ربما كنتُ أنا خائفاً من الحفل فعلاً، لا أكثر.

في الصباح، استيقظتُ على يوم إجازة، كانت أفكاري أكثر صفاءً، واسترجعتُ الأحداث بهدوء، وهي تتعاقب على ذهني بوضوح. أنا كنتُ خائفاً، ولكن ليس من الحفل، ولكن لأني كنتُ وحيداً مع معلم ذي عضو غريب، وكان يتصرف معي بغرابة أكثر، وأبي لم يكن يوضح لي الأشياء الغريبة قط.

ذهبتُ إلى أبي، فوجدته واقفاً في منتصف الحديقة، يراقب بستانيين جاءا لتنسيقها، وموليًا ظهره لي. احتضنته من الخلف، فندّت منه عبارات ترحيب مرحة:

– أهلاً وسهلاً، بطل الأبطال.

– بابا.

– نعم يا بطل.

كنتُ لا أزال محتضناً إياه من الخلف، عندما قلتُ له مباشرة:

– أمس الأستاذ سوا لي كذا.

– كيف؟

– سوا لي كذا الأستاذ.

– تقصد أن مسكك من ظهرك زي كذا.

– ايه.

– متى؟

– قبل الحفل، لما رحت معه نضبط غترتي في غرفة وراء المسرح.

كنتُ لا أزال متشبثاً به من الخلف، وكانت أسئلته جدية إلى حد أني خشيتُ مواجهتها أمامه، ولكنه احتفظ بنبرته الهادئة، محاولاً ألا يقذف الخجل في قلبي الذي ظل يعترف بطواعية.

– وما كان معاكم أحد؟

– لا

– أي أستاذ؟

– أستاذ علي، أستاذ الحفل.

– عشان كذا أنت ما طلعت في النشيد؟

– ايه، كنت خايف منه.

قبض أبي على معصمي، وأدارني لأصبح في مواجهته، وحملني عالياً، وضمّني وهو يتسم ابتسامة عصبية، وأثناء ذلك، همس في أذني بسؤال قصير، وهو يمسك بطرف بنطالي:

– طيب يا حسان، شال ملابسك؟

– لا، بس حضني زي كذا، بعدين أنا طلعت.

– وين طلعت؟

– ركضت برا المدرسة.

– طيب يا بطل، روح لماما عشان تفطر، وبعدين نطلع نتمشى.

وأنزلني بعد أن قبّل وجنتي، حتى إذا ما بلغت قدماي الأرض، شعرتُ بأني أخفّ وزناً، وأن حملاً ثقيلاً قد انزاح عن كاهلي، ورقعة أفكاري الصغيرة، فرحتُ أبحث عن أمي في مظانها من البيت، وأنا أركض بحبور ونشوة.

بعد ثماني عشرة سنة، أعدتُ مفاتحة أبي في الأمر.

كان في بيتنا ضيفٌ يتحدث عن اشتباه في حوادث اغتصاب متكررة تحدث في جمعية للأطفال المعوقين، والمتخلفين عقلياً، باستغلال أفواههم التي لا تنطق، وعقولهم التي لا تعي، وتكلم أبي كثيراً في تعليقه على الموضوع، وعندما رحل الضيف، بقيتُ أنا وأبي نتكلم في مجلس الضيوف قليلاً، ونشرب بقية الشاي، وسألت أبي هل كان يذكر ما قلته له عن ذلك المعلم.

– نعم يا ولدي، صحيح.

– ماذا فعلت آنذاك يا أبي؟

– بلّغت صديقاً لي في الشرطة، فأخذوه من المدرسة، واعترف، وفصلوه من وزارة المعارف.

– فقط؟

– بس يا ولدي، ايش تبغاني اعمل كمان؟

– ألم تنفعل؟ تضربه مثلاً؟

– كفاية الفصل، والحمد لله أنها عدّت على خير.

ربما عدّت على خير فعلاً كما يرى أبي، وربما لا. حتى الآن أنا نفسي لا أعرف إجابة عن هذا السؤال، وهل كنتُ سأكون رجلاً مختلفاً لو أن حكاية كهذه لم تحدث قط؟ هل كنتُ سأغرق في حكايات نسائية طويلة على مدى سنوات وكأني أغسل بها علائق الذاكرة؟ ما أعرفه أن هذه التحرشات كانت من الفجاجة بحيث احتكّت بداخلي مثل الصرير المجنون الذي لم يتوقف منذ الطفولة، وما زال يسكنني فزعها مثلما تسكن الكهرباء خيال الأسلاك النحيلة، وبقي منها في جسدي تلك الرجفات العصبية التي تجفّلني من الرجال، حتى وأنا قاب عام تقريباً من الثلاثين. جسدي لا ينطق، ولكنه حتماً لا ينسى.

IV

”عزيزتي غالية،

رسالتكِ مثل نجمة البحر، لا أدري أيُّ أذرعها بدايتها، وأين هي الذراع الأَخيرة. والمرهق أنه كي أنتقل من ذراع إلى ذراع، من دون أن أخرج من هذه الرسالة/النجمة، عليّ أن أعود دائماً، كل مرة، إلى المركز.

كيف يمكن أن أفهم ما تعنين من خمس أذرع، يشير كل منها إلى اتجاه مختلف؟ رغم أنكِ تعرفين جيداً أني عندما أقرأ لك، لا أقلب وجهي في السماء، ولا أَراود الاتجاهات الأخرى. فلماذا لم تكتبي لي مثلما كنتِ تكتبين من قبل؟ الرسائل التي تقودني مثل منارة، لا هذه التي لا أعرَف من أين أبدأها، ولا أين تنهيني.

رجاءً، إقتربي أكثر، وأُهمسي في قلبي مباشرة. أحتاج إلى الكثير من الإيضاح هذه الأيام.

حسان – ملقا

12 أغسطس 2004“

****

كلما بعثتُ برسالة إلى غالية، احتفظتُ بنسخة منها في بريدي الالكتروني. كنتُ أفعل ذلك بشكل آلي، لأكون قادراً على إعادة إرسالها في حال لم تصل، بدلاً من إعادة نسخها مرة أخرى بشكل رديء، ولكني في الحقيقة، كنتُ أفعل ذلك لأني أشعر بأن شيئاً ما تبنيه هذه الرسائل على مهل، وعليّ أن أحتفظ بها، للأمانة العاطفية.

تراكمت في بريدي رسائل كثيرة بعثتُ بها إلى غالية من دون أن أنتبه إلى تكاثرها، حتى نبهتني إلى ذلك سعة البريد الالكتروني المشرف على الامتلاء، واضطررت أن أقف معها أمام خيار صعب، إما أن أمحوها جميعاً لأنها لم تعد مجدية، ولا بد أنها ستلوث نقاهتي، أو أنقلها كما هي إلى مكان آخر، لعلي أحتاج إليها في ظرف ما.

قررتُ أخيراً أن أحتفظ بها في ذاكرة خارجية، بعيدة عن متناول قراءتي المباشرة، ولكني رحتُ أتصفح بعضها أثناء النقل.

شعرتُ وأنا أشرف عليها من شرفة زمنية بارتفاع ثلاث سنوات كيف بدت رسائلي مثل سطح مائل، ظل ينحدر نحو غالية كل يوم مثل السفوح الثلجية، رغم أنها هي التي كشفت لي ورقة الحب الأولى، إلا أن كل ما في رسائلي كان يقودها إلى هذا الطريق الواحد، ويهيئه لعبورها المتوقع ذاك. كان واضحاً أني تركتُ الأبواب مواربة، وأجبتُ عن كل تلميحاتها الضمنية بذراعين مفتوحتين.

هل كنتُ أراودها في رسائلي تلك، لا إرادياً؟ لأشهر طويلة، كانت كل رسائلي تقول لها (سأحبكِ، شرط أن تكفيني حرج الابتداء!)،

فلماذا رحتُ ألومها وهي تطلق عليّ من حين لآخر زخّات غريبة من الغيرة، أدّعي أني لا أفهمها، لكي أظفر بصراحة أكثر تدليلاً لغروري الصغير؟

كانت هذه الرسالة التي بعثت بها إليها من ملقا صيفاً، رداً على رسالة أخرى حشتها غالية بكلام غريب، لم أتعوده منها قط.

"... منذ الصباح، محمد عبده يدق أبواب جبيني: "وجهكِ المحبوس في ورق وحديد". هو دائماً يأتي حسب الحالة، وكأنه يعرف أني منذ الصباح أشعر بذلك، أتأمل النافذة بقضبانها المعدنية المتقاطعة، والورق المتناثر أمامي ليتحول إلى مقال، وأشعر أني محبوسة بين الحديد والورق، تماماً مثل تلك "الصورة على الرفّ البعيد".

الأفكار متراكمة فوق مكتبي من دون معقّب، ونظّارتي مكسورة منذ يومين ولا أجد من يأخذني لأصلحها.

طنين جهاز التكييف يبعث على الإحباط، والحشرات الزاحفة تكاثرت فجأة في الفناء مع احتدام الصيف.

أعتذر عن إقحامك في خصوصيات الرياض الصيفية، ولكن لعلك تجد في تباين الحالات مرتعاً لجبينك، يريحك من التحديق في الأجساد الملقاة على شطآن أسبانيا، أليس كذلك؟

....

هذيان الرياض صيفاً، لا عليك.

غالية – الرياض

10 أغسطس 2004"

كان يمكن ألا تعلق رسالتها تلك أي جرس في قلبي، لولا شواطئ إسبانيا، والأجساد الملقاة عليها. لم يكن من المريح أن أتلقى رسالة تتهمني اتهاماً مبطناً باللهاث، ومن امرأةٍ ليست حبيبتي. ولولا أنها غالية، لأهملتُ كل التلميحات التي تضمنتها رسالتها التي تشبه نجمة البحر، ولكني تشبثتُ بها جداً، وكتبتُ إليها مرة أخرى أطلب منها مزيداً من المباشرة والتوضيح، وكأني أحاول أن أحصل منها على اتهام أكبر، وصراحة أوسع، ربما أتمكن من خلالها أن أشمّ رائحة الحب.

لم يكن قد مرّ أكثر من سبعة أشهر على ابتداء هذه الرسائل التي تجري بيننا مثل "الجناديل" الهادئة، ولم يكن ابتداؤها صدفة البتة، لأن حدوثها كان حتمياً إلى حد ما، فالمجلة التي بدأت غالية تكتبُ فيها كانت تصل إلى بيتنا بانتظام، وكان لابد أن انتبه يوماً ما إلى اسمها يعتلي عموداً جديداً فيها، لم أره من قبل.

وعلى مائدة عشاء تلك الليلة، نبّهتُ أبي إلى ذلك، فلم يعلق، بينما همست أمي بعفوية (ما شاء الله) وهي توزع الأطباق، وتنسق المائدة. صعدتُ إلى غرفتي قبل أن يكتمل تحضير العشاء، وعدتُ بالمجلة، مفتوحة على مقال غالية الذي يحتل طرفاً نحيلاً من جانب الصفحة، ووضعتها بين يدي أبي، فأخرج نظارته من جيبه، ووضعها على عينيه بهدوء، ثم انفرجت شفتاه قليلاً تلك الانفراجة المزمومة إلى أسفل كما يفعل عادةً عندما ينقل عينيه المتعبتين من حالة النظر في الأشياء العادية إلى التركيز في منطقة صغيرة كالمقال، وراح يقرأ قليلاً.

بعد ثوان قليلة قال:

– فعلاً، أعتقد أنها بنت عبدالعزيز الروضي.

– بالتأكيد.

استغرق أبي في قراءة المقال الذي كان في مجمله بعضاً من العزاء لبغداد التي أوجعتها الحرب، متباكية فيها على الأطفال والضحايا. قرأته باكراً، ولم أصرح لأبي برأيي فيه، منتظراً أن يأتي منه تعليقٌ ما، أعرف من خلاله مساحة الرأي المتاحة لي، واتجاهه المقبول.

بينما كان أبي يقرأ، قالت أمي:

– عهدي بها أنها تعيش مع أمها وطفلها، بعد أن انفصلت عن زوجها.

كانت تصفّف شعرها بتلك الهيئة التي لم تتغير منذ زمن طويل، رغم أنه ما زال طويلاً، وجميلاً، وخالياً في مجمله من البياض، وعلى وجهها تنام الحمامة نفسها منذ أن رأيتُ وجهها لأول مرة، بيضاء مثل الصباح المتأخر، وعلى أطراف جفنيها تجاعيد طفيفة، لا تخفيها أمي جيداً.

سألتها بفضول:

– ولماذا انفصلا؟

– هذه أسرار البيوت يا ولدي، لا أحد يعرف ما بين الزوجين.

– الله يعينها.

– صار الطلاق حكاية كل بيت، ما أدري وش صار للناس، ما عاد تحملوا بعض!

بدأتُ أتناول عشائي بهدوء، وأتجاذب مع أمي أطراف حديث

معتاد. بينما أبي منهمكٌ في قراءة المقال، ويحرك شفتيه وكأنه يلوك شيئاً وهمياً في فمه، وبعد دقيقتين من قراءة المقال، راح يرطب إبهامه بلسانه، ويقلب الصفحة، وينشغل في قراءة مواضيع أخرى.

سألته من دون أن أبدي اهتماماً كبيراً:

– كيف ترى مقالها يا أبي؟

أجابني من دون أن يتوقف عن تقليب الصفحات الأخرى:

– لا أدري، فيه كلامٌ عن السياسة، وفيه كلامٌ كأنه شعر.

ابتسمتُ لإجابته التي تبدو مثل امتعاض محتشم. كان واضحاً أن المقال لم يعجبه، ولكن شخصيته المتواضعة تمنعه من انتقاد الآخرين بشكل مباشر. قررتُ أن أسعى وراء رأي أكثر دقة، بما أننا نتناول العشاء الذي تأتي الثرثرة العائلية جزءاً معتاداً منه، كالخبز تماماً:

– تقصد أنه مقال ضعيف؟

– لا، لا.

ثم التفت إليّ نصف التفافة، ونظر إليّ من فوق نظارته التي انحدرت قليلاً على أنفه، وأردف:

– عندما أقرأ مقالاً عن السياسة، يجب أن يكون مقالاً عميقاً ووافياً بغضّ النظر عن وجهة نظر كاتبه، يجب أن تكون كتابته سياسية وموضوعية بحتة. السياسة معقدة، مو شعر وكلام خيالي.

وعلقت أمي من دون اهتمام، ومن باب المشاركة في الحوار:

– صحيح، يجب أن يكتب كل شخص في مجال تخصصه.

لم يبد أبي أنه سمع تعليق أمي قط. طرق بإصبعه على المجلة، وأردف قائلاً:

– هذه البنت تأخذ من طرف السياسة، ومن طرف الكلام الحلو، ومن طرف المشاعر الاجتماعية، وتكتب ما يريده الناس.

ثم أردف وهو يغلق المجلة ويضعها جانباً، ثم يعدل جلسته:

– وهذا ما تريده المجلات عموماً.

ثم بدأ في تناول طعامه، وهو يقول:

– ولكن كويس منها إنها تكتب، أعتقد أنها صغيرة، وكتابتها جديرة بالتشجيع.

وعلّقت أمي بعدها:

– وش صغيرة الله يهديك، قدّ حسان!

وضحك أبي، وهو يتناول بإصبعيه حبة زيتون:

– وحسان صغير كمان، شايفته كبير يعني!

وتجيب أمي بابتسامة واسعة:

– ستة وعشرين سنة، لما كنتُ في عمره كنت أمْ، وعندي بيت.

– وانتي كمان صغيرة، ولا يهمك.

ويقهقه أبي، لتُمحى من وجهه جميع الملامح الجادة التي طبعتها عليه القراءة، ويحل مكانها حاجبان مرفوعان كمظلتين صغيرتين، ووجنتان ما زالتا، رغم التجاعيد، قادرتين على التكور بلطف حول فم مزموم كدائرة غير منتظمة، ترتب الضحك، وتطلقه مثل فقاعات الصابون التي يلهو بها الأطفال.

دائماً يبدو وجهه عندما يضحك على هذه الصفة، وكأن البهجة اندفعت في قلبه فجأة مثل شلال، ولم يكن جادّ الملامح، مقطب الحاجبين قبل ثوان قليلة فقط. قدرته على المرح بهذه السرعة دائماً

تقول لي إنّ في قلبه سلاماً روحياً لم تستطع كل أيامه الكثيرة أن تكسره البتة.

ولم تكن كلماته تعبر أمي بسلام، كان وجهها يشرق مثل تفاحة تنفتح تواً، وتطرق قليلاً في خجل لا تحاول إخفاءه أبداً.

كنتُ أسمع هذا الجدل الغزلي بينهما، وأعلق على فمي ابتسامة حب تكفيهما معاً، وأتناول عشائي ببطء، مستمتعاً بهناء العيش مع أبوين يتكلمان كثيراً على العشاء من دون ملل.

عندما صعدتُ إلى غرفتي بعد العشاء، راسلتُ غالية على البريد المرفق في المقال مهنئاً إياها، ومعبراً عن إعجابي الذي لم أذكره أمام أبي، ونمتُ تلك الليلة كما أنام عادةً على ضوضاء فيلم ما، تصدر منه أضواء عشوائية حسب المشاهد، تنير ظلام الغرفة، وترسم أشكالاً غير منتظمة على الجدار الذي خلفي، بينما تذبل عيناي تدريجاً مع تأخر الوقت.

ولو أن غالية لم ترد على رسالتي الأولى تلك، لربما نسيتُ أني أرسلتها أصلاً. كانت الأشياء من العادية والطفافة بحيث يدهشني أنها تركت أثراً بهذا الحجم في ما بعد، ولكني وجدتُ في الصباح رسالةً منها، معلقةً في بريدي الالكتروني مثل عصفور أزرق، بدا لي منذ وصول الرسالة، أنه ظلّ ينتظرني منذ الفجر، ليغني لي قليلاً.

فكرتُ في هذه الفتاة التي تردّ على رسائلها فجراً، لماذا تسهر يا ترى؟ هل تكلم أحداً؟ أم أنها انتقائية جداً في اختيار أوقات صفائها ونجوى بريدها الذي ربما كان يضجُّ بقراءٍ كثر غيري؟ ربما هذا الذي جعلني أحاول في رسالتي أن أحشد أشياء تشير إلى قرابتنا لعلّي أحظى

باهتمام مختلف، رغم أني لم أكن أعرف ما الذي يمكنني أن أجنيه من هذا الاهتمام إذا تحقق. فغالية، آنذاك، كانت تدور في فلك بعيد تماماً عن توقعاتي المحدودة، والمنحصرة في حالات أنثوية قريبة، وواقعية، وأكثر ترابية بكثير من كاتبة مقال، وذات قربى.

أخبرتها أني أتذكر كيف لعبنا مرةً لعبة الرسم على الرمل فوق كثيب في الصحراء، وأن هذا هو آخر عهد ذاكرتي بها، وأعادت إليّ رسالتي وهي سعيدة لأني ما زلتُ أذكر ذلك، وتَرَكت بين عباراتها كلاماً يشبه العتاب على مجتمع يفصل بيننا رغم كوننا أقارب، وعلى الأسرة التي توقفت عن عاداتها السنوية في جمع شتاتها. أرسلتُ إليها رسالة أخرى في الوقت نفسه، وقد أغرتني شكواها العابرة، وأوحت لي بارتياحها معي نوعاً ما، فأخبرتها بما تفتقت عنه ذاكرتي من تفاصيل أدق عن ذكريات ذاك الكثيب، وردت علي برسالة جديدة أكثر مرحاً وصخباً في اختيار الكلمات الضاحكة، "أتذكر تفاصيل أكثر. ذاكرة الأنثى أقوى!"

كانت غالية أجمل الأطفال، بينما أنا أكثرهم خجلاً والتصاقاً بأمي. حاجباي معقودان دائماً كأني ورثت انعقادهما عن أبي، من دون أن أرث شيئاً مما وراءهما. ولأني تربيتُ في بيت لا أرى فيه إلا الكبار. كانت تلك المخلوقات الصغيرة التي تركض أمامي وتلهو معاً بعفوية تبدو لي كائنات مخيفة، غير رحيمة، لا تكلمني بشكل حنون كما تعودتُ من الكبار، ولا أظنها تضمر لي خيراً.

كانت أسرتنا قد عادت تواً من لبنان، وبقايا اللهجة اللبنانية في لساني تجعلني أتكلم بشكل غريب ومختلف، لا يلبث أن يعود عليّ

بسخرية وانتقاد لاذعين من أفواه الأطفال الصريحة. ولهذا كنتُ أؤثر الصمت، من دون أن أفهم لماذا كانوا يضحكون كلما نطقت، ولا يفهمون بعض الكلمات العادية التي تخرج من فمي.

ولذلك كنتُ أتأملهم عن بعد، واقفاً عند حد ساحة اللعب تماماً، من دون أن أجرؤ على الاقتراب أكثر، وألتفتُ كل وهلة جهة مجلس النساء لأتأكد أن أمي باقية في محيط بصري، وأني باق في محيط بصرها، وهذا هو الأهم.

كان للأطفال بهجة اللعب، ولي غبن المراقبة. ولأني طفلٌ في آخر المطاف، أمتلكُ القدرة التي يغبطها أي كبير على اختراع اللهو في أي حالات الحياة، كان عليّ أن أحوّل فعل المراقبة هذا إلى لعبتي الآمنة الصغيرة عند حد ساحة اللعب.

كان يمكن أن أراقبهم جميعاً وأحصي أفعالهم، وكان يمكن أن أراقب غالية. لم يكن من الممكن تفاديها، لعدة أسباب أعتقد أني أقدر على صياغتها الآن وأنا أتذكر، كان لها ملامح الكبار، وتبدو كامرأة صغيرة تلهو، وهذا ما يصعبُ تفسيره على طفل يراقب الأطفال عن بعد، بينما كان ينعكس على بقية الأطفال المنهمكين باللعب بشكل مباشر: كان يمنحها روح القيادة. ولهذا هي الأكثر نشاطاً في توجيه الأطفال الآخرين، واختيار اللعبة، ووضع القوانين، وإعلانها بصوتها الحاد الذي لم يكن ينقصه إلا طبقة واحدة ليكتسب نبرات امرأة بالغة، وبلهجتها الآمرة التي يستجيب لها كل الأطفال بولاء، ما زادني انطواءً، وخوفاً من مشاركة هذه الطفلة القوية في أي لهو ما.

كل هذا كان يحدث في مخيم صحراوي كبير شمال الرياض، قرر

أفرادٌ من عائلة أمي الكبيرة استئجاره مرةً في السنة، لتجتمع فيها العائلة المنقطعة بعضها عن بعض، ولا أدري لماذا كانت أمي تواظب على هذا الحضور، رغم ترديدها دائماً أنها لا تثق بهم، ولا ترجو منهم خيراً، ولكنها على ما يبدو كانت تحضر لتثبت أنها ما زالت حاضرة في السياق العائلي.

كانت غالية تأتي مع أمها وحيدتين، ولكنها لا تلبث بعد نزولها من سيارتهم المتواضعة تلك، أن تصبح سيدة الأطفال المتصرفة في لهوهم كله. كان أبوها هو الذي يلتقي مع أمي في قرابة بعيدة، وهو مزواج شهير حتى في شيخوخته، كتبوا عنه مرةً في الأخبار الصحفية العابرة عندما تجاوزت زيجاته العشرين امرأة، واحتفظت غالية بقصاصة الجريدة تلك منذ طفولتها على هامش السخرية المرة، ولأن أمها إحدى الزوجات المبكرات، احتفظت بمزية البقاء في ذمته، وتحت نفقته، رغم أنها لا تراه إلا نادراً، ولا يأتي إلى المنزل إلا في مناسبات نادرة.

حملتُ كرتي الصغيرة، وتسلقتُ كثيباً صغيراً من الرمل عند حدود المزرعة، محاولاً أن أبدو ظاهراً لجمع الأطفال البعيد، حتى أثبت علوي عليهم، ونفوري منهم، بكبرياء طفل لا يتنازل انصياعاً لتلك الطفلة المتحكمة. أذكر جيداً أني جلستُ وحيداً حتى دقت الشمسُ رأسي، وأني طأطأت في النهاية، ومللت الوقوف والتظاهر بالانشغال بكرتي، فجلستُ كما يجلس الأطفال المهزومون، على ظهر الكثيب، أراقب ظهور الخنافس المنتفخة وهي تدحرج كرات لزجة بسيقانها الخلفية، وتمشي إلى الوراء، حتى تدخل جحورها.

وفي تلك الأثناء، رأيتُ غالية، وهي تقتربُ من الكثيب، بصحبة طفلة أخرى من العائلة، وتتجهان نحوي تماماً، فتقلص بطني قليلاً، ورحت أنتظر، مقلّباً في ذهني الصغير الذي أرهقته الشمسُ بما يكفي أسئلةً خائفة. ماذا تريدان يا ترى؟ وكيف يجب أن أتصرف؟

بدأت غالية تتسلق الكثيب فعلاً، وتناهى إليّ صوت حوارهما الذي يدور بلا مبالاة بوجودي، وتوقفتا عند مكان غير بعيد مني، وجلستا على ظهر الكثيب، وأخرجت غالية من جيبها عدة أغصان قصيرة، ثم سوت بذراعها مساحةً صغيرة من الرمل، وراحت ترسم بأغصانها تلك على سطحه المتساوي، من دون أن تعيرني هي وصاحبتها أي انتباه، فتنفستُ الصعداء بعد النجاة من مواجهة لم أكن مستعداً لها.

تجاهلتهما وتجاهلتاني، واستجمعتُ شيئاً من الكبرياء، ورحتُ أعصي رغبة عيني في المراقبة، غير أني كنتُ أسرب إلى وجه غالية نظرات حذرة، تراقبها بشك وفضول، واكتشفتُ آنذاك، لأول مرة، أن في وجه غالية نقطة سوداء صغيرة، وأن شعرها ناعم مثل دعايات الشامبو، وأنّ في يدها خاتماً مثل أمي، وملاحظات أخرى صغيرة على أفعالها تمنحها كل سيماء الكبار.

وعندما صارت غالية قاب سرير مني، وهي زوجتي، كانت حبة الخال تلك تبدو وكأنها لم تولد معها، بل نزلت إليها من السماء، ولهذا كنتُ أقبلها قبلات مؤمنة، وأشعر أني امتلكتُ أثمن نقطة يمكن أن يمتلكها رجل ما، في الرياض! وصار شعرها الأسود الطويل فاتناً جداً عندما تسدله مثل ليل الدهر، وتخبئ وراءه نهديها الحرّين،

وتتركني أكشفه عنهما على مهل، خصلة خصلة، حتى أنتهي إليهما، وأتحكم بنفسي في الشمس والقمر.

هذه الطفلة التي كانت تلعب أمامي على الكثيب، ولا تشاركني في اللعب، كبرت، وشاركتني في السرير، وصارت تضبط حرارة جسدي جيداً قبل أن تنام عليه، وتعرف كيف تجعلني أكبر حتى أحضنها، وأنكمش بعد ذلك حتى تحضنني. وصارت تفسر لي لغة الماء المسافر بين جسدينا كل مرة، وتفك النبضة، والخفقة، والرعشة، والانتفاضة، وتجمع كل شيء، وتنثره بدقة مباغتة، فإذا كل شيء منظم، وواقعي، وفاعل، وجميل.

قلّمت غالية أظفار الفوضى، وحوّلت السرير إلى مدرسة، فبات كل شيء مضبوطاً كساعة، وعلّمتني قاعدة التركيز حتى لا يتحول التصاقنا إلى مجرد ركض صعب. لم يكن لهذه الحالات أن تمر بذهني وأنا أراقب غالية التي تلعب على الكثيب، وأتمنى لو أنها تدعوني للعب معها، و لم أكن أعرف ماذا كانت تؤجل لي.

تبادلنا خلال أسبوعين رسائل مليئة بتفاصيل أكثر عن طفولتنا، وازدحمت الحكايات، وضاقت بنا الرسائل الالكترونية، فأخذت غالية رقمي، واتصلت بي ذات ليلة. وتكلمنا أربع ساعات متواصلة، كلاماً لم أعرف كيف بدأ، ولا أين انتهى.

كنتُ قد تخرجتُ في الجامعة تواً، واحتفل بي أبي أكثر من مرة، وفي كل مناسبة كان يدعو نفراً من المدعوين يختلفون عن الآخرين، وبعد ذلك لا أتذكر أننا تكلمنا قط في ما عليّ أن أفعله، كان مجرد الخوض في حديث عن مستقبلي محظوراً كبيراً يتورّع أبي عنه، حتى

ولو كان رأياً صغيراً يلقيه على عتبة وصايته كأب، خشية أن أتأثر به، فيكون في ذلك تدخلاً غير مباشر منه في خياراتي الشخصية.

لم أختر أن أقوم بأي عمل بعد التخرج. هذا الأمر أزعج أحمد كثيراً، رغم أنه لا يقوم بأي عمل على الإطلاق، ولكنه كان يطالبني بإكمال الدراسة، أو البحث عن وظيفة ممتازة تليق بي، و لم يكن ذلك على الأغلب حرصاً بقدر ما كنتُ أشمّ محاولةً طيبة لإيجاد دور له في منزلنا، وبقدر ما أدرك أن أحمد يحاول أن ينتمي إلينا أكثر مما ينتمي إلى أسرته الأخرى، وأشعر أنه منقسمٌ تماماً بين شخصيتين، إحداهما تلك الجافة الجبلية التي ورثها من أبيه، والأخرى تلك النزّاعة لوعي أكثر ليناً ومرونةً وتشبثاً بمعطيات الرقي الحضاري الذي يترجمه له أبي أنا أحياناً، وأمّنا المشتركة.

كثيراً ما تختلطُ ملامح شخصيتيْ أحمد في أوقات متقاربة، وأبتسم لهذا النزاع القائم في داخله، والذي لا ينتهي، لأنه هو نفسه لم يختر أيهما أصلح له، هذا ما جعل خياراته في الحياة فاشلة غالباً، فلم يحقق شيئاً يذكر، وهذا ما ترثي أمي لحاله عليه، فلم يكن يعمل، و لم يكمل دراسته في الجامعة، وليس عنده مال ولا تجارة، وكان يقيم في منزل أبيه الكبير، ونشاطه الاجتماعي تغلب عليه السطحية غالباً، لولا أنه يحاول هو أن يلقي عليه ظلالاً من العمق، والتميز.

قالت أمي: "أبوه السبب. معاملته سيئة معه من صغره، وهذي النتيجة..."، والنتيجة التي تقصدها أمي هي الطبيعة العصبية التي تميل إليها شخصيته، كان يثور أحياناً لأتفه الأسباب، وإذا فعل،

فقد لسانه طلاقته، وصار يتأتئ في الكلام، ويضغط على الحروف لتخرج، فلا تخرج، فيزداد انفعالاً لتمرد لسانه عليه، فيستغني عن كلمة ليأتي بكلمة أكثر طواعية، فتصبح الجملة غريبة أحياناً، ولكنا تعودنا طريقته هذه في الكلام.

تقول أمي إنه كان يتأتئ في طفولته بشكل بسيط جداً، وإنه أمر سائد لدى الأطفال، لولا أن أباه ساهم في تفاقم هذه الحالة عنده، وأنا غير متأكد تماماً من مسؤولية والده عن هذا، ولكني تعودتُ أن أسمع من أمي دائماً عيوب زوجها الأول، وكيف أن حياتها معه كانت لا تطاق، وتسعى لتثبت أن قرارها بالانفصال عنه والزواج من أبي بعد ذلك، كان صحيحاً جداً.

تخلصتُ من إلحاح أحمد عليّ بلطف، وصرفته عن محاولة مشاركتي في صنع قراري العملي القادم. كان هناك القليل من الأعمال التي أقوم بها نيابة عن أبي، دون أن يطلبها مني بالطبع، ولكن لتطرد عني هاجس البلادة والتفاهة، وتعبئ قليلاً من فراغ مسؤوليتي نحوه كابن وحيد.

****

جاء صباح غائم قلما تشهده في الرياض. اختارت غالية أن تراني، وعلى حين غرة، من دون أن آخذ منها موثقاً من القلب، ألا تجعلني أغرق في حبها إلى هذا الحد.

كنتُ أقود سيارتي على غير هدى، في عادة من عادات الشتاء.

بمجرد أن تبدأ الرياض ارتداء ثوب الغيم، وتمطر، كنتُ أخرج من بيتي صباحاً، وأستمتع بهذا الطقس وحدي، أسمع موسيقاي الهادئة، وأتكلم مع كوب قهوة فصيح، وأخترق الشوارع المندهشة بالمياه، محاولاً أن أتصالح مع المدينة، في لحظات ضعفها وبكائها تلك.

تلقيتُ اتصال غالية، ليأتيني صوتها الرقيق عبر هاتفي الجوال الموزع على سماعات السيارة وكأنه يحتضنني من الخلف، ويبثُّ دفئاً تدريجاً في السيارة التي يكتسب جلدها برودة الشتاء سريعاً.

– مرحباً

– أهلين غالية

– كأنك في السيارة، صح؟

– نعم.

– إلى أين في هذا الصباح الماطر؟

– ليس إلى مكان، أنا أستمتع بالقيادة تحت المطر، فقط.

– الله!

– وأنتِ؟

– بعد الفجر لم أنم، جلستُ أكتب تحت وقع المطر.

– كم هي أيامك مرتبة!

– وهل يومك مبعثر؟

– جداً، صوتكِ وحده يبعثر كل شيء.

ضحكت غالية، ووشوشتني بعبارة شكر قصيرة، ثم صمتت بضع ثوان، فتوقعتُ أنها تبحث عن موضوع للكلام فالتزمتُ الصمت بدوري، حتى تكلمت أخيراً، بعد تنحنح مفتعل:

–.بما أن صوتي هو الذي يبعثرك، فما رأيك أن أعيد ترتيب يومك؟

– كيف؟

– تعال خذني، أبغى أطلع أشوف المطر.

– وأهلك؟

– أمي نائمة، وأنا أخرج في أي وقت مع صديقاتي، لا تقلق.

هكذا أقود سيارتي من دون هدف لأتعرض فجأة لحادث جميل كهذا! تفتحت في داخلي مسامّ جديدة للعرق، ورحتُ أتأمل سيارتي إن كان ينقصها شيء لمثل هذا اللقاء. كل شيء كان هادئاً، وكأنه ينتظر عاصفة كدخول غالية. كوب القهوة الذي في يدي كان يجعلني أكثر انتباهاً، وأصابعي أكثر قلقاً.

وقفتُ أمام ذلك الباب لأول مرة، وتعاقبت بعدها عشرات المرات المتفاوتة الحال بين الجذل والجزع. ولهذا أبدو مألوفاً جداً لهذا الباب الحكيم مثلما صار مألوفاً لي في ما بعد. نقرتُ على هاتف غالية بنغمة واحدة، ثم تأملتُ الباب وهو ينفرج تدريجاً وكأنها كانت تنتظرني وراءه، فأطرقتُ من دون سبب.

كانت سماويّة اللون، تلك التنورة. شيء ما كانت تحاول غالية أن تعيد بعثه في المشهد، مثل لون السماء الذي أخفته الغيوم المتراكمة بلونها الرمادي الثقيل، أو حاجتي إلى مساحة أوسع أستطيع فيها ترتيب نفسي، بدلاً من ضيق السيارة الذي يجعل غالية بهذا القرب، على بعد لمسة واحدة من كفي.

شعرتُ برعشة وأنا ألمح تنورتها أول ما لمحت منها، وهي تدلف إلى سيارتي مثل شرفة مزدحمة بالنوارس الصغيرة، وأنا أشعر أن

أصدافاً كثيرة تنحشر في حلقي، وتمنعني من الكلام. رددتُ تحيتها الأولى بصوت مهزوم جداً، ثم تركتُ المطر وحده يحرك سيارتي مثل قارب، بينما عقلي، الذي تاه فجأةً، يحسد الزجاج الذي تجلو عنه الماسحات قطرات المطر، بينما تراكم فيه هو ضبابٌ كثيف، وغيوم.

انتبهتُ تدريجاً إلى أن ما يربكني هو أني لا أستقبل غالية كما تتوقعها حواسي، حتى الآن أنا أتأمل تنورتها السماوية الضيقة، ثم إصبعها وهي تجوس برفق فوق أزرار المسجلة، لترفع صوت الأغنية قليلاً بما يناسب مزاجها المطري هذا اليوم، ويكمل طقوس دخولها حياتي، بمؤثّرات صوتية لائقة، ولم أر وجهها بعد، ولهذا حرتُ كثيراً في استقبال أنوثة جزئية، تدريجية، تنورة، فإصبع، فيد ملونة صافحتني بخجل. حتى ساقها العاجية ظهرت بضع ثوان أثناء الركوب، مثل أنبوب من الضوء، قبل أن تتوارى فوراً.

بعد عبارات قليلة، حول سيارتي، والمطر، وظروف خروجها من البيت، وأشياء أخرى أستطيع تذكرها كلمة كلمة، قالت بدلال خجول وهي تتأمل كوب قهوتي الذي يتدلى من ماسكة الأكواب:

- أبي قهوة مثلك!

وضحكَتْ ضحكة قصيرة.

تمنيتُ لو أن البرازيل أقرب قليلاً!

غطيتُ بالإيجاب رغبةً داخليةً في أن أتحول إلى كيس بن. رغم أن رائحة الكافيين بدأت تفوح من جسمي فعلاً، وأصبحتُ مأخوذاً

بالطريقة التي تطلبُ مني غالية طلباً صغيراً كهذا، وأشعر أن تلبيته تأخذ شكلاً مصيرياً جداً.

اتجهتُ نحو شارع التحلية، ووقفنا عند تلك المقاهي التي يتناثر العاملون فيها على الرصيف، وطلبتُ لها قهوتها، وطلبتُ أنا كوباً آخر، وابتعد النادل ليحضر الطلب، وهو يهرول هارباً من بلل المطر، والتفتت غالية نحوي، ونظرت إليّ قليلاً، ثم همست:

– كأنك الطفل القديم نفسه، لم تتغير.

كانت غالية تغطي وجهها بغطاء خفيف، فلم أنظر إليها، تركتها تتأمل جانب وجهي وأنا أحاول إلقاء نظرة لا مبالية على الزجاج الأمامي. لا أدري ما العبارة المناسبة التي أرد بها على شخص يخبرني أني لم أتغير منذ صغري؟ إنها لا تحمل إطراء، ولا انتقاداً، مجرد عبارة محايدة، تصطاد بها غالية تعابير وجهي، وارتباكاتي، حتى تتولى زمام الكلام، كما تعودت في طفولتها أن تتولى زمام اللعب.

ابتسمتُ، وبقيتُ صامتاً، محاولاً أن أجعل مهمتها أصعب، فعادت هي تتكلم:

– هل تتذكر ملامحي؟

– نعم، أتذكر حبة الخال في خدك، كلاسيكية جداً!

ضحكت غالية ضحكتها المميزة تلك، وكان المطر يهادن، والشارع خالياً من المارة في هذا الصباح الرمادي، رأيتُ يدها ترتفع نحو خمارها الرقيق ذاك، عرفتُ أنها ستكشف عن وجهها لأراها، فافتعلتُ انشغالاً بسيطاً بهاتفي الجوال، ثم علقت عيناي بتنورتها

السماوية، بعد أن قررت أن أبدأ من هناك، وأصعد بعيني تدريجاً إلى وجهها الذي انكشف، وفاح عطر طفيف من الخمار الذي تحرك.

شيءٌ ما في داخلي كان يتمنى ألا أجد غالية جميلة كما كانت، كنتُ أرجو لو ظلت بها لمحة من ضباب الماضي. أريدها أن تبحر في دمي بعقلانية، ولا أريد لأسطورة مفاجئة أن تقلب هدوئي.

إنني عازمٌ أن أجرب معها الحب، مكالماتنا كانت تثير فيّ النشوة لتجريب نمط جديد من علاقتي بالمرأة، وصلة القرابة تجعل الأمر أكثر جاذبية بالنسبة لي. ولكن لو كانت جميلةً جداً لغدا حبي مضطرباً. لا أحب أن أقدم الكثير من التنازلات. بعض الجمال عندما يُفرط، يتحول إلى خرافة.

علَت طرقات عجلى على زجاج النافذة، كان النادل يقف هناك، وبيده كوبا القهوة الورقيان، ويحاول جاهداً أن يمنع المطر من بلوغهما. لمحتُ وجه غالية لوهلة قصيرة، قبل أن ألتفت نحو النادل، وفي داخلي صريرٌ متذمر لرغبة لم تكتمل.

****

لا شيء يجعلني أتذكر التفاصيل العابرة إلا لعنة التذكر نفسها. كل الحالات المتعلقة بحبّي لغالية أصبحت عميقة الأثر، وصعبة الانتزاع، كأنها جذع صبّار ثقيل، طوّحت به الأيام عن بعد، فالتصق بظهري، وبقيتُ أحمل هذه الأشواك معي حتى أمد بعيد، تؤلمني كلما استلقيتُ على النسيان لأرتاح.

لهذا ما زلت منذ رحلت غالية واقفاً رغم العديد من الجراحات الصغيرة التي أجراها وزّان لينتزع هذه الأشواك السيئة. في الحقيقة أنه لم ينتزعها بقدر ما راح يقنعني بأن وجودها معلقة بظهري شأنٌ قابلٌ للاعتياد، وقد آلف بينها وبين لحمي حتى تحولتُ تدريجاً في عيادته وصداقته إلى عاشق سيامي، تلتصق أقداره بظهره، ويتجاهل وجودها تماماً!

رغم أنها لم تكن أول امرأةٍ تغشاني، ولا كانت هي آخر امرأة أغشاها، ولكن أن تقترب مني جداً، حتى أرسم بحضورها أطول خطة في حياتي، ثم تبتعد فجأة، حتى يستحيل عليّ أن أراها وألمسها، كان حدثاً مروعاً بالنسبة لرجل مثلي، أنا الذي ما زلتُ مصاباً بفيروس الندم بعد علاقتي بجورية، ولهذا أقنعتني بعض الشياطين النفسية بأن ما حدث لي مع غالية لم يكن إلا عقاباً من الله على ما أكلته من ثمارها المحرمة. شعرتُ بالفوضى والكآبة، وضاقت الحياة في عيني كثيراً، حتى صار ما بين استيقاظي ونومي، حالة يقظة غير ضرورية أبداً. شعرتُ بأني أمارس في اليوم والليلة العادات نفسها التي يقوم بها أي حيوان ما، و لم أكن أقوم بأي فعل إضافي يشهد على إنسانيتي.

مرّت عليّ أشواطٌ غريبة من الارهاق النفسي، والتلكؤ في العودة إلى الحياة، وإعادة ترتيب شؤوني الواقعية كما يجب. كنتُ كسولاً إلى حد أني لا أريد أن أغسل وجهي من الحزن، ومنغمساً في وحل من العاطفة لا أريد أن أخرج منه. وكان الشعور التصاعدي بالذنب لأني تسببتُ في تعكير صفو أبويّ الذي لم يتعكر منذ سنوات طويلة،

هو ما جعلني أضيق بجدران البيت، وأنزع إلى قضاء أوقات خارجه، كنوع من العلاج الطبيعي لهذا الذنب الأعرج الذي تركته لي غالية بعد انفصالنا.

شعوري بأني آثمٌ وخاطئ كان يجعلني أنفر من البقاء داخل البيت الطاهر الجميل، وأنزع إلى الخارج، مساحة الذنوب الحرة أصلاً، حيث يجدر بي أن أبقى بعض الوقت، محتملاً ضيق أنفاسي، مثلما نتحمل البقاء في غرف الساونا الضيقة.

صرتُ أغيب عن الوجبات، وأتأخر في الاستيقاظ من النوم، ولا أرافق أبي إلى المسجد للصلوات الخمس، ولا أرافقه مبكراً إلى صلاة الجمعة كما تعودنا، بل أذهب وحدي لألحق أي مسجد متأخر أدرك فيه الدقائق الأخيرة من الصلاة المزدحمة وأعود إلى البيت. أصبحتُ أسافر حتى في الإجازات القصيرة كالأعياد إلى مدن قريبة، وكعادة والديّ، لم يعترضا مطلقاً، ولم يلمّحا إلى أي عتب أو لوم. وهذا ما ضاعف شعوري بالسلبية، وعجزي عن الإتيان بما يفرحهما حقاً، ويخبرني أني ولدٌ طيب، وأنهما لم يراهنا طوال حياتهما على نطفة خائبة.

قررتُ أن أخضع لجلسات نفسية.

جاء هذا القرار الآن وقد انتهى عهد غالية كمؤسسة حب كبيرة كنت أعمل فيها، ولا أدري كيف أصف انتهاء علاقتنا تحديداً، لم يكن انكساراً، أو هجراناً، أو إجباراً. كان شيئاً لا تنتهي به قصص الحب عادة، أشبه بإفاقة مليئة بالكدر من حلم ضبابي عميق، اختلّ فيه الزمن كثيراً، وتحولت غالية إلى ما يشبه أفقًا من الشمع، يذوبُ،

وتتجمع قطراته تحته لتعيد بناءه من جديد بشكل مختلف، فتتكرر في ذاكرتي بأنماط متجددة لا تنتهي.

كنتُ في الطائرة عائداً من بيروت عندما تحسن حظي لأول مرة منذ وقت طويل، اخترتُ الجريدة غير المعتادة، وقرأتُ الصفحة غير المعتادة أيضاً، ولكني وصلتُ إلى برّ آمن. كنتُ دائماً أتجاوز الصفحة الطبية من أي جريدة بشكل تلقائي، هذه المرة قرأتها بعيني مريض. كانت الجريدة تنشر تحقيقاً موسعاً عن الطب النفسي في العالم العربي، بين القبول والرفض. قرأته كاملاً، وشعرتُ أني أستطيع أن أجرّب.

بعد يومين من وصولي إلى الرياض، بحثت في الانترنت بشكل عشوائي عن عيادات نفسية في الرياض، ووقعت في بحثي على عيادة وزّان، بموقعها الأنيق في قلب الرياض، وما زال نجم حظي في السماء، إلا أن الأمر برمته كان يبدو لي مثل تجربة عابثة، ومحاولة لا تضرّ، ولم يكن عندي ما أخسره. اتصلتُ بهم، وحجزتُ أقرب موعد ممكن قبل أن تتبخر الفكرة، وبعد أيام قليلة، كنتُ هناك، مع وزّان في مكتبه الزجاجي ذاك.

ولأننا عندما نقرر أن نحضر السبّاك أخيراً، نحشد له كل ما هو معطل، وما نتوقع أن يتعطل في المستقبل القريب، مستغلين وجوده الذي لن يتكرر قريباً، حشدتُ لوزّان أشياء كانت تضايقني منذ طفولتي، وقررتُ أن أطلب منه معالجتها تدريجاً. رتبتُ في ذهني عدة شكاوى وقررتُ أن أضعها أمامه، وكأني أختبر قدرته على لفت انتباهي، وسعيتُ إليه في مزيج من اللامبالاة والاهتمام

العادي، يشبه ما نفعله عندما نشتري تذكرة سينما، ونتجه لمشاهدة الفيلم.

ومنذ طرقاتي الأولى على باب عيادته، كان الفضح هو العنوان العريض لجلوسنا معاً في تلك العيادة المعلّقة مثل كرة فضية في سقف الرياض، لتطل، ويا للسخرية، على مكان غير بعيد من بيت غالية، حيث ألقتني النافذة التي علّقتُ بصري بها في غرفة الانتظار، ورحتُ أقصُّ بعينيّ طريقاً عصبياً كان يأخذني إليها في ليالٍ قديمة.

هكذا كان يجب أن أُعالج من حبّها في عيادة طبيب تطلّ على بيتها، ولا أنتبه لهذه المناكفة إلا بعد أن صعدت إلى العيادة فعلاً، وتأملتُ المدينة من النافذة. لا يبدو الانكفاء الآن، والعودة إلى سيارتي فعلاً رزيناً، وعليّ أن أتحمل فكرة أني منحتُ الحياة، طوعاً، فرصة سخرية!

كان وزّان وعيادته ضرورتين مبهمتين بالنسبة لعاشق يابسٍ مثلي، صحيحٌ أني ما زلتُ عملياً كما أتذكر نفسي قبل الحب، وما زلتُ أظنُّ أن عندي فرصاً جيدة للسعادة، ولكني كنتُ أحتاج إلى دافع خارجي، فكرة تتكون خارج رأسي حتى أستطيع أن أتذوق إثارتها، وأمتطيها نحو أيام مختلفة. كل ما حاولت فعله بنفسي لا يبدو كافياً، ولا يبدو أن نفسيّتي تتجاوب مع أفكاري أنا بالذات، وكأني فقدت الثقة بها، ووسمتها بالاضطراب والتسرع.

الكثير من القراءة، والسفر، والفراغ، قطّر في عيني تفاؤلاً مغبشاً، ولكني ما زلتُ غير قادر على الرؤية بوضوح، واستيعاب

حجم ما مررتُ به. كنتُ أحتاج إلى هذا العنصر المختلف الذي يشرح لي الحالة، ويرى الأشياء بحجمها الطبيعي.

ورغم أن الفكرة بدت لي موغلة في دراميتها، أن ألجأ إلى طبيب نفسيّ، وكأني أمارسُ حالة حب تقليدية على طريقة الأفلام الغربية، فقد فضّلتُ أن أطرق جميع الأبواب الممكنة لحل ما، وفكرتُ أن الأمر قد يكون مختلفاً عما أتصوره، وإذا لم تنجح، فلتكن نكتة سوداء أضيفها إلى قصتي البطيئة، وأضحك وحدي.

هكذا قررتُ أن أكون هنا، وألتقي وزّان، وقرر هو في ما بعد أن يصبح صديقي، وما بين القرارين، كانت حياتي بأكملها معرضة للفضح، ووزّان يفرغ جيوبي من كل الأدوات التي يمكن أن أحاول بها الكتمان، أو الانتحار صمتاً. والحقيقة أنه غيّر الكثير من خارطة تصوراتي عن الجلسات النفسية، وأريكة الثرثرة، والساقين الممتدتين، والضجعة المهينة تلك.

عندما اقتربت من وسط مكتبه، وجلستُ على ذلك المقعد الجلدي الأنيق، الكلاسيكي الطابع. بدوتُ متململاً منذ الدقيقة الأولى، وفي انتظار أن يرميني بأسئلته المتوقعة: مم تشكو؟ وماذا حدث؟ وبقية الأسئلة التي تنحتني مثل أزاميل روتينية، مهيأة، ومعتادة ممارسة النوع نفسه من التقصي مع كل مريض. ولكن، على خلاف ذلك السؤال الذي توقعته، ومللته قبل أن أسمعه، سألني وزّان عن نوع القهوة التي أفضّل، وحالما أخبرته، فوجئت به يتجه نحو ركن صغير من مكتبه، مجهز بكل أدوات تحضير القهوة، ثم راح ينشغل بصنعها بنفسه، داخل مكتبه، منتزعاً من داخلي، بكل استحقاق، اعترافاً صغيراً

بالطمأنينة. وشعرتُ بانعكاس هذا التصرف على راحتي وهدوئي وشعوري بالألفة. أو لنقل، نجاتي من محاولة تأطير ذات طابع معين، يمارسها وزّان مع جميع المرضى.

كان الوقتُ صباحاً، ونافذة مكتبه الغربية لا ينفذ منها الكثير من الضوء، تأملتُ كل زوايا المكتب لعلّي أجد شيئاً يدلّ على أنها عيادة طبيب نفسي، أو أن هذا الشاب يحاول أن يبدو مختلفاً. لم أكن متحمساً للدخول في أي تحدٍّ محتمل مع نزعته للاختلاف. كنتُ محتاجاً إليه، إلى أي فكرة يمكن أن يلقيها في طريقي لأشعر بأني رجلٌ أفضل حالاً مما أنا عليه، وأحتاج إلى شعاع صاف من النسيان يكنس كل الزجاج المكسور في داخلي، والذي يلتمع، ويعكس أضواء مزعجة كلما مررتُ بذكرى شديدة التشبث بأشيائها.

كأن الرياض، عندما بدأتُ الحب، كانت صفحة من الطين اللازب، وأنا وقّعتُ فوقه بكل بصماتي، وأخطائي، وأسمائي، ورغباتي، وحاجاتي العاطفية، ثم جاءت الشمس لتجفّف هذا الطين الكثير، وتحفظ آثاري فوقه إلى الأبد، وتحيل الرياض برمتها، إلى منحوتة هائلة، تشهدُ ضدي على كل ما فعلته، وتذكرني به، في الشوارع، والأزقة، والفنادق، والمطاعم، والسيارات.

مطرقة ضخمة من التذكر القاسي. هذا ما كنتُ أعانيه، وهذا ما أردتُ أن يركز وزّان عليه. كنتُ أريده باختصار أن يعطّل قدرتي على تذكر التفاصيل الطنّانة التي تمزق يومي، وتجعلني أشرب حبر الكآبة بشهوة مريضة، حتى يلوث فمي وكلماتي. فما دمتُ مضطراً للبقاء في الرياض، وما شاءت لي روحي التي توحّدت كثيراً، فلا بد

من العلاج إذن، ولا يمكن أن أستسلم لهذا الحب الشبحيّ المتوحش إلى الأبد.

ما زال وزّان يعدّ القهوة باهتمام شديد، بينما استمرت عيناي في مسح المكان بهدوء. لاحظتُ خلطاً ديكورياً واضحاً بين الطرازين الإنجليزي والأميركي. لم أجد ذلك الكرسيّ الشهير الذي يمدُّ عليه المرضى أقدامهم ويرحلون في الكلام. كان هناك مقعدان جلديان أنيقان، أجلسُ على أحدهما، والآخر يقابله بزاوية مريحة، وبينهما طاولة صغيرة، ينتصب فوقها تمثالٌ من البرونز بلا رأس.

"لماذا التمثال بلا رأس؟"، سألتُ وزّان سؤالاً عابثاً، وهو يجتهد في تجهيز كوب القهوة. صمت قليلاً وهو غائبٌ في ذلك الركن، حتى تخيلت أنه لم يسمعني، فبقيتُ أراقبه لعلّ رداً يأتي من هناك، ولكنه عاد بنفسه، حاملاً كوبين يتصاعد منهما البخار والرائحة النفاذة لقهوة لاشك أنها جيدة كما أخبرني أنفي، وجلس على المقعد المقابل، ومدّ لي أكياس السكر الصغيرة، وملعقة، ثم قال "لا أستطيع حقيقة أن أجيبك، الوقت مبكرٌ جداً على أن أقدّم لك الإجابة التي تناسب مزاجك!"

- هل يزعجك فضولي إذا سألتك أن تمنحني كل الإجابات الممكنة؟

- مطلقاً

ابتسمتُ بهدوء، وأنا أقول له:

- أو ربما تعتبر هذا كشفاً مبكراً لأوراقك؟

- مطلقاً مطلقاً، الحقيقة أني لم أفكر في هذه الأوراق بعد!

- فكّر الآن، سأنتظر.

أطلق وزّان ابتسامة مرحة، ثم أطرق قليلاً، ودعك جبينه مفتعلاً التفكير قبل أن يجيب:

- حسناً، أستطيع أن أجيبك على اعتبار أنك مريض محبط (لأنه لا يحتاج إلى رأس في عالم مسيّر كهذا)، ربما إجابة أخرى على اعتبار أنك مريض عصبي (لأنه فقد رأسه في إحدى نزوات الفنان الذي صنعه).

- هل هذه إجابات كانت جاهزة من قبل؟

- أبداً، أبداً.

ثم أردف بعد قليل:

- لا يمكن أن تكون إجابات جاهزة لسبب بسيط، لأنه ما من أحد قبلك أبدى اهتماماً برأس تمثال صغير من البرونز!

- جميل.

- ما هو الجميل؟ اهتمامك بالنحت؟

- لا، أنا لا أتباهى باهتماماتي. سجّل هذا في ملاحظاتك.

- ما الجميل إذن؟

فكرتُ وقتذاك أن وزّان، الطبيب النفسي، لا يترك الإجابات العابرة في وسط الكلام من دون أن يلاحقها، ويتحقق من هويتها، وهو يصر على معرفة ما رأيته جميلاً بالتحديد، رغم أنها قد لا تكون أكثر من كلمة مجاملة صغيرة، ولكنه استغلها ليعكس تيار الأسئلة باتجاهي.

أجبته بارتياح:

– الجميل أن أجدك شخصاً تملك إجابات متعددة.

– اسمح لي أن أسألك الآن، كجزء من الجلسة، أي الإجابات تروقك؟

– بصراحة، كل إجابة على حدة لم تكن لتروقني، ولكن عندما سمعتها مجتمعة، ومتتابعة، شعرتُ بجمالية معينة.

أطلق وزّان ابتسامةً أخرى، وبدا كأنه سيقطع الحوار حول التمثال، وهذا ما حدث:

– ماذا عن قهوتك، كيف تجدها؟

– ممتازة، شكراً لأنك صنعتها بنفسك.

– العفو، عندي في العيادة عامل يحضر القهوة، ولكني تعلمتُ هذا التصرف من أحد أساتذتي الأميركيين.

أومأتُ برأسي ملوّحاً بابتسامة، ثم سألني وزان:

– بالمناسبة، إلى أين تسافر غالباً؟

– بيروت.

– ماذا تفعل هناك؟

– أستجم، أسترخي. قضيت جزءاً من طفولتي في بيروت قبل الحرب.

– وكيف قضيت وقتك هذه المرة؟

– هذه المرة كنتُ حزيناً، فلم أستمتع بالمدينة التي ولدت فيها، كما تعودت.

– وماذا تفعل إذا كنت حزيناً في بيروت؟

صمتُّ قليلاً لأفكر في سؤاله، ثم أجبت:

– أعتقد أني هذه المرة اخترعتُ أحزاناً جديدة.

– غريب تعبيرك. كيف عرفت أنك اخترعت أحزاناً جديدة؟

– قبل أن أذهب إلى هناك، تعرضت لحادث عاطفي كبير، وحزنت. وهذه المرة في بيروت، شعرتُ بأني أكثر حزناً مما أتذكره عند الصدمة.

– ماذا كانت الصدمة؟ باختصار طبعاً، لأننا سنعود إليها لاحقاً بالتفصيل.

– انفصلت عن زوجتي، بعد أسبوع من الزواج.

V

عندما وصلتُ هذه الليلة إلى مزرعة وزان وأيمن في الدرعية، فتح باب سيارتي الخادمُ اللطيف، صوّام، وابتسم لي وهزّ رأسه كثيراً، وافتعل حفاوة ساذجة وكأنه لا يراني هنا في كل يوم من أيام الأسبوع تقريباً، وفي التوقيت نفسه.

كنتُ قد وصلت قبلهما كالعادة، فطلبتُ منه أن يحضر لي كمبيوتري المتنقل من حقيبة السيارة. هرع مصطنعاً ركضاً خفيفاً ليس أسرع من المشي العادي بأي حال، ولكن بقدر ما تتيحه له عظام حوضه المهترئة، وعاد وهو يحمله بحرص، ثم وضعه أمامي، وأعاد إلي مفتاح السيارة، وراح يتكلم باهتمام مفتعل.

– أنا أحب القراءة يا أستاذ حسان، درست حتى الإعدادية. الظروف لم تساعدني، ولكنّ عندي كتباً في مصر.

– أي كتب يا صوّام؟

بدا سؤالي مفاجئاً له، ولكنه أجاب من دون أن يتلعثم:

– ناس كثير، الله يرحمهم.

– العقّاد مثلاً؟ طه حسين؟

– أيوه العقاد، وطه الحسين، والشعراوي.

– جميل، وماذا تقرأ هنا؟

وجلس في جواري جلسة متواضعة، وكأنما أراد أن يغتنم الوقت النادر الذي أصل فيه قبل وصول رؤسائه وأوامرهم ليمضي في مشروع توثيق علاقته بي.

– هنا الشغل كتير يا أستاذ حسان، وأنا تعبان زي ما انت عارف.

– الله يعينك يا صوّام.

– الكتب التي رأيتها في سيارتك كثيرة، أنت مثقف، ما شاء الله عليك يا أستاذ حسان. تقرأ في كل شيء.

– أي كتب يا صوام، كلها كتاب واحد.

– لا والله كتب كثيرة يابيه!

– أقصد يا صوام أن كلها نسخ متعددة من كتاب واحد.

– وليه؟

– لأنه كتابي يا صوّام، أنا الذي كتبته.

عاد برأسه فجأة إلى الوراء، واتسعت عيناه بدهشة وإعجاب كبيرين، وقال:

– يا ماشاء الله، تبارك الله. أنت والله حاجه كبيرة يا أستاذ حسان!

وبدأ صوّام يتكلم كما في الأفلام. ابتسمتُ وأنا أقوم بتشغيل الكمبيوتر، وانتظار إشارة الشبكة، وبدأت فعلياً في مطالعة بريدي الالكتروني، أنقل بصري إليه بين وهلة وأخرى، وأومئ له علامة

الإصغاء، لعله ينهي الحوار الذي يمكنني ببساطة أن أتنبأ بكل جمله وردوده، ولكنه بدا متمسكاً بهذا الحوار المفتعل، وأنا غير قادر على مقاومة الابتسام المستمر.

سألني صوّام باهتمام:

– وبتكتب ايه يا أستاذ حسان؟

– كتبتُ رواية.

– ما شاء الله، زي نجيب محفوظ يعني؟

ابتسمتُ لعملية التصنيف البسيطة الناجحة التي قام بها، وأجبتُه فوراً:

– بالضبط يا صوّام، زي نجيب محفوظ.

– ما شاء الله! ما شاء الله!

– لكن نجيب محفوظ أفضل بكثير طبعاً يا صوّام.

– لكن أنت فيك البركة برضه يا أستاذ حسان.

– شكراً لك.

– ممكن حضرتك بعد إذنك طلب بسيط، أستعير نسخة منها، أقرأها، وأرجعها.

– طبعًا يا صوّام طبعاً، خذ النسخة لك، لا داعي لأن تعيدها.

ناولته المفتاح، فهرع إلى السيارة مرة أخرى، وراقبته بهدوء، وهو يقطع الممر المرصوف بحجر يتخلله العشب، ويتجه مباشرة نحو سيارتي التي لا أدري لماذا طرأ لي وقتذاك وأنا أتأملها من الخلف، أنها تقدّمت في السنّ، وأني أستحق سيارة جديدة؟

هذا المجلس يجعلني دائماً أفكر في تغييرات كثيرة، ها هي

سيارتي وقعت أخيراً ضحية لهذا التحريض الذي يثيره المكان، وقبله قائمة من الحالات، والعادات، وأشياء أخرى. حتى أظفاري يطرأ لي أحياناً أنها تحتاج إلى تقصير وأنا أقبع في ركني المعتاد، لأدخل جدلاً معتاداً مع أيمن حول تقليم الأظفار أمام الآخرين، وإذا ما كان فعلاً مقبولاً، وهو لا يراه كذلك، ووزّان لا يبالي، وأنا لا يعنيني كثيراً تذمر أيمن المفتعل، ما دمتُ أجمع عورة أظفاري في منديل صغير في نهاية المطاف، لأني أعلم أني لو تركتُ لأيمن مهمة توجيهي ذوقياً، لانتهيتُ بسلسلة طويلة من العادات الذوقية الصغيرة غير المجدية، والحياة لا تكافئ كثيراً هذا اللطف الزائد.

يحدث القليل من المختلف في هذا المجلس الثلاثي الذي يفيض فيه الكلام، ويُقضى فيه نسبياً على أوقات مؤذية من أوقات الرياض، لا يمكن تفاديها إلا في مكان يشبه هذا. آمنتُ منذ سنوات بأن المدينة إذا تحالفت مع الصحراء، فلن يدفع ضريبة هذا الحلف المريب إلا ساكنوها الذين تخدشهم الريح الجافة منذ الأزل، ولهذا فإن مجلس المزرعة لم يكن ذريعة لتزجية الوقت، بقدر ما كان محاولة لتجنب الخدوش غير الضرورية في الخارج.

والرياض التي تتمتع بقدر لا بأس به من حذق الصحراء وخبث المدن، تحتاج إلى حذق مثله حتى نتكافأ معها في جدل الحياة اليومي، وسكنى المدينة الصعبة. فالحياة فيها تشبه حالة شطرنج نفسية مستمرة بشكل يومي، لمقارعة ضجيج المدينة، وتحمّل ما تفرزه من نفايات الكدر، والضيق، ككل المدن الكبيرة التي تنشأ عشوائياً في وسط الصحراء.

وبقدر ما هو آمنٌ ليلُ هذا المجلس الذي أحبه، بقدر ما هو النهار فيه شاحبٌ ولا يعجبني. صحيح أن للدرعية لكنة مختلفة في لغة النهار، تميز بها نفسها عن نهار جارتها الكبيرة، كما هي مهمة كل الضواحي الطيبة، إلا أنها تظل على قدر من الشظف غير طفيف، ولا تستطيع التخلص منه مهما علا نخيلها، وهو ما أشعر به أنا أكثر من غيري.

في الصباح تمتنع النخلات عن الكلام، وأشعر بصمتها المتعمد، وكأنها حالة خاصة من اليوغا، تركز فيها جهدها على الاستطالة، لعلها تبصر آفاقاً أبعد. أما بعد الظهيرة، فتتنهد جميعاً بعد أن تفرغ من طقوسها الصوفية المرهقة، وذلك هو أسوأ أوقاتي فيها على الإطلاق، عندما تتنهد مئات النخلات دفعة واحدة، في وجهي.

ولهذا لم أكن أحبّذ المجيء إلى هنا في أوقات نهارية، إلا إذا اضطرتني ظروف الجسد. عندئذ يكون هذا اضطراراً عصبياً له مبرراته التي تجعلني أتجاهل تعاسته، فتأتيني هذه التعاسة تدريجاً، من دون حسبان. وعندما أستأذن وزّان أو أيمن لمقابلة امرأة حرمتني لقاءها عيون المدينة وآذانها، أجدهما غير مباليين باستئذاني، ولهذا صرتُ أحياناً أتجه إلى المزرعة مباشرة، بصحبة أي امرأة ممكنة، دون أن أستأذنهما، رغم أني ملدوغٌ من النساء مرتين، كأسوأ المؤمنين، إلا أني أؤمن أن لابد من حضور امرأة ما دائماً، تمنحني وهماً ضرورياً بوفرة النساء، وسخافة البكاء على إحداهن.

ربما كان السبب في تعاسة المكان نهاراً هو أنه ظلّ شاهداً على محاولاتي الدائبة لكسر الطوق، وإعادة توجيه المرأة في حياتي في

بؤرة جسدية مرة أخرى، بعد أن أنشَبَت جورية وغالية أظفارهما في البقعة الطرية من روحي، وخدّشتاها حتى اختلفت الملامح تقريباً. ورغم أنهما طيبتان، فقد كدتُ أموت فعلاً لو لم أتصرف بوحي هذه الفلسفة.

مجمل معادلاتي مع المرأة انتهت بي إلى أربع نتائج محدودة: إما أن أستمر في الانحباس تحت قعر ذنوبي مع جورية، أو أن أذوب تدريجاً من البكاء على رحيل غالية الذي فتّت قلبي بعد أن تزوجنا فعلاً، أو أن أعشق امرأة جديدة بحثاً عن أمل منافق آخر، أو، وهو الخيار الأخير، أن أحرّم الحب على قلبي، تاركاً لجسدي أن يعبث حسب ظروفه وحظوظه.

ولأنها كانت معادلات لعينة أصلاً، لم يكن من الممكن أن تفرز نتائج أكثر بركة من هذه. ليس بيدي حيلة على أي حال، ولا أظن أن أحداً يستطيع تفصيل تجاربه في الحياة كما يشتهيها حتى تنتهي به إلى نتائج يتفق عليها القلب والجسد، ويباركها الضمير، ويوافق عليها الناس، ولا أستطيع أن أختار لنفسي حالات من الحب تجعلني أنتهي نقياً وواضحاً مثل أحلام الضوء.

لستُ أدري أية حالة ستجعلني أبدو نبيلاً جميلاً في عيونهن. لا أظن أن أي الحالات ستخولني ذلك. أيّاً يكن، يبدو أن ورقة النبل احترقت فعلاً، ولا جدوى من محاولة إحيائها، ومن الحماقة أن أحترق وراءها، ولا خيار أمامي في مدينة محدودة الخيارات كهذه، إلا ما أفعله الآن، دون أن أنقلب على نفسي انقلاباً لا أستطيع توقع نتائجه. وعليّ أن أتحمّل قليلاً من تعاسة اختيار أوقات غير لائقة

للجنس في مزرعة شمالية، ونهاراً.

النبل دائماً حالة قابلة لإعادة الممارسة، مثل بقية الأخلاق، ولهذا أنا مرنٌ جداً في خلعه ولبسه مرة أخرى كما تقتضي الحاجة، ما دمتُ قد اقتنعتُ أخيراً بأن الألم الذي أشعر به وحدي، سأظل أشعر به وحدي، ولن يشاركني فيه جمهورٌ من المتعاطفين كما يحدث مع أبطال الأفلام السينمائية. فلا أحد في الدنيا يراقبني عبر شاشة كبيرة تجعل الأشياء جميلة مثل شاشات السينما، وتنقل ما يحدث في الركن الحزين، والوحدة الناهشة. ولا تأتي الأحداث مدروسة سلفاً كما يفعلون. إنني أتصرف في المجهول، وأمارس حياتي في عدم لا يشعر به أحدٌ سواي، فما جدوى النبل هنا إذا كنتُ أنا المشاهِد، وأنا المشهد؟

لا توجد رائحةٌ تفوح من الجبين تخبر النساء أني نبيل، وأستحق الوصال، ولهذا لا يعنيني الأمر منذ سنوات. لا يوجد فرقٌ بين امرأة تأتي من أجل النبل، وامرأة تأتي لغيره، ما دامت تمارس معي الشؤون الجسدية نفسها في النهاية، بل إن الأخيرة تستطيع أن تكلم جسدي بشكل أفصح، من دون أن تتلعثم بأخلاقها المفترضة.

عرفتُ تدريجاً أن الجسد حالة فيزيائية، بينما الأخلاق حالة معنوية. ولهذا، لا يبدو أنّ لأحدهما شأناً بالآخر، ولا يؤدي الخلط بينهما إلا إلى سلسلة من آلام البشر، وتعاستهم الدائرية المتكررة، وما دمتُ لا أؤذي أحداً، ولا أنزل تحت مستوى الحد الأدنى للتعايش السلمي مع الناس، فماذا يزعج الكون عندما أعقد صفقة جسدية صغيرة مع امرأة ما؟ يغمرُ الرضا طرفيها، ونعود منها بجسدين

طيبين، هادئين، وأقدر على الحياد في ممارسة الحياة بعد ذلك؟

هذه المزرعة مكانٌ جيد لفلسفة كهذه، لطوق طهارة مكسور، وللنبل المشكوك في جدواه، لاسيما بعد الظهيرة هنا، عندما تميلُ الشمس بزاوية ملعونة في الغرب، وتقدح أسوأ أشعتها على الإطلاق، وتفوح الأرض بحرارة لافحة. هل هذا وقتٌ للجنس الأنيق؟ بدا لي آنذاك أنه وقتٌ أكثر ما يليق بنكاح القطط، وعربدة الغبار، وبإيماءات النخيل بعضه إلى بعض إيماءات كسلى لا أفهمها. ولكن ليس من خيار، ولا بد من ترتيب الأمور حسب أولويتها، وجدواها، وإمكانيتها.

أعترف، معانداً كل رغباتي في ادعاء غير ذلك، أن جميع النساء اللواتي تعرفتُ إليهن بعد جورية وغالية، وأمعنتُ في الاتصال بهن، لم يكنَّ إلا مقشّات قوية متعاقبة تكنس بقية الركام الذي تركتاه عليّ، ولم تفلح في كنسه أي كتابة عشوائية فعلتُها على ألم، أو أي طبيب نفسي، كوزّان، لجأتُ إليه ذات يأس. وأعترف أيضاً، بأنهن كن غالباً إما خاويات كما يمكن افتراضه في نساء يستجبن بسهولة لأي مؤثر جسدي، أو عابثات، وفي العبث حكمة بالغة أحياناً، أو خارجات من تجربة مريرة كتجربتي، بالنتائج نفسها، وبموازين جديدة للطهارة، والنبل وبقية الرتوش الأخلاقية.

ولا فرق عندي تقريباً، فجميعهن: (الخاويات، والعابثات، والحكيمات، والمجربات)، لهن أجساد متشابهة في النهاية، وهذا ما يعنيني. أولئك النساء اللواتي كن أجساداً محضة، وإغواءات محددة الهدف، كسرن طوقي بالفعل، ونجحن بشكل استثنائي في جعلي

أتوقف عن البكاء أخيراً، وأقف من جديد متزناً على جسد وروح لا يجور أحدهما على الآخر، وتركن المكان نظيفاً لوهلة، أو شبه نظيف.

هكذا يعترف القلب عندما يكون منهكاً إلى حد الأنانية، وهكذا ينتفض الجسد رافعاً قائمة بالحلول الممكنة، الواقعية. لم أكن، كما يبدو من تصرفي، أفكر في أي انتقام. ومن الغباء أن أنتقم من امرأة راحلة بممارسة أمر لن تعلم به، ولن يصلها نبأه، ولم يكن فعل الانتقام ممكناً أصلاً ما دامت غالية قد غادرت، وهي أكثر انكساراً وألماً مني، نحو حياة أقسى، ومصير أصعب، وما دمتُ باقياً على يقيني بصعوبة انسجامي مع الجورية مهما طال غيابها، مما يلغي احتمالات الندم.

كل ما كنتُ أفكر فيه، بلا نيّات أخرى، هو أن أعيد تأهيل عاطفتي لتكون أكثر فعالية، وصلاحية لمدينة كالرياض.

وكالغيم الذي يقطع سماء المزرعة على عجل، قطعاً صغيرة، ومرّات عجلى، جاءت أكثر من امرأة منسية سلفاً إلى هذه المزرعة، وجالستني عدة مرات، وأحياناً كان مقام ظهيرتنا يطول حتى المساء، ويدركنا أيمن أو وزّان. لم أكن أفكر في أبعد من علاقات كهذه، مما جعل أيمن يغمزني ذات يوم بإشارة تشبه العهر الرجالي، "هل يدفعن لك؟"، كان مضحكاً في ذلك الغمز، ومؤلماً أيضاً، فلم تكن هذه حالة أتخيلها لنفسي قط.

ولكن أيمن، في الحقيقة، كان ينتشي بي كصديق وهو يراني مشتتاً هكذا، مما يجعل من المستبعد أن أنزلق في ألم جديد، ويسرّه

أن يطمئن إلى قلبي الأعرج بين الحين والحين، إلا أني كنتُ أدرى منه بنفسي، ولذلك لم أفكر في حب آخر، ولا في زواج مصطنع، ما دامت هناك دائماً امرأةٌ ما، تطعم جسدي إذ يجوع، وتكسو جلدي إذ يعرى.

****

كان الشقيقان يرفعان عنهما وعثاء المدينة في هذه المزرعة، على مقربة من جثة التاريخ النائمة في الدرعية، وقد نَمَتْ فوق قبره ضِياعٌ أنيقة لأغنياء المدينة كأبيهما، ومزارع تتجاور بعضها بعضاً، بينما تطوي كل منها أسرارها الصامتة، وترفها الهادئ، ورائحة النخيل لا تشهد على شيء، وتختزن في داخلها الكلام، والأسماء، واللحظات، وأجزاء الليل، وبزوغ الشمس الساخر، وتزداد طولاً، ويحترق بعضها واقفاً، وتنكسر رؤوسها بلا صوت.

وفي هذا الجزء من المزرعة، ينتصب بناءان أنيقان من الحجر الأحمر، لم يكونا موجودين قبل أن يعود وزّان من أميركا منذ عدة سنوات، ويقرر أن يودّع سُمنته إلى الأبد. كان وزنه يزيد على مائة وعشرين كيلوغراماً، و لم أكن أعرفه آنذاك. أخبرني أنه منذ عودته، أصيب بخيبته المتوقعة في الرياض، كما هم العائدون بعد سنوات من الإقامة في المدن الحيوية، فقرر أن يقضي معظم وقته في مزرعة أبيه المترفة هذه، مختلياً بأوراقه وأبحاثه، وهواياته القليلة، والسباحة التي أعادت إلى جسده الوزن الطبيعي الذي سعى إليه.

كان البناءان الصغيران مسقوفين بصفوف متساوية من القرميد الأكثر دكنة من احمرار الطلاء، والنوافذ الكبيرة قلّصت مساحة الجدران إلى أقل من النصف، ويحويان ثلاث غرف للنوم، ومجلسين صغيرين، وفناءً صغيراً مرتفعاً يطلّ على شرق المزرعة، حيث يتراءى نخيلها البعيد في منتصف الدرعية، واقفاً في صف منتصب، كأنه فريق من محامي التاريخ.

تزوج وزّان قبل سنة ونصف السنة، ولم يوفق. قال لزوجته يوماً على مسمع مني، في مطعم كبير تناولنا فيه غداءنا معاً في الرياض "الأحلام طيور بطريق يا زوجتي العزيزة، تمشي بغباء، ولا يمكن أن تطير البتة، فلا تثقي بمخلوقات كهذه"، وأتذكر أنه أعاد العبارة مرةً أخرى على غير عادته، ومنها شممتُ رائحة حنق لم أعتده منه، وتأففت هيفاء من ذلك بزمة مقصودة من شفتيها المطليتين بعناية فائقة، ولم تكمل النقاش. شعرتُ بأن وجودي معهما كان جزءاً من حنقها، وكان محجلاً لي ولها أن يسدد وزان إليها كلاماً ثقيلاً كهذا في حضوري، فأكملنا طعامنا في صمت.

لم أكن مرتاحاً من الأصل لفكرة أن أجلس مع زوجته، ليست تلك من اجتماعيات المدينة المعتادة، ولكن لا يمضي يوم من دون أن يقربني وزّان منه أكثر، حتى أدخلني في نسغ عائلته. عرّفني بأيمن، ثم أصبح يدعوني مراراً إلى المزرعة حتى تعودتُ ذلك، وها أنا الآن أجلس معه بصحبة زوجته في إحدى الرياض، أشعر بأني محشورٌ بينهما بشكل مزعج. ماذا يفعل رجلٌ واحد بين زوجين في مطعم؟

أظن أنها ظلت تمشي وراء بطارقها حتى سقطت وراءها في

الماء، و لم يحتمل وزّان عقلها المبلول، فانفصلا بعد شهرين من تلك العبارة، لا أكثر، رغم أنه لم يكن زواجاً مرتباً كعامة الناس، بل ختاماً لعلاقة جيدة، ومنفتحة، جمعتهما معاً لأشهر طويلة، منذ أن التقيا في أميركا، حتى عادا معاً إلى الرياض. قال لي وزّان بعد طلاقه بفترة زمنية كافية لأن يخرج من فوضى القرار، ويرتب شؤونه الخلفية تلك في أماكنها المناسبة "واضح أنها تبي الدنيا!"...

– ومن لا يريد الدنيا يا وزّان؟

– صحيح، ولكنها كانت صفيقة!

غمزته مبتسماً.

– تعيش وتاخذ غيرها!

– طبعاً، سأستمر في نظرية (التجربة والخطأ) حتى أحصل على زوجة سليمة!

– أو على الأقل قابلة للتعديل، بما أنك طبيب نفسي.

– لا، صدقني، كل ما درسته في أميركا غير قابل للتطبيق على السعوديات. بل إني صرت أخاف على صحتي النفسية منهن.

وأضحك من ذلك، رغم أني أعرف أن وزّان لا يعني ذلك، وما زالت في قلبه جذوة وطنية خضراء لا أدري ما الذي يغذيها، عكس شقيقه الأصغر الذي أكاد أرى في وجهه تذكرة سفر جاهزة كلما نظرت إليه، ويتذمّر كثيراً من كل ما يراه هنا، من نشرة أخبار القناة الأولى، حتى أعمال الحفر في الشوارع التي دفعتنا أخيراً إلى أن نسلك طريقاً فرعياً إلى المزرعة، مليئاً بالحفر المختبئة تحت الظلمة.

هذا الصديق الطبيب الذي لم يحسم أمره معي بعد، يحاول أحياناً

أن يقنعني بأني مريض، وأحياناً أخرى يقنعني بالعكس. قال لي مرة ونحن في مطار الرياض، عائدان من مؤتمر طبي كان يحضره في النمسا، ورافقته هناك عدة أيام، "أظنني ارتكبتُ معك خطأً طبياً ما، مثلك يجب ألاّ يشفى أصلاً"، هذا ما عاد به بعد أن تركته أشهراً طويلة يفحص روحي الواهنة، المليئة بجثث البطارق، وهياكلها العظمية المشوّهة.

وبطيئاً مثل أطباء البدو، بدأ في تنظيفي، وفي منتصف الطريق قال "أنت لا تريد أن تستجيب!"، وقلت له من دون ملامح "وأنت لا تريد أن تملّني، كيف يمكنك أن تكنس الصحراء من الرمال يا وزّان؟". ولكنه استطاع كنس الصحراء كما يبدو، ولا أدري هل كانت صداقته، أم شهادته، هي التي ساعدتني أكثر، فأنا لا أتذكر أني التقيته في عيادته تلك أكثر من مرات قليلة، ثم أصبحت هذه المزرعة الشمالية المحببة مشفاي الصغير، ومحطة إعادة التأهيل التي تداركتُ فيها شخصيتي، قبل التفتّت الأخير.

"أعرف الكثير مما تقوله لي. هو مألوفٌ عندي قبل أن تبوح به، ليس لأني طبيبٌ نفسي، ولكن لأني مررتُ بظروف مشابهة، وهذا ليس غريباً هنا، فالحب في الرياض قلما يتغير لونه وطعمه. كلنا نمثّل المشهد السينمائي الركيك نفسه، ولا تختلف الأدوار..." و لم أصدقه بادئ الأمر، اعتقدتُ أنها حيلة بيضاء مدروسة يمارسها الطبيب النفسي بنيّات طيبة حتى يتسنّى له أن يفتح قلبي على مصراعيه، ولكن حكى لي الكثير بعد ذلك.

"العيادات النفسية في الرياض لا تستقبل الكثير من الرجال

العشاق، بقدر ما تزدحم أحياناً بالكثيرات اللواتي كسرهن الرجال بطريقة أو بأخرى. مطلقات، وعاشقات، ومغتصبات، ومضطهدات أحياناً، ومدللات بشكل مفرط أحياناً أخرى، كلهن ينتهين إلى عيادة نفسية. ولأنها عيادة خاصة، لا يقصدني من يعانون أمراضاً نفسية أو عقلية شديدة، بل يتجهون غالباً إلى المشافي الحكومية. معظم الحالات التي تمر بي حالات كآبة تسببها عوامل كثيرة، مثل طبقية المجتمع، والشعور بالهوان والصغارة، ومحاولات تطوير الذات".

ثم يرفع إصبعه السمينة، ويشير إلى قلبي مباشرة وهو يبتسم ابتسامة على وشك التحول إلى ضحكة: "صدّقني، أنت أول رجل يدلف إلى عيادتي ويقول: أنا عاشق!"

– حقاً؟ كان خطأي إذن أني قصدتك وأنت بدون خبرة!

– بل أعتقد أنك قصدت الطبيب النفسي الذي كان عاشقاً مثلك. لقد جلبتك رياح طيبة.

– عاشق. جميل، متى كان هذا؟

– لا جميل ولا حاجة، كان هذا قبل سفري إلى أميركا، في السنة ما قبل الأخيرة من الطب، ووزني تقريباً ضعفا ما هو عليه الآن!

– أكمل، إني أسمع، يعجبني أن نتبادل الأدوار ولو لدقائق.

ويبتسم وزّان، وتبرق عيناه بومضات كهربائية متتابعة من الذكريات، ثم تتعلقان بنقطة وهمية عبر النافذة:

– قلت لك إن أدوار العشق لا تختلف كثيراً في الرياض، ولكني عشته بأبطأ حالاته، تلك التي تسرق كل يوم قطرة من دمك، من دون أن تنتبه. وقعت في حب ملعون، بين رجل بدين جداً، وفتاة لا تعرف

أصلاً أي شيء عني، كان حباً من طرف واحد، وهي ابنة عمتي.

- ....

- هل تعرف مقطع الأطلال ذاك "...والثواني جمراتٌ في دمي؟". بوسعك أن تتخيل حالة من الألم كانت تدفعني إلى أن أعيد سماع هذا المقطع الكلثومي الحارق، عشرين، خمسين، أو سبعين مرة! يدي معلقة على زر الإعادة، بينما دمي بالفعل يستشعر كيف يمكن أن تسافر الجمرات في مجراه المعتاد.

- ألم تفكر في أن تخبرها مثلاً؟

- البدناء لا يفكرون بهذه الجرأة يا عزيزي!

ضحكت، وأردف وزّان:

- هذه العلاقة القصيرة، في المرحلة الحاسمة قبل تخرجي، هي التي دفعتني إلى التخصّص في الطبّ النفسي. عندما تكون طبيباً على وشك التخرّج، تنتابك ثقة غبية بأنك تسيطر على جسدك بما أنك صرت تعرفه أكثر، ولهذا شعرتُ بأن الألم وخزني من حيثُ أجهل. التقيتُ عدة أطباء نفسيين وشجعوني على التخصص.

ثم سكت قليلاً، قبل أن يغمزني ويضحك:

- من حسن حظك طبعاً!

- هل كان من حسن حظك يا ترى؟ هل ساعدت نفسك؟

- أعتقد أني تجاوزتُ هذا الحب في اليوم الثاني على وصولي إلى أميركا. بكل بساطة، لأني كنتُ أحتاجُ أجواءَ مختلفة فقط. السفر على حبّ، مثل الأدوية الحرجة، قد يشفيك، وقد يرديك. بعض المدن تحمل في شوارعها قوة الشفاء، وبعضها مدنٌ سامة فعلاً.

– أفهم هذا جيداً، بيروت كانت من المدن السامة، يجب ألاّ تزورها وأنت على عشق!

عندما كان وزّان يصنف المدن هكذا، وكأنها بضاعة مركومة في صيدلية، تذكرتُ كلامنا إبان لقاءاتي الأولى في عيادته، ونحن نتكلم كمريض وطبيب، بعيداً عن بساط الصداقة الذي صار أكثر أريحية الآن. أخبرته أني كنت في بيروت، كعادتي في كل إجازة، ولكني قطعتها في منتصفها هذه المرة، وعدتُ إلى الرياض تاركاً أبي وأمي يكملان الإجازة من دوني.

– كيف قضيت وقتك فيها هذه السنة؟

– كنتُ أكتب. أحاول أن أكتب بالأحرى.

– هل يمكن أن أقرأ بعض ما تكتبه.

– طبعاً، كله منشور في موقع على الإنترنت.

– هل سأحصل على عنوانه؟

– بالتأكيد.

وكتبتُ له العنوان على بطاقة صغيرة من بطاقاته الشخصية، فتأمله قليلاً، ثم قال:

– إذن، انتهت جلستنا يا عزيزي حسان. يجب أن أقرأ ما في الموقع أولاً، ثم أتصل بك لنحدد جلسة أخرى.

– ولكن لم نجلس أكثر من عشر دقائق.

– أعرف. حتى أنا كنتُ مستعداً لجلسة أطول. ولكني أفضّل أن أقرأ لك أولاً، ثم نتكلم. سألغي هذه الجلسة من سجل الجلسات، وستكون جلستنا القادمة هي الأولى.

رشفتُ الرشفة الأخيرة من قهوتي والفنجان ما زال ملآن، وهمستُ بضيق:

– وهو كذلك!

وأمام باب المصعد، قال لي:

– أنتم الكتّاب، تجعلون مهمتي أحياناً سهلة.

راقب ابتسامتي غير الراضية بعين خبيرة، ثم أردف قبل أن ينغلق باب المصعد:

– وأحياناً أخرى: مستحيلة.

لم تستمر هذه الجلسات الرسمية أكثر من خمسة أشهر تقريباً، قبل أن يدعوني وزان إلى مستقره المفضل، المزرعة، وهناك أخذت الجلسات طابع المنادمة. كنتُ أخرج له ألماً صغيراً من قلبي، وكان يخرج ألماً شبيهاً، ولأنه يكبرني بعدة سنوات، كان عنده آلامٌ كافية دائماً. هكذا شعرتُ بأني أتحسنُ تدريجاً، من دون أن أستيطع أن أحدد النقطة المعينة التي قلبت انحداري إلى تماسك وصعود معاكس. هل كان وزّان وحده، وتلك الجلسات النفسية التي يمسحني فيها بكلامه الهادئ من دون أن أنتبه أصلاً إلى كونها جلسة نفسية؟ أم أنني أنا الذي مللتُ الحزن فقط، وقررتُ أن أتوقف عنه؟ أم أن هناك عوامل أخرى مؤثرة، كأيمن مثلاً؟ هذا الصديق المرح الذي عرّفني به وزان في ما بعد، والذي يتقاطع مع وزّان في أقل الأشياء، ويشتبك معي في الكثير منها.

كان أكثر صخباً من أخيه، وأكثر حدة في معاقبة الأشياء التي لا تتفق مع عقله الهندسي المشاغب، وعندما عاد من لندن بعد رحلة

قصيرة لدراسة اللغة، وجد في مكث أخيه الأكبر في المزرعة فكرة جيدة لتطهير نفسه من نوازع العودة مرة أخرى إلى السفر، بعد أن ظلّ منذ تخرّجه في كلية الهندسة يخترع لأبيه كل مرة حججاً جديدة لامتطاء الطائرة، والخروج من الأفق العربي بأكمله، ولما ضاق أبوه ذرعاً بالدورات التدريبية الوهمية، ودراسة اللغة الانجليزية، وغيرها، قال له بهدوء: "يا أيمن، قل أنك تبي تصيع شوي، وبس"، وأيمن نفسه مؤمنٌ بأن نيّاته لم تختلف كثيراً عما صرّح به أبوه بهذا الشكل الفجّ، ولكنه شعر بأن أباه الحليم على وشك أن يغضب، فعاد إلى الرياض بعدة لغات مفككة، جناها من الدورات المفتعلة التي يختار بها شكل المدينة التي يشتهيها، ولم يبق منها إلا التحيات، وبعض الكلمات السيئة، بالفرنسية والإسبانية.

وعندما قرر أن يتوقف عن إدمان المطارات، الذي شجعه عليه حساب أبيه المفتوح، أطلق بعض التحديثات في المزرعة، وأعاد تجهيزها بشبكة من مختلف الأجهزة التي جعلت المكان مريحاً، وكونياً ومليئاً بالأزرار ابتداءً بالنظام التلفزيوني الحديث جداً، وعدة أطباق فضائية، أحدها لشبكة الانترنت فقط، كما أنه أفرد للمكان خادمين، أحدهما صوّام، المصري البسيط الذي يهتم بنظافة المكان، والآخر هنديّ، كان يعمل طباخاً في خطوط الطيران الماليزية.

وصوّام تحديداً قضى في هذه المزرعة ثلاث عشرة سنة، عرف فيها حكاية كل نخلة، أو شجرة كانت أو بقيت، وكان قد تعرض قبل عدة سنوات لحادث خطير عندما سقط عن إحدى النخلات التي حاول أن يلتقط تمراتها الرطبة، وأصيب بكسور في الظهر والحوض، ولم

يعد يقوى بعد ذلك على العمل الشاق، فقرر والد وزّان أن يعفيه من ذلك، فاستخلصه أيمن لنفسه، وأبقاه مراوحاً بين المبنيين الأحمرين اللذين سميتهما يوماً في غمرة جذل وسخرية: قرطبة وغرناطة.

أما ذلك الخادم الهندي، ذو الشعر المنسدل على جبينه بكثافة، فلطالما بدا وكأنه ذو مجد تليد. كانت لغته الانجليزية الجيدة التي اكتسبها من عمله في خطوط الطيران الماليزية تجعله يبدو أعلى شأناً من خادم، إلا أنه قانع بما يجري عليه هنا، وبساعات العمل القليلة التي يمارس فيها ما يحبّه من الطبخ، وإعداد القهوة والشاي في مواعيد متفرقة. كان اسمه الحقيقي راجن، ولكنه مذ أتى وهو يسمي نفسه أحمد، مفتعلاً اسماً إسلامياً ظنّ أنه سيقيه عوادي الظلم في بلد إسلامي لا يعترف بهندوسيته، ولكنّ انتهاءه إلى هذه المزرعة الآمنة بعد عدة أعمال، جعله يتخلّى تدريجاً عن اسمه المزعوم، وتعاوده الثقة بدينه، وعندما دار بينه وبين أيمن نقاش قصير ذات ليلة على هامش برنامج عن غاندي ظهر في التلفزيون، بدا لنا وكأنه استيقن أخيراً، أن لا خوف عليه هنا في هذه المزرعة من نزعة دينية ما، فخلع ثوبه وطاقيته المثقّبة تلك، وعاد إلى بنطاله وقمصانه تدريجاً.

نحن الخمسة كنا نشكّل أطراف المشهد الليلي في ذلك المكان، قلما يزورنا أصدقاء آخرون، وكثيراً ما يقضون وقتاً قصيراً ويرحلون، وقد ضاقوا ذرعاً بهدوء المكان، وتشابه جدولنا الليلي. بينما كنا نحن نكاد أن نقيم هنا، نلتقي في أوّل المساء، ونترك المكان تباعاً عندما ينتصف الليل، وقد ذرفنا تدخيناً، وترفاً، ونسيماً، وأفلاماً، ونشرات أخبار، وألعاباً ورقية خفيفة، والكثير من الكلام المفيد، وغير المفيد.

قضيتُ عامين حتى الآن، على الوتيرة نفسها. وكانت نقاهة لا تنسى لقلبي الذي كان مريضاً جداً. تعلّمتُ أن ألتقيهم هنا، في المزرعة التي كأنها قطعةٌ مسروقة من الأندلس، مخبّأة بحذق لص آثار ماهر في الشمال الغربي من الرياض، حيث لا يمكن أن يفتش عنها أحد. البنيان الأحمر القليل، والشجر الأخضر الذي يسيل باتساع المكان، وضد نيّات الصحراء، والنسائم التي تعبر بلا استئذان، والهدوء الذي يرصد كل شيء، ويتجاهله، وخطوات الخدم القانعين البسطاء، والمجلس الذي لا يشغله سوانا نحن الثلاثة غالباً، في العامين المسطّحين اللذين تبددا بهدوء، واختفيا في فضاء العمر، مثل البخار الذي تبدده أفواهنا في الليالي الباردة.

كان وزّان يجلس دائماً في ركنه الركين، يتعامل مع كتبه وجهاز الكمبيوتر بحميمية، وأيمن يهتم دائماً بتفاصيل ترف المكان، من قناة التلفزيون، حتى نكهة القهوة، وحجم النسيم المسموح له بالدخول، وخطوات الخدم، ونوع السجاد، ونوع الطعام، بدقة المهندس الذي لا يمارس هندسته إلا في المزرعة، وأنا أحاول أن أبدو خليقاً بالبقاء هنا. هذا الوضع الثلاثي استمر وفق التفاصيل نفسها تقريباً، مع اختلاف الرتوش. ماذا يمكن أن يفعل بك الليل في الرياض أفضل من هذا؟ وكيف يمكن أن تكون أكثر حنكة في استخدام الليل مما نفعله هنا؟

كل المدينة الكبيرة التي نتركها وراءنا يشذّبها هذا الليل، وهذا المكان يبدو وكأنه ركنها الذي تأوي إليه ليلاً، لتتوب وتبكي من ذنوب نهارها، وكأنها وحشٌ طيب القلب، ويسمع النخيل أنينها،

واعترافها وبثّها، وهي تغسل ضميرها وتنشره على سعفاته ليجف حتى صباح جديد. كيف إذن لا يستعمر الأغنياء المكان ضيعةً تلو ضيعة، ويحتلون قطعاً من هذا الدير المظلم الهادئ من المدينة، كلٌّ حسب حجم أمواله، وحجم أخطائه، ورغبته في غسل ضميره في الهُدَن الليلية، في مغسلة الضمائر هذه، الدرعية؟

خرجتُ من أفكاري عندما رأيت صوّام يهرع إلى الباب الكبير بعد أن رأى أضواء سيارة تتسرب من تحته، وعرف بالتأكيد من لون الضوء الأبيض، أنه أيمن. وبالأمس، كانت وجنتاه متورّمتين، مليئتين بالبثور التي ثارت في وجهه فجأة إثر حساسية الربيع، وكان يضع على كل بثرة نقطة بيضاء صغيرة من دواء لزج، وبدا لي وجهه آنذاك مثل شجرة توتٍ عجفاء. و لم أتوان البتة عن إخباره بذلك، كما لم يكن لسانه ليتوانى عن ذلك لو كنت مكانه.

أحبّه كثيراً، لأنه يمارس معي ملاكمة كلامية عنيفة، تخرج مني كل الأفكار المنهكة مع العرق. كان في مثل عمري، ودرستُ معه في جامعة الملك سعود و لم أره فيها إطلاقاً، حتى جاء أخوه ليعرف آخر مرضاه، بأخيه الأصغر. وكم كانت علاقة مشوبة بالشك حينذاك.

– مساء الخير، وأرجو أن تنشغل بأي شيء عن مراقبة وجهي.

– لا أستطيع!

– هل تعلم أن الحساسية مرض مُعدٍ ينتقل بالتهكم؟

ابتسمتُ، وسألته بهدوء:

– نعم أعلم ذلك. لعلك أحسن حالاً؟

– قليلاً.

ورمى على الأرض حزمة جرائد ومجلات جديدة، ثم خلع شماغه، وطواه بكل عناية، ووضع الشماغ في مكانه المعتاد فوق الأريكة التي لا يشغلها إلا شماغ أيمن اللامع. سألني وهو يجلس:

– كيف أنت؟

– ماشي الحال.

– وصلت كتبك؟

– معظمها.

– ماذا ستفعل بها؟

– سأوزعها في المساجد.

ضحك أيمن، ثم راح يلمس وجهه بأطراف أصابعه، وهو يفكر بماذا يعود، وكأن ضحكته المفاجئة مزقت شيئاً من تلك البثور التي بدأت تجف.

– ألم تكتشف السر بعد؟

سحبتُ واحدة من الجرائد المطوية، ورحتُ أقرأها من الخلف، وأنا أجيبه:

– إذا اكتشفته أنت، أكون ممنوناً لك.

– صديقة سابقة، أحبت أن تقدم لك هدية مبتكرة، وتنشر كتاباتك المبعثرة في الانترنت.

– ليتك تعدّل من صفتها، جرّب مثلاً: زوجة سابقة.

– طيب ليه ما تكلمها، وتسألها؟

– ما يحتاج.

– ليه ما يحتاج؟

- لأني مو مبسوط، ولو كلمتها راح أزعلها، وأزعل أنا، وأنا ما أبي وجع راس!

نهض أيمن، وراح يرشُّ جملة من الأوامر والترتيبات على صوام وراجن، ثم أخذ يضحك مع صوّام قليلاً، وانهمكتُ أنا بقراءة الجرائد الكثيرة التي تبعثرت أمامي، و لم يمض وقت طويل حتى كان وزّان هو الآخر يدخل المزرعة، مشغولاً بمكالمة هاتفية، ويحمل في يده هاتفه الآخر. ألقى التحية بهدوء، ثم احتلّ ركنه من المجلس وهو لا يزال يتكلم، ورحت ألاحقه بعينين باسمتين وهو يمسح عرق جبينه، وقد بدا شعره الأسود المجعّد يعاني غزو الشيب البطيء.

جسده الذي فقد كيلوغرامات عديدة، ما زال ضخماً. كثيراً ما كان يبدو لي وزان وكأنه رجل عصابات أدركته التوبة فجأة، فسلك طريقاً آخر، وصار طبيباً! وكثيراً ما كنتُ أقول له إن هيئته للوهلة الأولى لا يمكن أن تجعلني أتكهن بمهنته، وعلى العكس من هيئته تلك، يبدو أيمن دقيق الملامح، وناعم الشعر، ويلبس نظارات خفيفة تمنحه تلك الصورة الطبية، ولكنه لم يكن كذلك قط إلا أن شيئاً خفياً في ملامحهما يجمعهما، ويجعل منهما شقيقين، لاسيما إذا خلع كل منهما شماغه، وتربّع على أريكته المفضلة، وبدا صوام وراجن قائمين حولهما، حتى يبدوا في قرطبة، مثل ملكين أخيرين من ملوك الطوائف.

ورغم أن أباهما يتردد إلى المزرعة كثيراً، فإننا لا نراه عادة في هذا الجزء منها، فهو يدلف عادة من البوابة الشرقية، ويقضي وقته في استقبال ضيوف مهمّين، أو غير مهمّين. لم يكن أحدٌ منا يراهم

على أي حال. أما والدتهما فقد قضت بأمراض متعددة في الكبد، تاركةً وراءها زوجها المسنّ، مزاجيّ الطبع، والنزّاع للهدوء والسفر، والتردد إلى هذه المزرعة الأنيقة، ليقرأ فيها جرائد الصباح. وكذلك وزّان وأيمن، ولهما أختٌ مطلّقة وغائبة عن المشهد تماماً. عرفتُ من خلال حوارٍ عارض بين الأخوين، أن اسمها: سارة.

كان شيءٌ ما في غيابها الدائم عن كلامنا، ينبئني أنها أختٌ غير مستساغة. حدث مرة أن أخبرني أيمن بعد وقت طويل أنها تمرّدت حتى قطع تمرّدها قلب أبيها، وتزوجت سراً من رجل غير سعودي، ولم يكشف أيمن جنسيته لأسباب كلامية لم أفهمها أثناء حديثنا ذاك، والذي كان أشبه بالدوار الطفيف المرافق للبوح بين صديقين عادة. كنتُ قد أخبرته قبل يومين فقط، قصة سجن أبي، في السبعينات، ويبدو أن أيمن رأى أن يكافئني على بوحي ببوح آخر، له الكثافة السرية نفسها.

عادت سارة بعد نزوة زواجها إلى السعودية، وانفصلت عن زوجها، وظلّت منذ عودتها منقطعة عن أبيها تماماً. لم أصدق أيمن بادئ الأمر عندما أخبرني أنهما يعيشان في بيت واحد، ولم يحدث أن التقت أباها منذ ثلاث سنوات، وحتى الآن. كنتُ أعرف كما هو واسع بيتها وضخم، ولكن شيئاً من هذا السلوك الأسري لم يكن ليخطر لي، أنا الذي يعيش مع أبويه فقط، من دون إخوة، منذ تسع وعشرين سنة، وبحميمية أسرية عالية جداً.

كنتُ أتناول مع أبويّ وجبتين في اليوم، بلا انقطاع، وفي انتظام يجعلنا أشبه بعائلة لورد بريطاني من القرن الماضي. أتخلف عنهما

عند وجبة الإفطار، وفي حالات السفر المتعددة، ولكن في ما عدا ذلك، كنتُ أقضي معظم ساعات اليوم معهما، أو على بعد أمتار من مجلسهما، في غرفتي. يتناهى إلى سمعي ما يجد من نقاشهما، أو ما تحرضهما عليه لقطة تلفزيونية ما، أو خبر من الأخبار، ولكن يبدو أن ما يحدث في بيت وزّان وأيمن، أو قصرهما بالأحرى، مختلفٌ كثيراً عن بيتنا.

حدث في إحدى الليالي أن أصبتُ بأرق امتد حتى أشرقت الشمس، فخرجتُ من بيتنا بعد أن طردني السرير، والغرفة، والمكتب، و لم أجد مكاناً آوي إليه في صباح اليوم الذي كان إجازةً أصلاً، فخرجتُ بسيارتي، واشتريتُ جرائد كثيرة وجدتها ما زالت مطوية بقوة، ومتكومة في طرف المحل، وقررتُ أن أذهب مثل أمويٍّ وحيد إلى قرطبة وغرناطة.

كنتُ أعرف أني لن أجد أياً من صديقَيّ، ولكني أعرف أن صوّام سيكون هناك حتماً، وسأجد من أكلمه حتى يمضي الصباح البطيء، وتبدأ حياة المدينة يوم الإجازة، وأنجز شأناً ما. لم أكن أتوقع أني بالمجيء إلى المزرعة في هذا الوقت الغريب من الصباح، سأجد نفسي وجهاً لوجه، مع الغريبة، سارة.

دلفتُ إلى المزرعة بسيارتي، وحالما أوقفتها في ركنها الذي تعرفه، لمحت من آخر الطريق الداخلي في المزرعة سيارة تقترب، مكثتُ في سيارتي حتى تمضي، ولكنها تباطأت تدريجاً حتى وقفت بمحاذاتي، وكانت، ويا لدهشتي الصغيرة التي حاصرتُها سريعاً، فتاة تقود السيارة بهدوء، وتلقي عليّ التحية وكأنها تعرفني منذ زمن بعيد. ولأني كنتُ

خجلاً من حريتها، قاومتُ ذلك بعد أن شعرت بأنها لا ريب تعمّدت إيقاعي في هذا الخجل.

- مرحباً.

- مرحباً.

ثم راحت ترمقني بعينين واسعتين، وابتسامة نصف مختبئة في فم لم يبد قط أن الكلام ينقصه.

- أنا حسان، صديق وزان وأيمن. آتي إلى هنا من وقت لآخر.

وابتسمت سارة، بوجهها الطويل المتناسب إلى حد ما مع نحول يدها التي تمسك مقود السيارة، وأصابعها الطويلة الخالية من أي زينة، والتي تنتهي بأظفار مقضومة إلى الحد الأخير.

- أهلاً يا حسان، أنا سارة. عادة أجيء إلى هنا في الصباح لأقود السيارة قليلاً داخل المزرعة، حتى لا أنسى القيادة.

- أستبعد أن تنسي، وضع يدك على المقود يشي بمهارة.

هزّت كتفيها، وأردفت بلامبالاة:

- شكراً.

نزلتُ من سيارتي، واتجهتُ إلى المجلس، ولوحتُ لها بالشكر، وانتظرتني هي حتى دلفت، ثم تحركت بالسيارة.

ولم أر سارة بعد ذلك مطلقاً، ولكني كنتُ سعيداً بأن صار للحكاية التي سمعتها عنها أبعاد حقيقية، مثل صوتها، وصورتها. ولوهلة، بدأت الأمور أقرب للواقعية منها إلى حكاية حرجة تنزلق من فم أيمن. فسارة، بجمالها القليل الذي لا يمكن ملاحظته بسهولة، ونحولها الشديد، وعينيها الواسعتين المتحديتين، ومحاولتها الواضحة

قبل قليل كسر الحواجز بكل جرأة، وممارسة لعبة التحرر، تبدو صورة مثالية لفتاة صلبة المراس، حادة الطباع، ومتمردة في بيت أرستقراطي لا يملك أدوات قمعية كافية لتمرد كهذا، بقدر ما يملك أدوات حصار محدودة، مواربة، قابلة للاختراق. كانت ملامح سارة تبرر فعلاً كل ما سمعته عنها تبريراً كافياً جداً.

عندما أخبرتُ أيمن في الليلة التالية ذلك اللقاء الصباحي المفاجئ، ضحك بعصبية، وصاح بي: "حتى أختي صرت تقابلها هنا!" ولم أعلّق على مزحته الثقيلة، وبقيتُ صامتاً حتى أنهى ضحكته.

قال أيمن، بعد صمت طال عشرين ثانية على الأقل:

– عندما كنا صغاراً، كثيراً ما سمعتُ أمي تتمنّى لو كنتُ أنا ووزان ابنتيها، مقابل أن تكون سارة ولداً.

– جميل، آنذاك ستكون أنت الذي ألتقيك صباحاً في هذا المكان.

ضحك أيمن، وابتسمتُ لأني رددتُ مزحته عليه بسرعة، وعقّب عليّ:

– لا بأس، أنت تستأهلني، وما تخوّف.

ثم أردف بعد أن عادت الملامح الجادة إلى وجهه:

– أحياناً كثيرة أشفق على سارة، أعرف أنها ذات طاقة هائلة، ولكن كل الأشياء هنا تستفزها، وهي في المقابل، لا تملك الحد الأدنى من المرونة والصبر.

– وما هي مشكلاتها؟

– لا مشكلة معينة، ولكنها دائماً في حالة من العصبية، والتصرفات

الحادة. كنتُ أتمنى لو أنها تعيش خارج الرياض، ولكن أبي أقسم أن يتبرأ منها لو خرجت من البيت.

– وماذا تفعل الآن؟

– لاشيء، أيامها خاوية تماماً منذ أن تخرّجت في الجامعة، وكل يوم تطرأ لها فكرة مشروع ناقص، ربما كان هذا ما يجعلها حانقة وعصبية غالباً.

– وما رأي وزّان في حالتها النفسية؟

– لم أسمع منه رأياً محدداً، ولكن دائماً يقول إن جموحها وحدّتها ورثتهما من أبي، وستهدأ تدريجاً مع التقدم في السن. وهي في السابعة والعشرين الآن.

– ربما يضايقها شعورها بأنها بلغت هذا العمر و لم تحقق شيئاً حتى الآن. هل فكرت في الحصول على وظيفة مثلاً؟

– مارست أكثر من وظيفة بشكل موقّت، وانقطعت. إنّ لسارة ذاتاً متضخمة جداً، وتضيق بالعمل المنتظم. حالياً، فتحت معرضاً صغيراً للوحات الفنية، تعرض فيه بعض لوحاتها، ولوحات أخرى.

أما وزان، فلم أخبره قط عن لقائي سارة، شيء ما في علاقتي به ما زال يحتفظ بالحاجز الرسمي بين طبيب ومريض، رغم انتهاء فترة العلاج في مدة قصيرة جداً، أخبرني بعدها أنه على يقين أن ما أعانيه ليس الآثار السلبية لصدمة عاطفية كما أتوقع، بل حالة إحباط عامة، تطورت في مرحلة ما، بتحريض من قصة الحب، إلى شبه كآبة.

كان يصرّ على أن غالية في حياتي مجرد عارض، وليست مرضاً حقيقياً، وهذا ما جعله يركز كلامه معي على كوامن الحفز النفسي،

وهو ما يجيده وزّان بالتحدث في أي شأن من شؤون الحياة التي يتخللها قليل من التوجيه والنصح، وقد يعقبها بضع مقالات يبعث بها إلى بريدي الالكتروني لأقرأها منفرداً. كانت هذه باختصار، كل روشتة وزّان لعلاجي.

ولأني بقيت على حالة امتنان لا تزال تظلل علاقتي به، بقي الحاجز الخفي قائماً، مع أننا تحولنا إلى صديقين يلتقيان كل مساء تقريباً، بينما تسارعت علاقتي بأيمن من دون حواجز، هو الذي التقيته بعد أشهر من لقائي الأول بأخيه، ولكن هكذا شاءت أمزجتنا الاجتماعية.

كان مضحكاً مقامي بينهما، إنّ لي صديقين من هذا النوع. تذكرتُ الخبر الذي قرأته في جريدة ذات يوم عن مسافر أصيب بنوبة قلبية على متن طائرة كانت تقلّ مصادفةً فريقاً كاملاً من جراحي القلب قادمين من مؤتمر طبي. إن هذا يشبه القفز من علو شاهق فوق حقل من المطاط، أو أن أثمل مثلاً حتى آخر شهقة، وأنا في سريري أصلاً.

VI

في إحدى الجلسات، أذكر أني سألت وزّان هل أنت متديّن أم لا؟ ابتسم وطلب مني ألا أقلق، وأكّد لي أنه سيكون مهنياً جداً كعادته. قال لي أيضاً إنه ربما يستخدم الحلول الدينية مع من تقنعهم مثل هذه الحلول، "المهم أن نجد لك حلاً يقنعك!، أياً يكن..."، أخيراً سكنتُ إليه بعد هذه العبارة، وأخبرته كيف أن امرأة رحلت، ونكش رحيلها في طريقه عدة مشاكل نفسية.

ثرثرتُ كما هي العادة عندما يكون المستمع طبيباً نفسياً. قلتُ له كل ما يضايقني، وجل ما يثير كآبتي، وتوقفتُ بعد أن استشعرتُ الآلام الطفيفة في حلقي جراء الكلام، وكان وزّان يتكئ على يده وينظر إلي وكأنه يشاهد فيلماً مثيراً. حدستُ من نظرته المتحمسة أنه اكتشف حلاً لي، وسيضعه في جيبي قبل أن أترك العيادة، ولكنه فاجأني عندما قال بهدوء: "لا أجد أي شبهة لاضطراب نفسي، أنت فقط لا تريد أن تشعر بأي وخزة ألم في الحياة، وهذا مستحيل".

شعرتُ لوهلة بأنه أهانني عندما اختصر حالتي في جملة واحدة، وتمنيتُ لو أني اختصرت منذ ذلك البوح الثقيل الذي لا تكافئه هذه

الجملة الوحيدة جيداً، وحاولتُ من دون إرادة أن أفند رأيه، قبل أن أنتبه إلى أنه من الغريب أن أستشعر إهانةً من شخص يخبرني أني سليم، فأحاول أن أدافع عن نفسي بإثبات أني مختل نفسياً.

قررتُ أن أرمي كل الأوراق. لم يُجْدني أن أتحفّظ معه كثيراً، قلتُ له إني عرفت نساءً كثيرات، وكنتُ أتصل بهن جسدياً.

– نعم، وماذا في ذلك؟

– من دون حب، ومن دون عاطفة.

– وأين المشكلة؟

– ولكن أحياناً عندما تنام بقربي امرأة، وجسدها لصيقٌ بجسدي، لا أدري ماذا أقول لك.

– ماذا؟

– لا أدري، أحياناً، آ...

– تكلم ولا تقلق.

– أحياناً أتمنى لو كانت رجلاً!

لم يكن ذلك مفاجئاً لوزّان، و لم تكن الميول المثلية حالات نادرة في العيادات النفسية، لاسيما في الرياض، وأنا قررتُ أن أخلع كل شيء، هذه الرغبات الدفينة التي لم أحققها منذ سنوات الطفولة. ورغم الحضور الأنثوي المغني بعد ذلك، ظلّ هاجس الرغبة القديم ذاك يراودني. أحاول قمعه، لأني أخاف أن يتطور، فأتحول إلى شاذ.

سألني وزّان أسئلة توقعتها تماماً.

– هل تنام مع ذكور الآن؟

– لا.

– هل حدث لك هذا من قبل؟

– نعم.

– متى كانت آخر مرة؟

– في الثالثة عشرة.

– مع من؟

– صديق، من عمري!

ابتسم لي وزّان، وقال لي بالهدوء نفسه الذي لم يتغير:

– لا يوجد أي شيء غير طبيعي أيضاً!

– هل تشعر بالملل مني؟

– لا طبعاً.

– لماذا لا تصدّقني إذن؟

– إذا كنت أنت صادقاً في كل ما قلته لي، فأنا أقول لك بكل صراحة إنك لا تحتاج إلى أي معالجة نفسية، مجرد ضغوط طبيعية جداً تنتج من أي ارتجاج عاطفي ما، ولكنك حضرت إلى هنا بتصوّر مسبق أني أملك عبارة سحرية من شأنها أن تجعلك تخرج من هنا مسروراً، وأنا لستُ ساحراً، أنا طبيب، وممارستي لمهنتي تتطلب أن يكون هناك مرض أصلاً، وأنت لست مريضاً، لا يوجد ما أقدمه لك.

– ماذا عن الرغبة في الرجال، أليس الشذوذ مرضاً؟

– هذا ليس شذوذاً، بما أنك تتصل بالنساء بشكل طبيعي، و لم تمارس الجنس مع رجل منذ طفولتك رغم استطاعتك هذه، فهذا يعني أنك لا تعاني اضطرابات الشاذين إطلاقاً، ولا ترغب فيهم. أما شؤون الطفولة فلا يُعتد بها في مسألة الجنس إلا إذا كانت اغتصاباً

أو أشبه بهذا، أما ما فعلته أنت فلا يخرج عن إطار العبث الصبياني، ومحاولتك اكتشاف الشهوة الجديدة الطارئة على جسدك، ولذلك اتجهت إلى صديقك الذي، هو أيضاً، يشاركك في رغبة الاكتشاف نفسها في هذه المرحلة العمرية. ولو كانت لك صديقة أنثى آنذاك لاخترتها هي طبعاً، الأمر ليس جنساً، فالأطفال لا يمارسون الجنس، إنه يشبه ممارسة العادة السرية جماعياً أو عبثياً، لا أكثر.

– ولماذا أشعر بهذه الرغبة الآن وقد كبرت؟

– هذا مجرد شغب صوتي تمارسه معك الذاكرة، وهو حريّ بالحدوث، كما قلت لك، بعد أي ارتجاج عاطفي. وكثير من المراجعين في العيادات النفسية يعانون أوهاماً وظنوناً سيئة بأنفسهم، لم تتحرك إلا بعد صدمة ما. أنت تحاول أن تدين نفسك، وتقنعها بخرابها حتى تواسي الرجل الحزين الذي في داخلك.

لم أحتج إلى وقتٍ طويل لأتخلص من حالة الحنق البسيطة التي لحقت بي جراء لقائه. انقشع هذا الحنق تدريجاً ليظهر تحته شعور بالارتياح لتخلصي من أحد همومي الصغيرة. وإن بقي في داخلي شيء من القلق، فلم يذهب تماماً.

أخبرني أحدُ الأطباء مرة أنه عندما يضطر إلى أن يصارح مريضاً بأخبار سيئة عن جسده، يحشد معها أخباراً مطمئنة أخرى، كأن يقول له إن كبدك متعب، ولكنّ قلبك ورئتك سليمان تماماً، رغم أن المريض لم يسأله عنهما، فيبتلع المريض أحزان كبده بنعومة. ربما كان هذا ما فعله معي وزّان، أوليس طبيباً نفسياً أصلاً؟

قلت له مرة إن من يعشق في هذا البلد، يجب أن يُحجر على

قلبه ومشاعره، مثل السفهاء. وكان يتلقى كلامي بهدوء عميق وكأنه تحول إلى بقعة من الرمال المتحركة، كعادة الأطباء النفسيين في تلقي انفعالات مرضاهم المفاجئة. ثرتُ، وطلبتُ منه أن ينزع عنه هذا القناع الرتيب، أو أترجّل من سيارته.

ولا أزال أتذكر الشارع الصامت الذي أنزلني فيه وزّان بدون تردد، وذهولي الذي امتطيته نصف ساعةٍ وأنا أمشي بين المزارع المظلمة حتى أصل إلى أقرب مكان يمكن أن تمر به سيارة أجرة، ومنذ أن اختفت أضواء سيارته الحمراء في آخر المنعطف، إلى أن وضعتُ جسدي المنهك فوق السرير، وأنا أفكر في الطريقة التي طردني فيها من سيارته، بناءً على رغبتي.

هل ملّ من فرط ما تعاليتُ على حدسه الطبي؟ أو أنه فقط شعر بأني قصدتُ عيادته بترف، من أجل التغيير لا أكثر، ومشاكلي لا تستحق المعالجة؟ ربما كان خيراً لي لو أن وزّان عالجني خفيةً كصديق، من دون أن يستخدم أدوات مهنته، وهل يمل الأطباء انفعالات مرضاهم؟ ألم يصر في عمله مجانين يبصقون عليه، ويقدمون إهانات أشد من تهديدي البسيط الذي ألقيته عليه في لحظة إحباط؟

فهمتُ في ما بعد أنه كان يريد أن يخبرني أن ثمة أشياء أخرى تستحق الحزن، غير صعوبة امرأة. احتمال غياب صديق مثلاً، وراهن بنفسه، ونجح في اعتساف عاطفتي المشوهة للتفكير فيه بدلاً من غالية طوال يومين، ولم أفهم إلا أخيراً كيف يُعالجَ الهمّ بالهمّ.

****

توقّف صدور مقال غالية منذ شهور طويلة، وهو الذي كان غذاء ذاكرتي الجائعة. بحثتُ عنها في كل الصحف الأخرى، في كل المجلات، لعلها انتقلت للكتابة في مكان آخر، واستخدمتُ اسمها كاملاً للبحث على الإنترنت، و لم أرجع إلا بأرشيف عتيق من مقالاتها السابقة. راجعته كله، لعل مقالاً جديداً اختبأ بينها و لم أقرأه من قبل، فلم أجد شيئاً، عدا مقالاتها قبل أن تحبّني، ومقالاتها أثناء الحب، ثم مقالاتها الأربع العجفاء بعد انفصالنا، ثم توقّفت غالية تماماً عن الكتابة. اتصلتُ بالمجلة، وسألت عنها بصفتي مجرد قارئ متابع، فأخبروني أنها انقطعت طوعاً، وتقدمت بطلب إجازة مفتوحة.

لماذا والكتابة رديفة الحزن؟ هل توقفت غالية عن الحزن مثلاً حتى تتوقف عن الكتابة؟ أو أنها اختارت أن تبتعد عن مرمى قراءتي لتساعد ذاكرتي على البرء العاجل؟

كلتا الحالتين تؤذي القلب، رغم أني أؤمن دائماً أن غالية التي أحببتها وهي أم، وتركتها وهي أم، تعرف مصلحتي أكثر مني.

ولأني أعرف أن الكتابة في حياتها أكثر من مجرد مهنة صحفية. هي التي نشأت ابنة لأب ضال، لا يعرف طريقه إلى المنزل كثيراً، وأم وحيدة لم تنجب منه إلا غالية قبل أن يبدأ زوجها في هجراته المتتالية خارج المنزل، سواء للسفر، أو الزواج بأخريات.

ولأن أمّها فكرت بشكل تقليدي، وخشيت أن يهدد غياب الأب المستمر عن المنزل أخلاق ابنتها، ضاعفت القيود حتى صار الخروج من المنزل إلى غير المدرسة والجامعة قراراً مستحيلاً تقريباً، فالتجأت غالية إلى القراءة كصديق مقبول، واستطاعت أن تجمع في تسع

سنوات، أكثر من ألفي كتاب لا يزال قابعاً في قبو بيت أمها المتواضع.

قالت لي غالية مرة: "ما يغفر لأبي غيابه عن المنزل أنه لم يكن يتدخل في شؤوننا!"، ورغم أن الميزان لا يبدو عادلاً عدلاً كافياً، لم تكن غالية تضمر حقداً كبيراً على أبيها، بل كانت ترى أنه طائرٌ مصابٌ بلعنة الحرية، ولا يستطيع أن يستقر في عش واحد. قالت لي مرة: "تقدم لخطبتي أكثر من رجل، وأولئك الذين كانوا يتقدمون عن طريق أبي، كان يبلغني عنهم بمكالمة هاتفية فقط، يذكر لي اسم الرجل، ثم يترك لي الخيار تماماً، ويطلب مني أن أبلغه قراري حالما اتخذه. تخيل لو أنه أجبرني على أحدهم!"، ثم تتنهد غالية، وأتذكر تماماً شكل تنهدها ذاك، وتضيف: "المشكلة أني اخترتُ أسوأهم على الإطلاق!"

الآن لم يبق عندي من رائحة قلمها إلا بقية من قصاصات قديمة، القصاصات الخاصة التي كنتُ أحتفظ بها كلما لمحتُ فيها إشارةً صغيرة لا يفهمها سوانا. يروق غالية أن تحشر في مقالها رسائل تفهمها مدينةٌ بأسرها بطريقة، وأفهمها أنا وحدي بطريقة أخرى. هذا العبث برغم رصانة الصحافة، كان لذيذاً بلذة الغزل السري الذي تبثّه غالية بين الكلمات باتجاه واحد، وتنشره على الملأ.

كانت العبارة الأخيرة من مقالها دائماً تعنيني أنا، تضع فاصلاً بينها وبين المقال، ثم تجعلها تحت عنوان فرعي أخير: (آخر الكلام)، وحتماً تكون لعبارتها تلك علاقةٌ بشأن تحدّثنا عنه من قبل، كي أعرف أنها تفكر فيّ دائماً حتى عندما تكتب، وعندما تفكر، وعندما تصلي، وعندما تعدّ مربعاتِ شماغي التي أخذتها مني ذات لقاء، وخاطتها لتصبح غطاءً للوسادة.

لا أدري بماذا سأشعر لو وجدتُ أن غالية ابتدرتني يوماً بكتابة ما، شيء يوثق قصة الحب المكسورة هذه في مدينة لا تعرف القراءة. هل سأتعزى قليلاً بالكلمات المائية التي يمكن أن تكتبها كاتبة بأناقتها؟ أو أني سأشتعل من جديد، وأعيد تركيب أحزاني طبقاً فوق طبق؟

لو استبعدتُ أنها لن تحبذ المشي فوق حقل الشوك المسموم مرة أخرى، فلربما امتنَعَتْ عن الكتابة خوفاً على قلبي المثقف. ولكني لا أخشى حقل شوك كهذا، وأيضاً أعرف أن غالية غابت مثل نجمة لم ينتبه لها إلا فلكيٌّ واحد، ولهذا تساءلتُ مرةً بعد أن مرّ على انقطاع تواصلنا تماماً بضعة أشهر، هل من الممكن أن أكتب لها أنا إذن. هذا ما فكرتُ فيه عندما بلغت مرحلة شلّ الحنينُ فيها جسدي تماماً، وفي الشتاء أيضاً حتى لا أخلف وعد مواقده الثرثارة، هذه الكتابة العكسية التي لن تتوقعها غالية. هي الكاتبة، لا تعرف أنها، بعدما تركتني، انبثق من إصبعي غصن كلام ضئيل.

تفرّغتُ للفكرة بكل وفاء، وعلى بياض كمبيوتري المتنقل، كتبتُ كل شيء، منذ أحببتها في شتاء 2004 حتى انفصلنا في منتصف صيف 2005، كتبتُ مدة شهرين متواصلين، حلقات متقاربة كانت تنهبُ يدي نهباً لتخرج، ونشرتها في صفحة خاصة على الشبكة، بخلفية رمادية تليق بالشتاء الذي أجلس على كرسيه كل ليلة لأستأجر منه الكلمات، وبأحرف حمراء دكناء، هي كل ما أستطيع نطقه من أبجدية ذلك الموقد.

كتبتُ كثيراً، كثيراً. وكتابة الإنترنت تفقدني وعيي بالأسطر والصفحات، كل شيء منسدلٌ مثل ستارة لا تنتهي. فقدتُ وعيي

بالمكان تقريباً. وتخيلتُ أن خمسة أشهر من غياب غالية المستمر عن حياتي، كانت فترة اختمار كافية لحقل هائل من النبيذ الحزين الذي تكدس في دمي، وراح يسيل بدكنة الأحمر على رماد الصفحة التي سجلتها على الشبكة باسم غالية، ووقّعتُ باسمي الأول فقط، كأي جبان.

لم يكن ثمة صرير قلم، أو انطواء ورقة يمكن أن يوقظني من حالة حلمية طويلة اجترحتها بهذه الكتابة، حالة مقاومة للموت، لاسيما ذلك الموت العادي الذميم. تأكدتُ تماماً، من خبرة خمسة أشهر في ميدان الفراق التام، أن أوجع الأيام بعد الحب، ليس أولها، لأن النبتة لا تتألم فور انقطاع الماء، بل عندما يبدأ الجفاف فعلاً. وأنا بدأتُ أتشقق فعلياً بعدما مرّت هذه الأشهر الخمسة على غياب غالية، وصارت مشاعري تنقسم انقسامات مجنونة مثل البكتيريا، ولا يبقى الاشتياق وحده المحفّز الحصري للألم، بل تتكون مشاعر جديدة، ربما نندهش عندما نتصور أن لا علاقة لها بالحب.

كنتُ أشعر أن انقطاعي عن غالية يشبه وصولي إلى نهاية طريق مسدود. شعرتُ في الأشهر الخمسة تلك بحالة هائلة من التكاسل عن ابتداء أي احتمال حب آخر، هذا الكسل القلبي موجع لوهلة، وربما مفيد في وهلات أخرى، ولكنه أثناء الأشهر الخمسة، كان سبباً جيداً للتعاسة. هذا الشعور بأن قلبي فقد الحس تماماً، وأصبح مجرد كتلة عضلية تتقلب في صدري بروتينية فارغة، لا ترسل، ولا تستقبل.

والسبب الآخر، هو أن غيابها المستمر يولّد حالة متزايدة من الشعور بالهوان، شيء لا علاقة له بالحب تقريباً، ولكنه يتصاعد في شخصيتي

كل يوم، وهو شعورٌ شرير فعلاً، لأنه يحرّض على أفعال شريرة، ويجعلنا نتصرف خارج آداب الحب، ويفتح الباب لنزلاء غير مرغوب فيهم في القصة كلها، كالانتقام مثلاً، كالعهر، وغيرهما. وكلهم يشوشرون بشكل مضاعف على أي محاولة للبقاء نبيلاً عن بعد.

إنها أسوأ المشاعر على الإطلاق هي تلك التي تحدث عندما نستيقن تدريجاً أن قصة الحب بدأت بالموت فعلاً، وبشكل عادي، موت مختلف عن أي موت آخر، ينتخبنا بصمت، وينجزنا بهدوء، وبروتينية لا نملك إزاءها حنقاً كافياً ونحن نموت، ولذلك هو بالنسبة إليّ أسوأ احتمالات النهاية، وهو، لا الحب، ما جرني إلى عيادة وزّان في النهاية، لأبحث عن بضع كلمات تقيم الأود، وربما حبوب تقعده.

وفق ذلك أقيس النهايات الأخرى التي تحدث في حياتي من وقت لآخر. نهاية أية مرحلة، نهاية أية فكرة، وأي حلم. فكرتُ دائماً أن لا أحد يحبّذ الموت العادي البارد لهذه الأشياء، ولا النهايات الحامضة، كلنا نريد أن تنتهي بشكل أسطوري يمنح هذا الموت عزاءً صورياً على الأقل.

ربما لهذا السبب يحبّذ العشاق إطلاق صرخاتهم الحادة عند النهاية، هم الذين ما لبثوا يؤجلونها منذ أول الحب، مكتفين أثناءه بأنين هادئ قصير ومستمر، وعندما يستبصرون النهاية الوشيكة يفجعهم تصور فكرة الموت العادي لكل ما مروا به من دراما قلبية، وعندما لا تساعدهم الأحداث الرتيبة على تفادي عاديّة هذا الموت، وبرودته، تجدهم يستجيرون بالحنجرة، ويطلقون الصرخة الأخيرة، والأعلى على مستوى الحب.

ليس للمقابر آذان على أي حال!

ربما من أجل هذا أكتب أنا بعد نهاية المشوار، وليس أثناءه. وهذا مؤلم. ليتهم يعلمون، يشبه أن أقرر بدء رحلة عكسية بعد انتهاء الوقود أصلاً، ولهذا أكره السير للخلف، وأمرُّ، ببطء مؤلم، في كل الأمكنة التي قطعتها من قبل سريعاً كومضة ريح جميلة. أعترف بهذا الألم، ولكني لا أملك من أمري شيئاً، فكل شيء يحتمل، إلا هذا الموت العادي.

بهذا الهدوء الماكر المتدرّج، جفّت حكايتي مع غالية، وكأنها كانت التهاباً عابراً في حياتي، وانتهى. ولا أدري أيُراد بي الخير أم الشر؟ ما أعرفه أن يديّ أصبحتا منفوضتين عن آخر قطعة من حلوى الحب، وأني لا أستطيع حتى أن أشعل أشجان عابر بسيط بحكايتي، رغم أنها كانت مدفأتي الكبرى لأشهر عديدة.

يؤلمني أن بعض الحكايات عندما تبعث على هيئة كتابة، تتحول إلى ما يشبه الرنين الذي يصعد ويهبط في مواقع مختلفة من الحكاية، معطلاً مسيرة الشجن، إلا الذي يتردد في صدري أنا وحدي، وربما في صدر غالية. ربما هذا ما يجعلنا محدودين بعدة آلاف فقط من الحكايات المكتوبة، إزاء الملايين منها التي حدثت في الحياة، ولكنها رفضت أن تحني رأسها الدرامي الرفيع للكتابة.

كل هذه العاصفة التي بعثرتني طوال هذا الحب، لم يبق لي منها ما يمكنني من بعث ارتعاشة طفيفة في أطراف السامعين. تصورتُ أن الحب يندر أن يجمع لنا الحسنيين، إما أن يمنحنا رغداً موقّتاً وهادئاً لا يلفت الأنظار المؤذية، نقلّب فيه بعض الأمل، وإما أن يعود مرةً

أخرى بعد حين، ليسترد عاديته، ويلملم أشياءه، ولحظاته، وغمراته، ويجمع أصداء القبلات في كيسها، والضحكات في صندوقها، ويحشر وشاح الرحمة الكبير في جيبه الواسع، ويغلق علينا الستارة، ويوصد وراءنا المسرح، ويختم علينا بالموت العادي، ثم يرحل نحو اثنين آخرين.

هل حدث أن خُيّرنا مثلاً إذا كنا نرغب في أحداث مختلفة؟ كأن نشتعل معاً مثل خيطين مضفورين من البارود، ينتهيان إلى ديناميت؟ لنفرض أننا رغبنا طوعاً في أن ننفجر منبهين كل من حولنا إلى أن ثمة قصة حب لولبية حدثت هنا، وأنّ العاشقين تحملا آلام هذا الاشتعال، ومزِق هذا الانفجار، من أجل أن يخلفا وراءهما حكاية لا تجرفها الأيام بسهولة، ويستحيل أن تلملم أطرافها الأفواه، والأوراق، والمقاهي، لأنها انفجرت، وتبعثرت في كل المجرة.

لا يمنح الحب خيارات أخرى، إلا عندما نتوهم ذلك، وفي اعتقادي أن البشر لم يكتبوا الكتب، و لم يصنعوا الأفلام، إلا عندما بلغ إحباطهم من عادية الأشياء حداً جعلهم يبرُون كل ما حولهم ليتحول إلى أسنة حادة يخترقون بها هذا الجدار العادي المؤلم. الاشتعال لم يحدث يوماً وحده، ليس من عادة الطبيعة أن تحرق نفسها، علينا نحن أن نتحمل أعباء ذلك إذا بقينا تواقين إلى كل حريق جميل.

وأنا الذي كنتُ أمر في كل هذه المراحل بعماء تام، تاركاً تحديد الاتجاهات لحالاتي النفسية المتعاقبة بعد الحب، قررتُ أن أصرخ الصرخة الكبيرة بعد أن رحلت غالية، وأكتب لها عن الحب، رغم أنها لم تكن في حاجةإلى ذلك، ولا أنا.

كل ما في الأمر أني كنتُ أقاوم الموت العادي، وأحاول أن أفجّر بعض الألعاب النارية في السماء التي تخيّلت أنها لا تحفل كثيراً بما يجري تحتها. كنتُ أمارس الحالة النفسية الطبيعية والمتوقعة بعد الحب: الصراخ!

وعندما مارست هذا الصراخ الالكتروني، بدا لي وكأني دخلت جمعية سرية للصارخين. القصة التي كانت حكر القلب، أصبحت مشاع الفضاء، والكلام الذي كان رهن رجل وامرأة، وهاتفين، وبضع رسائل، وجسديات، أصبح نافذة لرسائل تأتيني من الآخرين، لا يخرجون عمن عرفتهم مسبقاً: حزانى، وملعونين، وقطاّع أمل.

أشياء تتقاطع بألم، وأخرى تختلف بسخف، ولكني، تدريجاً، صرتُ مهووساً بالصرخات الأخرى، محبوساً بينها أحياناً، ومشغولاً بترتيبها وتنسيقها، حسب مستوى القلق الذي نشترك فيه جميعاً.

كان في داخلي قلقٌ كامن، لم يتحرك بعد، لا أدري هل كانت الأيام القادمة تحمل لي نوبة كآبة جديدة، أو أنها ستتأجل طويلاً، حتى تختمر الأحزان تماماً في داخلي، وتعيد حشد نفسها، ثم تعكس تيار دمائي فجأة وتقتلني.

أشعر بأني أتجه نحو الكتابة بشكل مصيري، أشعر بأني مضطرٌ لأن أفوح تدريجاً مثل فوهة بركان بأبخرة كثيرة، حتى لا أضطر للثوران يوماً ما، وتخريب كل شيء، إنه الفعل الوحيد الذي سيمكنني من نقل الموقد معي، خارج الشتاء.

منذ أن تعلمت عادة البحث عن امرأة كلما استيقظ داخلي حزنٌ قديم، في شتاء جديد، وأنا أرى الفوضى التي يخلفها ورائي قلبي،

وأتذكر دائماً بأنها عادةٌ سيئة، وعاداتي السيئة كثرت في الآونة الأخيرة، وأصبحتُ أقفز في قرارة الجرح بنفسي، لذلك أحتاج إلى خطة تصحيحية، ووقت محايد، وأوراق، وأصدقاء، وطبيب نفسي.

كانت كتابتي تلك كأنها الرسائل التي تُكتبُ على الحد الأخير من السخرية، باعتبارها آخر مراحل الحزن. تخيلتُ أني جلستُ على الرصيف، وبدأت الغناء، و لم أبق وحيداً. هناك آخرون كانوا ينتظرون رفقة الرصيف هذه، بقدر ما يكرهون وحشته، ويفشلون تماماً في الغناء الفردي.

مشاري أحد الذين جلسوا معي منذ البداية، واستأذنني في الغناء الذي لا يسمعه غيري، جاءتني رسالته عبر البريد الالكتروني هكذا، حادة ومباشرة. ولأني كنتُ مجدولاً بالصوف، وصادفاً عن الكتابة بعدما انتهيتُ منها فعلاً، شعرتُ بحنق صغير إزاء رسائله التي تعاقبت في ما بعد، ولقاءاتنا القصيرة، وسخريته المرة من حزنه وتعبه، لاسيما عندما قال لي ذات بوح: "اكتبني، أشعر بأنك تفهم ما أقول".

كان هذا شأناً يبعث على الحنق بالفعل، من دون أن أعرف له سبباً، أشعر بأني حانقٌ على قراري القاضي بالكتابة، لأجد نفسي قد تحولتُ من رجلٍ كان يظن أنه يحملُ حباً فريداً، فإذا به يقصده الآخرون من أجل بضاعة مشتركة.

"أنا لستُ ناقش أوشام يا عزيزي"، هكذا رددتُ طلب مشاري الذي تقبله بابتسامة عريضة، "ولا أستطيع أن أكتب حرفاً آخر في الأصل، كل شيء لم يكن باختياري، ولا أستطيع بالفعل أن أخبرك

لماذا"، وكانت نظراته حزينة، وهو مطرق، ولكنّ شيئاً من السخرية كان يفوح من كلامه الأخير.

- لا بأس، أنت تعرف كل شيء الآن.

- ماذا تعني؟

- كل ما تعرفه عني لن يكون قصة مريضة ذات يوم، تدريجاً سترسبُ في داخلك، وتنعجن، وتخرج في صورة أخرى، لا يميزها الآخرون، ولكن أعدك أن أميزها أنا، لأنها قصتي!

وابتسم بانكسار بارد.

قلت له:

- لا أعتقد أنك فهمتني جيداً يا مشاري. الأمر لا علاقة له بك، ولا بقصتك، بل بمدى استعدادي الشخصي للكتابة، لا أستطيع أن أشرح لك كل شيء هنا، ولكن على أقل تقدير، أتمنى لو كنتُ قادراً على تفهم بوحك كما يليق.

- وهو كذلك.

لم أر مشاري كثيراً، تكدست في بريدي إحدى عشرة رسالة منه، كلّ منها تحمل طرفاً غير مترابط من قصة حب رعناء، ثم لم يلبث أن انقطع بينهما الحبل الودود. وفي بريدي اختمرت عدة أشهر، كنت أعيد قراءتها من حين لآخر، من دون أن أنتبه إلى أن فعل الرسوب قد بدأ بالفعل، وأني عندما تجتاحني شهوة الكتابة مرة أخرى، سأجدني غير قادر على تفادي تفاصيلها، وهذا ما حدث فعلاً. ولهذا قررتُ أن أمسحها جميعاً، حتى لا أجد نفسي ذات يوم متورطاً في سرقة حزن ليس لي، وأجد نفسي محاصراً بالنيّات المتعددة.

ومريم التي كتبت لي بعد طول تردد كما تقول، أكثرت من شتمي، ولم تترك تفسيرات كافية لشططها ذاك، ولم أتتبع الحكاية. وبعد بضعة أسابيع، جاءتني عدة فصول مكتوبة إلى البريد الإلكتروني، وعدة صفحات مصورة من موقعي. ووضعت خطوطاً هنا وهناك، وعلّقت في إحدى رسائلها "يوجد شيء من العزاء في أن ننطفئ وحدنا من دون أن نؤذي العالم، ولكن أن نموت في مجاعة مشتركة، فهذا أكثر إهانة مما نحتمل، شيء يجعلنا نرفض فكرة الانطفاء أصلاً، هل فهمت؟ أنت هو المجاعة المشتركة!"

ربما كانت مريم هي النقيض العكسي تماماً لفكرة الصراخ الأخير. هي قررت أن تدفن حبّها تحت آخر كثيب من رمل الصحراء، وتوفر طاقة الصراخ لتستغلها في المشي، وتجاوز منطقة اليباب التي تركها فيها حبٌّ جائر مليء بقطّاع الأمل، قالت لي في رسالتها قبل الأخيرة: "المؤلم أن تقرر بنفسك أن تكون عابراً، خفيف العبور جداً، ثم حين لا ينتبه أحد كما كنت ترغب، تشعر بغضب لا يمكنك تبريره، فتجد نفسك تقول كلاماً لم تكن مستعداً لقوله، لأنك قررت مسبقاً أن تكون خفيف العبور"، ثم تركت مريم عدة سطور خالية تشي بالبكاء، "تخيل أن تكون معلقاً في مساحة مثل هذه الأسطر أعلاه، لا أنت أكملت مشروع العبور، ولا أحسنت البقاء، وبدلاً من ألا ينتبه إليك أحد، انتبهوا فجأة إلى أن الفتاة، لا تثير الانتباه!"

أعترف أن مريم أغرتني أكثر من مشاريي، ورحتُ أتابع قصتها معها، ونتكلم كثيراً. لأني كنتُ قد ارتقيتُ فعلياً من مرحلة الحزانى

إلى مرحلة الملعونين، وهذا لا يلغي الحزن أبداً، ولكنه يستثني براءته وطهره.

كان طوقي مكسوراً، وافترضتُ ذلك في مريم التي لم يكن حبها أقل صعوبة من حبي، وهذا يختصر الكثير من المسافات بيننا. كانت جميلة كما يفترض بفتاة كانت قيد الحب، من قلب الرياض المليئة بقطّاع الأمل، التقيتها مراراً في أماكن متفرقة من المدينة التي أصبحتُ خبيراً في ارتياد مظلاتها العاطفية، واكتشفتُ تدريجاً كم هي حزينة، وملعونة، مثلي. وتركنا الأجساد تتباكى بعضها على بعض، ورمّمنا شيئاً ما، ورصفنا طرقاً مقطوعة، وتعاونا على تقبل مسكّنات الألم، كبدائل عملية للحياة السعيدة.

سألتها:

– هل أنا أساعدكِ على تجاوز الأمر؟

بعد صمت قصير، أجابتني مريم:

– أعتقد أنك فقط تجعلني أقل انتباهاً لتعاستي.

ابتسمتُ قليلاً، وسألتها ونحن جالسان في أعلى غرفة، من أعلى فنادق الرياض، نتأمل من سقفها المفترض لوحة من الأضواء الصفراء التي تبدو مثل خيوط من الذهب، تخيط المدينة الممزقة، وتبقيها نسيجاً واحداً موهوماً للناظر من أعلى، فقط.

– هل يفترض أن أغضب لتفاهة هذا الدور يا ترى؟

رفعت حاجبيها الرفيعين، وهزّت رأسها علامة الدراية.

– هذا الدور عظيمٌ لو تعلم.

وكنتُ أدرك أنه دورٌ عظيم قبل أن أسألها. ألم يكن هذا هو هدفي

الأول عندما قصدتُ عيادة وزّان؟ أن يجعلني أقل انتباهاً للتفاصيل التي تعذّب ذاكرتي. أنا الذي كنتُ مريضاً بهذا، أصبحتُ أساعد مريم، أو ربما كانت هي التي تساعدني.

كانت مطلقة، وأماً لثلاثة أطفال لم تعد تراهم منذ أن قررت هي بنفسها ألا تراهم. "سيكونون بخير لو ظلوا أبعد... وأنا أيضاً"، وعندما شعرت بأن ذلك لم يقنعني، قالت لي بصوت خفيض "لا أستطيع أن أجعل من أطفالي ضمادات لي"، كانت في منتصف الثلاثين، لها عينان ميتتان تقريباً، ووجهٌ ممتلئ. كانت تشبه سينثيا نيكسون، بطلة مسلسل "الجنس والمدينة"، هكذا قلتُ لها، وهي أخبرتني أنها لا تستغرب أبداً أن أتابع مثلها مسلسلاً كهذا.

كل حلقة عبارة عن عدة خيبات صغيرة مموهة بالسخرية، حتى تلك اللحظات السعيدة كانت جزءاً من صراعات أساسية مع العمر والمدينة وفوضى المشاعر، ولذلك كانت مشاهدة المسلسل بجوار خيباتنا، يجعلها تتضاءل تدريجاً حتى تصبح واحدة منها، ونلتفت لوهلة لنجدها قد اختفت، وذابت في أحد المشاهد.

قالت مريم:

– ثم إن المسلسل يجعلك تتوهم أنك قادر على هزم المدينة، وهذا وهم مفيد.

– لماذا لا يكون حقيقة؟

– لأن مدينتنا لا يمكن هزمها يا عزيزي، النقطة الوحيدة التي يمكن أن تكسبها في صراع مخيف مع الرياض، هي أن ترحل عنها.

– أصبحت كلمة الرحيل دارجة عندما يتعلق الأمر بالعشق.

– هل تلاحظ هذا مثلي، جميل. توقّعت أني الوحيدة التي

لاحظت ذلك.

– لماذا في رأيك؟

– لماذا، لماذا، لماذا، لماذا!

ابتسمتُ بخجل، وقلت:

– هذه آخر لماذا، أعدكِ، فقط أجيبيني.

– أعتقد أن في الرحيل طاقة رومانسية معبرة.

– لا.

– ماذا إذن؟

– في الرحيل صرخة كبيرة.

وفي إحدى المرات التقيتُ مريم عدة ساعات، في فندقنا العالي نفسه، وعندما تركتني بعد ارتواء، أرسلت رسالة إلى هاتفي: "أرأيت؟ لم تنتبه الرياض إلى أن التي جاءت ظمأى، خرجت وقد ارتوت كثيراً. المدينة لم تعد تنتبه كثيراً، وضعف بصرها وذاكرتها، ومريم لم تعد مريم، و... خمّن ماذا؟ لا فرق!"

جسر من الكتابة جعل مريم وغيرها كثيرات يعبرن إليّ. تدريجاً بدأتُ أستنتج كم في هذه المدينة من الجياع والجائعات. لا يمكن أن تكون عندنا مساحة ضيقة جداً إلى هذا الحد ولا ننتبه إليها إلا عندما نقع صدفةً في عملية حب. عرفتُ لماذا جدران هذه المدينة أسمك وأسوارها أعلى، ثمة أشياء من الجموح بحيث لا يمكن أن يبقيها في الداخل إلا أسوارٌ كهذه.

ولهذا يتكلم الجميع هنا لغة السرية بطلاقة.

كنتُ أعيد تقسيم حياتي وسط هذا الفيض من الحزانى الذين

جلسوا معي فجأة، شعرتُ بأن لا شيء في حياتي بأسرها كان مصيرياً وحاسماً ومهماً، كنتُ ولداً مطيعاً ومثالياً في أسرة صغيرة وعادية، ليس عندي موهبة ولا ميزة ولا حتى مشروع مكتمل. و لم يبدأ شيء في تغيير هذا المسار البسيط في حياتي إلا النساء، وبدونهن، لا يبقى في الرجل الذي أسكنُ جسده إلا مساحة باهتة هائلة جداً، لا يميزها شيء من أيّ يباب إنساني عابر.

إن حياتي ترسمها النساء، وتاريخي يكتبنه هنّ!

ولا أجد في سجلات عمري أية فسحة زمنية أستطيع أن أعلنها منطقة خالية من الفعل الأنثوي، أو مساحةً لم تتداخل فيها مقومات حضارته، و لم تترك لها أثراً فيّ، وفي حياتي. حتى برجي كان العذراء، وحتى شريكتي في رحم أمي كانت بنتاً قرَّرت ألا تخرج إلى الحياة، وماتت في جواري، في الرحم العميقة، قبل الولادة. تصورت أنها، أختي التي سمّتها أمي (هيفاء)، عندما أحست أنها لا تستطيع إكمال رحلتها، وستموت، حقنت في جسدي اللصيق بها قبل أن تموت كل هرمونها الأنثوي، ورحلت، حتى أستطيع أن أخرج أنا حياً، وأؤدي رسالة مزدوجة في الحياة.

وحتى نفحة الهواء التي اخترت منها أول أنفاسي في الدنيا، كانت من بيروت، المدينة الأنثى، كما أن أول يد بشرية لمست جلدي كانت يد طبيبة أنثى. العذر لي إذا أعلنتُ ولائي لهذا العالم الذي لا أنتمي إليه.

هكذا، كنتُ مستعداً جينياً لحالات العشق، ورقة أمزجته، فلا أمي تعبت في تربيتي، ولا نادية واجهت صعوبةً في حبها لي، و لم

ترهقني كثيراً بنات الصيف اللواتي أراهن أثناء الإجازات في التقاط المتع القصيرة معهن، ولم تتعب غالية في اعتقال نبضي المشاغب، وكان صوت الجورية، صوتها وحده، يكتب تذكرة السفر، ويعدُّ حقائبه.

الوصول إليّ سهل، والإبقاء عليّ صعب. هذا هو أنا مع النساء، باختصار. وحدها غالية التي عاملتني كمشروع أكثر مني كرجل، كانت الأقدر على الاحتفاظ بي، وعندما نجحت، عندما أقنعتني تماماً أنها أطلس كل النساء، اضطرتها ظروفها أن تهجر بنفسها ما سعت في توطينه باسمها، وتركتني أتهادى بين أفقين، ممكن ومستحيل. تركتني مشروعاً في منتصف التنفيذ، اختفت مخططاته، وبقي معلقاً في قصبة الظن.

هل كان ممكناً أن تمنحني غالية لامرأة أخرى، رجلاً محتمل الوفاء؟

ربما كان أكثر من ثلاثين امرأة، مجموع اللواتي نجحتُ في اللقاء الجسدي بهن، لكل واحدة منهن افتتحتُ موسماً مستقلاً من الحصاد، واحتفظتُ بتذكار من القصص.

ولكن، كم هي رتيبة القصص عندما تصبح كثيرة. وكم تمنيتُ في لحظات قديمة لو كان عندي قصةٌ واحدة عتيدة، عن امرأة لا ثانية لها، تختصر كل الحالات التي يمكن أن تمررها لي النساء الأخريات.

وكنتُ صغيراً، فهل يُلام الصغار؟ عندما تدحرجتُ كنرد مذهول على أول أنثى في حياتي، كان عمري خمس عشرة سنة، وكانت هي رقعةً غير عادلة بالنسبة لي، عمرها تجاوز الثلاثين بعدة سنوات، أكثر

من أرقام النرد، أكثر من الصفر الكبير الذي يترجم حصيلة تجاربي مع امرأة آنذاك.

جذبتني بابتسامة واسعة، أكثر الابتسامات التي رأيتها في حياتي اتساعاً، كادت أن تبتلعني بها، و لم تتكلم كثيراً، كانت بضع كلمات تتحرك نحو الهدف مباشرة، وأنا أرتب الرجولة الصغيرة المتفشية في جسدي آنذاك، وأحاول أن أجهز أول تشكيل لها في مواجهة عرض أنثوي كهذا. المكان عيادةٌ صغيرة في الرياض ترددتُ إليها لرضوض في يدي من لعب الكرة، والمرأة كانت طبيبة عربية، وجهها مستدير، وصدرها ضخم جداً، ولافت للانتباه.

جعلتني تلك المرأة لعيناً جداً كما يسميني أحمد أحياناً، ويعرف بحدس الأخ الأكبر أني بدأت أنقّب في أرض النساء، وأبحث عن نصيبي الحياتيّ منهن، ولأن امرأة ما، تركب سيارة فارهة، ومعتمة جداً، استوقفتني ذات يوم مع أصدقائي، وتركت لي رقمها مع بضع كلمات ناعمة، شعرتُ أنني مقبولٌ جداً عند النساء، فطويتُ خجلي ورميته بعيداً، وانتحلتُ جرأة كبيرة في اقتحام الكلام معهن، وكانت تروقهن دائماً.

استيقظ جسدي مبكراً جداً، ولا أدري أي آثار سيئة لحقت بي جرّاء ذلك، أنا متأكد أنها آثار سيئة، أو ربما خسائر مرحلية، لأني حتى عندما أحببتُ غالية، كنتُ معطل الحواس الشعورية إلا من الرغبة، كنتُ مكرساً لذلك العبث، ذلك الطرب الجسدي القصير، خسرتُ عمراً كان أجدر به أن يصاغ جيداً في ذلك العنفوان الضائع.

خسرتُ المرأة نفسها، كموئلٍ روحي عميق كان يمكن أن أنفق منه

على أحاسيسي وقدراتي الشعورية، وأستمد منه لغة الروح، وأقطف منه كبسولة النور أحياناً. امتهنتها كثيراً عندما حولتها من دون أن أدري إلى هدف موقّت، يبدأ بالمراودة، وينتهي بالجنس المتكرر عدة مرات حتى أملّها وتملّني. طوال سنوات والمرأة عندي هدف مؤقت، لم تكن هكذا من قبل، وهي ليست هكذا الآن، ولكنّ اشتعالي الخاطئ ربما جعلني أخسر حضورها في روحي كل تلك السنوات تقريباً.

أصبحت المرأة عندي مجرد خبر، إما أن يكون، وإما أنه كان وانتهى، وإما أنه حاصلٌ في جملة اعتراضية لا أريدها. كم أكره العلاقة التي أنسى بعدها اسم الفتاة! وكلما قفزت في ذهني الآن صورة قديمة لفتاة قضيت معها بعض الوقت، ولم أفلح في قطف اسمها كاملاً من ذاكرتي، أشعر بأني خسرتُ صفقةً كبيرةً معها، أشعر بأني كنتُ في منجم ما، من دون أن أنتبه لما فيه، ولم أستخرج من أنوثتها التي كانت أمامي زيت الشهوة، كما يُستخرج المسك من الغزلان.

أي امرأة، عندها زيتٌ كهذا. ولهذا أنا خسائري كثيرة، والترف الذي غمستُ جسدي فيه بضع سنوات أبطل الكثير من حواسي، وأحرق أشجاراً كان من الممكن أن تغير تضاريس نفسي، لو قدر لها أن تبقى، ولكن النساء لا يعدن، وإن عدن فلا تكون عودتهن كالإتيان الأول أبداً، أبداً.

أتخيل لو أني تثقفتُ مع كل امرأة مقدار ما تثقفتُ مع غالية، أو بعضه، أي رجل سأكون؟

رغم أن النساء يكتبن تاريخي، فإن أجزاء كثيفة من هذا التاريخ

مشوّهة، و لم تحفظ جيداً، كما هو التاريخ دائماً، لا يمكن أن يظل نظيفاً. ثلاثون امرأة، أو أكثر، لم أحفل بإحصاء عددهن إلا الآن، عندما احتجتُ إلى أن أكتب هذه الكلمات، ليس منهن من استطعتُ أن أحوز بيدي منها حدثاً يُروى، أو كلاماً يُقال، ولو على عتبات المقاهي، ولولا أن تجربتي مع غالية غيّرت الكثير، لربما بقيتُ حتى هذا العهد متنقلاً من جلد امرأة إلى جلد امرأة أخرى كبعوضة شبقة، لا يهمها إلا أن تملأ بطنها بالمتعة، ولا أعرف كيف أستثمر حادثة حياتية كبيرة جداً، مثل حادثة لقاء رجل وامرأة.

ورغم أن حياتي ترسمها النساء، فقد كنتُ أرحل دائماً قبل أن ينهين رسمهن، وأحياناً في الخطوط البسيطة الأولى على "سكيتش" التجربة. و لم أكن أعرف أني أغامر بالتعرض للحياة باهتاً، محروماً من الألوان، ومُغيَّبَ التفاصيل المفرِّقة لملامحي، إنها خساراتٌ كبيرة فعلاً.

عندما كنتُ طفلاً، تأمّلت أمي وجهي طويلاً، وأنا مضطجع في حضنها، وكانت تقول: "سينبت شاربك مبكراً"، وكنتُ في المقابل أتأمّل وجهها العابق برائحة الحنو وأندهش، فتردف: "بلى، سيصبح عندك شاربٌ مثل بابا"، فأتذكر شاربه الأبيض الذي يلتصق بلحيته، وأحتج بصوت مخنوق: "ما أبغى شنب، أبغى أصير مثلك.. وجهي نظيف!"

– ولكنك رجّال يا ولدي.

– طيب فيه رجال بدون شنب؟

– هممم، فيه، بس يحلقونه.

– كيف يحلقونه؟

– بالموس.

– ما يعوّر؟

– للكبار بس ما يعوّر، الصغار يعوّرهم.

– لما يطلع لي شنب راح أحلقه.

– طيب يا حبيبي.

– طيب ليه بابا ما يحلق شنبه؟

– لأن شنبه حلو.

– لأ، انتي أحلى!

وتقبّلني أمي في شفتي، في شفتي تماماً، كعاشقين، وتضمّني إلى صدرها كأنما كنتُ تائهاً منذ قرون، وتمد عليّ دعاءها المعتاد: "جعل يومي قبل يومك، الله لا يحرمني من حبيبي"

كنتُ محظوظاً برعاية أمي، محفوظاً جداً عندها وكأني حبة فستق بين شقيها الصلبين، ولولا أننا بشرٌ لحملتني على ظهرها مثلما تفعل السلحفاة بصغارها. دللتني بمزاج موصول عند أبٍ لا يحتجُّ عليها بدعوى الإفساد كما يفعل الآباء عادة، بل يعينها على مشروعها المتواصل في إبقائي معلقاً بين دفتي سماء، كنعمة إلهية.

****

حلّ العيد، وقررتُ أن أسافر إلى بيروت. صباح ذلك اليوم، أفقتُ بمزاج قلق، كما هي حالي دائماً قبل السفر. سمعتُ صوت أبي في

الحديقة. نزلتُ إليه بعد اغتسال سريع لعلي أجلس معه قبل أن يحين موعد الطائرة، ووجدته قد أوى إلى طاولته الصغيرة في ركنه الذي يحب أن يقرأ فيه جرائده دائماً.

كنتُ أشعر بحموضة ما في عقلي، أو قلبي، لا أتذكر تحديداً، ولكنها لا تبعث على السكينة. كنتُ متفقاً على لقاء مريم هناك بعد أن سبقتني إلى بيروت منذ بدء الإجازة، بينما تأخرتُ أنا إلى اليوم الثاني للعيد حتى أمارس طقوس العيد الأولى مع أبي.

– أهلاً يا، يا (مسافر وحدك).

قالها أبي، وابتسامة ضئيلة تنحشر في فمه الصغير، وتكملها عيناه اللتان تضحكان بصمت من وراء النظارة.

– صباح الخير، أمس رجعت ما لقيتك عشان أقول لك إني مسافر.

– يعني كنت ناوي تودعني (من غير ما تسلّم).

محمد عبد الوهاب حاضرٌ معنا إذن على الطاولة الصباحية التي تجمعني بأبي، وأغنيته اللطيفة تلك تحتل مزاج أبي في صباح اليوم الثاني للعيد.

أتمنى أحياناً لو أرث من أبي قدرته الفائقة على ضبط مزاجه لسنوات، من دون أن يختل إلا في ظروف نادرة جداً، ولفترة قصيرة غالباً، هذه الروح الراضية التي تفوح من قميص أيامه تثير الحسد فعلاً، هو الذي يمتطي آخر عقده السابع على عجل، وأنا في أواخر العشرين وعندي مزاجٌ متقلب كهلام على صخرة.

ربما نظامه المحكم جداً في إدارةٍ الوقت والتاريخ يجعله يفوز

دائماً بهذا المزاج المستقر، بجوار الاستقلالية التي يحيط نفسه وأسرته الصغيرة بها، أقول ربما ولا أدري، لأني أحتفظ لنفسي بحياة شبه منتظمة كتلك، ولكنّ مزاجي شيء لا يمكن تنظيمه إطلاقاً.

– عندي أشغال في بيروت.

– فعلاً، بيروت تحتاجك هذه الأيام، هناك أزمة برلمانية.

تضحك أمي، وأبتسم أنا لسخرية أبي العابرة. تبادلنا بعض الكلام، وبعض القهوة، ثم تركتهما وهما يستعدان للخروج. قال أبي قبل أن يذهب:

– لا تنس نادية يا حسان.

– طبعاً يا والدي، طبعاً.

قبّلته على جبينه ويده، وضممتُ أمي. ثم جلستُ أكمل قهوتي بهدوء، وقد أصبحت فكرة السفر إلى بيروت تروقني جداً.

عندما تحركت السيارة فعلاً، شعرتُ بأن قلبي ينبض بسذاجة، وكأنّ بيروت صارت وهماً لا أصدّق أنه ينتظرني حقيقةً خلف ساعتين ونصف الساعة فقط. ثمة كنوز صغيرة تخبئها لي مريم وبيروت حتماً. طرق دمي أبواباً صغيرة في جسدي ظلت مقفلة منذ أن رحلت غالية، وعروقاً تتكفل دائماً بالنشوة والرغبة في الحياة، وفي نيل بهجة عابرة قبل أن يسحبها القدر من أمامي، ويعيدها إلى جيبه، فبدأت أستحضر في الطريق إلى المطار تلك الفلسفات التي تمجّد المتعة، ووجدتها سهلة المرور في فرجات عقلي.

في الطائرة فكرت ما الشعور الذي سيراودني لو لم أجد

ما أتوقعه من متعة؟ هل سأنسجم مع دور السائح الذي لم يأت من أجل السياحة أصلاً، وإنما رضي به كمعطى إضافي؟ أو أنني سأنتكس كعادتي الطفولية الدائمة، وأسعى للخروج من دائرتها المغلقة التي دخلتها راضياً، وأحاول تبرير كل تصرفاتي المضادة لمصلحة ظروفي، ملقياً كل التبعات المتعلقة بضميري في منطقة التفكير المؤجل؟

هذا هو المطار أخيراً، وهذه مريم، تقف في زحام المستقبلين كأنها شجرة من أشجار الزينة البلاستيكية النحيلة، قبّلتها، وضممتها، وشممتُ في شعرها رائحة تدخين قريب يموّهه عطرٌ ثقيل بدا واضحاً أن مريم رشّته توّاً. خرجتُ معها من المطار إلى السيارة التي تنتظرنا خارجه.

تخاطبني مريم بلقب (حبيبي)، وأنا أشعر بأن الكلمة ثقيلة جداً على سمعي، وكأنها طبلٌ صفيق. لم أكن أستطيع أن أطلب منها اختيار كلمة أخرى حتى لا أبدو سمجاً متعالياً. كان واضحاً أنها تستمتع كثيراً بشكل علاقتنا المسرحي هذا، والطريقة التي نتداخل فيها مع أنفسنا من دون تشابك خطر.

ورغم القليل من الخشونة التي تشوب تصرفات مريم، وردود أفعالها غير المبررة أحياناً تجاه شؤون سخيفة، كنتُ أشعر بالراحة معها. كانت علاقتنا تشبه التمارين الرياضية، والاستمتاع بالإرهاق.

كأن علاقتي بها تثبتُ اقتناعي بما قاله لي أيمن يوماً. أحياناً أتخيل أنه مرّ بأشياء شبيهة بما مررتُ به أنا، وإلا فكيف نقع على الأفكار

نفسها في النهاية، وأحياناً أخرى أنفض هذه الفكرة من رأسي، وأفكر بشكل منطقي: ربما استشعارنا المسبق لتشابه اقتناعاتنا، هو الذي جعلنا نبدأ هذه الصداقة أصلاً.

كان يقول عن علاقتي بمريم:

– هذا هو المستوى الحقيقي للعلاقة مع الأنثى، بما أنك لا تخدع، ولا تكذب، ولا تغوي، فهناك امرأة تريدك أنت، وأنت تريدها، وفق اتفاق ضمني أن لا تربطا مصيريكما الواحد بالآخر. من الذي ابتدع بدعة الحب المصيري هذه؟

كنتُ في مزاج عابث وهو يقول لي هذا الكلام، ولهذا أجبته بسخرية:

– قيس.

– ليس وحده، بل ابتدعتها العقلية الذكورية المسيطرة عبر التاريخ، عقلية احتكار المرأة، واعتبارها من بقية الأملاك التي إما أن تحوزها، أو تقاتل من أجلها، أو تموت كمداً عليها. حتى المرأة نفسها متأثرة بهذا الاغتيال الجماعي لجنسها، وأصبحت تتجه لا إرادياً لأن تحول نفسها إلى هذا الشيء المملوك، فتريدك أن تتزوجها، أو تسعى للزواج بها، أو تعلن حزنك عليها، الشيء نفسه!

تذكرتُ غالية، وقرار عودتها أخيراً إلى مطلّقها السابق، ترى هل عادت إليه فعلاً أم ترددت؟

– اتفق معك يا أيمن، ولكن من الصعوبة أن تقف في وجه مجتمع بأسره. أنت تعرف أني لا أملك هذه الروح النضالية، أنا أعيش يومي الآن، ولكني أعرف أني لا بد منته إلى امرأة واحدة في النهاية،

ستكون زوجتي، والسلام.

– هذا في النهاية، لا بأس، أما الآن فصدقني أن لا أحد يلومك على سلوكك الحالي، لأنه سلوك فطري، يشبه سلوك الطيور التي تتجه في كل موسم تزاوج إلى شريك جديد، مما يجعل حياتها أخصب، وأجود. هل هناك أسعد من الطيور؟

– ربما.

– لا تبدو مقتنعاً.

– ماذا يهم في الموضوع؟ لا يوجد أي قرار ينتظر أن أتخذه. ها أنا أعيش مثلما تريد الرياح.

– أعرف. ولكن بعض نوبات الذنوب والندم التي تحتل وجهك فجأة، تستفزني.

– ربما أنا ضعيف أمام النقد واللوم.

– فكّر دائماً في من يلومك، ستجد أسباباً خفية وراء لومه لك، لا علاقة لها بالمثالية التي يدّعيها.

– ولكن هناك نساء مثاليات فعلاً، لسن مثل مريم، لا تنكر هذا.

– لا أنكر ذلك، بل هناك نساء خارقات جداً، أنت لا تفهمني جيداً، النساء لسن قطيع أغنام متشابهة يا رجل. هل تعتقد أن جنس الرجال وحده هو الذي يأتي بالعظماء والكبار، بينما الجنس الأنثوي ليس كذلك؟

– لا طبعاً، لا أقصد، لكنْ...

وقاطعني بيده، وهو يرشف البقية من كوب الماء، ثم أكمل:

– في النساء عظيمات، مميزات، خارقات، واستثنائيات فعلاً، لا

يمكن أن ترفض هذا، ولكن السؤال: هل المرأة الاستثناء، الأفضل، الأعظم، الأكثر تميزاً هي الأفضل لك بالضرورة؟

– لا، طبعاً.

– أكيد، لأن امرأة كهذه سيقتلك تميزها أكثر مما سيمتعك، أولاً لأنك ستحبها اقتناعاً بعقلك مثلما ستحبها انجذاباً بقلبك، وهذه الازدواجية في الحب ستقسمك نصفين عند أول منعطف في علاقتكما.

– لماذا تسميها ازدواجية؟ ربما كانت وحدة عقلية قلبية تجعل الأمور أكثر يسراً. أنا وغالية اتفق قلبانا حتماً، ولكن اختلفنا في القرار الصحيح الذي يجب أن تتخذه، هذا اختلاف عقلي.

– لا، بالعكس.

– كيف العكس؟ هل تعرف غالية أكثر مني؟

– لا أعرفها، فقط إسمع وجهة نظري. اختلافك مع غالية هنا ليس اختلافاً عقلياً لأن كلاً منكما رأى رأياً مختلفاً، بل لأن كلاً منكما يمتلك قدرة عقلية مضاهية للآخر، وهذا ما اعترفتما به منذ البدء، وعبرتما عنه بالحب، فلو لم يكن حبّكما عقلياً، لاستطاع أيٌّ منكما أن يقنع الآخر. باختصار، لو لم يكن حبكما عقلياً، لأصبحتما تفكران بعقل واحد، عقلك أو عقلها، فتتفقان حتماً.

– طيب وما الحل؟ ماذا كان يجب أن أفعل؟ هل أطفئ عقلها منذ البداية؟

– لا، كان عليك أن تتجنبها منذ البداية. تهرب منها بالأحرى. دائماً حاول أن تجعل المرأة المميزة، العظيمة، الاستثنائية صديقتك،

وليس حبيبتك، ستستمتع بصداقتها أكثر من حبّها، تميزها سيؤذيك، سيؤلمك، وفي المقابل، لا أريح، ولا أجمل من حب امرأة عادية، تجدها في كل مكان.

ابتسمتُ ابتسامة واسعة، وهربتُ ببصري بعيداً عن وجهه، وتمتمتُ بكلمات خجلى من منطقه القوي.

- هذا صعب.

- هناك أسبابٌ أخرى لم تدعني أقولها، وهي أن المرأة المميزة صعبة التعويض إذا ما حيل بينك وبينها، وأخيراً حتى لو بقيت معك، فستكون امرأة متطلبة غالباً، وترهقك.

ساد صمتٌ قصير، وأنا أفكر في كلامه بعمق، وابتسم.

قال أيمن:

- إذا رأيتك تبتسم بعد كلامي أعرف أنك مقتنع تماماً.

وأدار وجهه نحو الجهة الأخرى من المقهى، وهو يبتسم ابتسامةً لا تخلو من خجل طفيف.

بعد صمت عابر، عاد أيمن يتكلم بانفعال أقل، ونبرة أكثر هدوءاً، وببطء:

- تعرف يا حسان أن كل امرأة مميزة يخلقها الله، يخْلقُ معها أحزاناً ومشاكل كثيرة، لأن تميزها هو خروج عن المألوف، وإلا ما كان تميزاً أصلاً، ولابد من خسائر إذن، هناك خسارة مرادفة يجب أن تحدث في مكان ما على الأرض، إما في قلب رجل، أو في أوراق كاتب، أو في مصير أسرة، أو حتى في تاريخ دولة، إلى آخر فساد تنفثه في الأرض أنثى عظيمة ما.

- رحمتك يا الله.

- حتى هي نفسها يؤذيها تميزها. ولو أنها كانت عادية، لربما كانت آلامها أقل.

- صحيح، البسيطات عادةً لا يحزنّ كثيراً، سطحية التفكير كثيراً ما تتعارض مع عمق الهموم.

- ولهذه أقول دائماً: اجعلهن عاديات يا إلهي، تصبح الأرض أكثر هدوءاً.

ضحكتُ من عبارته الأخيرة، وصدّقتُ عليها بإيماءات رأسي، قبل أن يضع أيمن عبارته الأخيرة:

- تذكر دائماً أنه من نعم الله الكبرى، أنه لا يوجد علاقة تناسبية بين جمال النساء ومستوى عقولهن، وإلا لانقسمت النساء إلى: إما نابغات لا قِبَل لنا بهن، أو طحالب لا يلفتن الانتباه إطلاقاً!

هكذا أيمن، دائماً متّكأ لي، في لحظات كثيرة أشعر براحة كبيرة معه؟ أحياناً لا أعتقد أن عمرنا المتقارب جداً، أو ثقافتنا، أو أياً من العوامل المتشابهة الأخرى، سبب ذلك، بقدر ما أعتقد أن مهاراته الاجتماعية عالية جداً، مما يجعله ذكياً في قراءة شخصيتي، والإتيان سلوكياً بما يناسبني، فأشعر بالراحة معه.

ويكسب هو تألقاً اجتماعياً متزايداً، معارفه كثر، حتى إن شعرة واحدة تكاد تفصله عن أن يكون مشهوراً مثل النجوم. الكثيرون يسلّمون عليه هنا، ومعظمهم أصدقاء قدامى، أستغرب الحميمية الخاصة التي يبديها الجميع عندما يلتقونه، وأسأل أين وجد أيمن وقتاً كافياً يقضيه مع كل منهم حتى يجعله حميماً إلى هذا الحد؟

متى أصبحتُ أنا نفسي صديقاً حميماً لأيمن؟ وهل قضيتُ معه وقتاً كافياً يبرر ذلك؟ لقد قضيت مع أخيه وزّان وقتاً أطول، بحكم أن صداقتنا ابتدأت قبل تعرفي إلى أيمن بأشهر. أحياناً أشعر بأن وزّان لم يعرفني إلى أيمن، إلا كجزء من العلاج.

****

زرتُ نادية صباحاً.

الشوارع التي رصفها الربيع باخضرار مفاجئ أخذتني إليها، تلك هي نفسها التي ظلّت تأخذني إليها طوال سنوات عديدة كل إجازة بعد الحرب، وسنوات قليلة أخرى لم أكن أتذكر فيها شكل الشوارع تماماً، ولكني كلما مررتُ بها، اكتنفني شعورٌ طاغ بإلفة متوحشة، غائصة في طفولتي، ولا أستطيع انتشاله تماماً، ولا تذكر تفاصيله.

هنا شممتُ الرائحة الأولى في الحياة، وعثرتُ بعثاري الأول، وتكلمتُ كلماتي الأولى. أبي وأمي كانا يعملان على مشروع تنشئتي كشجرة أرز في لبنان، محاط بالمكان الجميل، والكلام الجميل، ومهدهد في قلب موّال، أو متدلٍ من تويج زهرة. كانا يعتزمان البقاء هنا بقية العمر، وكان أبي سيبني بيتاً في جوار بيت نادية، ووداعاً أيتها الرياض الغريبة.

المنعطف الأخير قبل بيت نادية، ثم الدجاجات المتناثرة أمامه مثل كرات كبيرة من القطن، تتدحرج هاربةً من السيارة التي اقتربت،

ومنبهةً نادية التي هرعت من الفناء الخلفي، وفي يدها دلو ماء كبير، ورداؤها الخفيف محشور بين فخذيها. كانت ترشُّ الحديقة.

مات زوجها قبل سنوات فقيراً، وهي لا تزال متشبثة بعرق الحياة. أزورها دائماً، وتعانقني مثل فتاة مراهقة في السبعين، وتطوّق عنقي، وتختار لقبلتها أوفر مكان في خدي. كنت وحدي في مرمى شفتيها النحيلتين، ولكنها كانت تقبّل فيّ، أمي، وأبي، والسنوات اللطاف التي غلّفت علاقتنا كأسرتين صغيرتين، تجاورتا ردحاً من الزمن في جونيه، ثم تلوّنت الأشجار بألوان أخرى.

– يا ابني كيفا أمّك، وكيفو بيّك؟

– كلهم بخير، ومشتاقين لك كثير.

– وليش ما إجو معك؟ شبن، تعبانين شي؟

– أبداً، كلهم بصحة ونعمة، وجايين في الإجازة القادمة كالعادة.

– أي، والله يا ابني الحالة متل مانك شايفَا، معتّرة، وأنا كبرت خلاص.

هكذا نادية في السنوات الأخيرة، تفتح صنبور الشكوى من دون مناسبة. كنتُ أعرف أنها في حال كسوفٍ مستمر، وبعد موت زوجها ازدادت وحدةً وتعاسة. بيتها الذي عشتُ فيه طفولةً لا تسعفني بها الذاكرة كان يهترئ يوماً بعد يوم، وتغير ملامحه محاولاتها الكثيرة لترميمه بشكل غير منظم.

– الله لا يحرمني منكن، والله لولا مساعدتكن كان أنا خلصت من زمان، كسرت ضهري هالارض الجردا، منزوعة بركتها نزع.

- انتي غالية علينا يا خالة، احنا أهل.

حضّرت لي قهوة، وإفطاراً بسيطاً من بيض، وخبزاً أبيض جلبه صبي قريب، وبعض الأجبان، جلستُ أتناول إفطاري في مطبخها الصغير، وهي تجلس في جواري، وتتكلم كلاماً كثيراً جداً. تحكي لي عن كل شيء، منذ أن زرتها آخر مرة، كيف تركها الفلاحون الذين كانت تتفق معهم على فلاحة أرضها مقابل جزء من الفواكه وبعض الخضر. حكت لي عن الشتاء الأخير كيف جاء قارساً، وعن فاتورة الكهرباء، وعن انقطاع خط الهاتف، وعن آلام ركبتيها، والدجاجات التي تنفق، والزيت الذي ينفد أسرع من المعتاد. الكثير من الشكوى، فقط.

لماذا لا تحدثني نادية مثل حكاياتها القديمة؟ أساطير الضيعة، وتخاريف الماضي، والأشياء الغريبة التي كانت تقصها عليّ قديماً، وفي كل مرة تتغير القصة، لأعرف أن نادية تسرد من مخيلتها أكثر مما تسرد من ذاكرتها، المهم أن تبقيني مستمتعاً، ومشدوداً إليها بالأذن والقلب. لماذا منذ مات زوجها أصبح كلامها لا يخرج عن حيز الشكوى والتذمر؟ هل هذا الذي كسر حالها كسر حكاياتها أيضاً؟ هل هذا وجهها الذي كنتُ أسامره ليالي طويلة وكأنه وجه فتاة غجرية، لا وجه امرأة في أرذل العمر؟ هو الآن جامدٌ على الملامح ذاتها منذ زيارتي الأخيرة، وسيبقى هكذا حتى أزورها في المرة القادمة. أصبحت زياراتي لها مجرد واجب تمليه عليّ ذاكرتي الخصيبة معها، ولولا هذه الذاكرة لما كنتُ هنا الآن.

لا شيء يبقى على حاله، حتى وجوه المُسنّين التي نحب، وحتى

مواقيت الفصول صارت تتغيّر حسب مقياس الوجع الجديد. إلى هذا البيت كان يهفو قلبي قبل أن تبلغه خطاي الراكضة نحو حضنها الهزيل، والآن أجيء إلى هنا هارعاً إلى الساعة في كل حين، لعلها تدور سريعاً، ولعلي أنصرف بعد أن أكلني الملل.

أصبحت مملة، نادية، أرجوحة الحكايات القديمة... صدئت.

تركتُ في يدها الدولارات الألفين التي حملتها لها معي، وحقيبةً كبيرةً من الملابس أرسلتها إليها أمي، ووعدتها أن أزورها دائماً خلال إجازتي.

– ببيروت انته نازل؟

– أجل.

– وليش ما نزلت عندي يا ابني، لشو هالأوتيلات والغلبة؟ انت ما تعلمت تمشي ولا تحكي غير بي هالبيت.

– أكيد، ولكن معي صديق، وكمان عندي أشغال كثيرة في بيروت.

– بالسلامة يا ابني.

قلتُ لأبي مرةً بعد عودتي من بيروت "إنني أحب نادية كأمي، ولكني أحب نادية التي ضربتني عندما بلتُ على العشب، والتي حرمتني الخروج يومين أمامك أنت وأمي عندما ضعتُ منها في مشوارنا نحو البقالة، من دون أن تتدخلا في قرارها. أحب نادية القديمة التي كانت تتصرف وكأنها تقاسمكما سلطات أبوتكما لي، أحببتها أكثر من نادية الآن، العجوز التي نُحسنُ إليها ونتصدق عليها كل إجازة".

ورمى أبي نظرته خلف كلامي، و لم يزد على قوله:

– الله يلطف بحالها يا ولدي.

الإحسان يقطع من الجسور أحياناً أكثر مما يبني، وأبي قال إنه ربما يجعل نادية تقيم في شقتنا في بيروت إذا اشتراها، لتهتم بأمورها في غيابنا. تدريجاً ستتحول نادية إلى خادمة بعد أن كانت جارةً طيبة، وأماً بديلة، وصديقة عريقة، تباً للأشياء التي نعرفها، ولا نملك تبديلها.

VII

كان يوماً صعباً بالنسبة لي، والكثير من العرق نضحته على قارعة التفكير، وأعوضه بقارورة الماء البلاستيكية التي أقبض عليها بتوتر، فتحتجُّ بأصوات تكسراتها المرتدة. جزتُ الغرفة المربعة مراراً منذ أن عدتُ من صلاة الفجر، ولم أتمكن من النوم مرة أخرى. كانت الفكرة تتوغّل في عقلي بشكل مؤلم، ومشاعري تركض من أقصى القلب إلى أقصاه، وتطلق أصواتاً عالية، وتحدث صخباً لا يمكن معه أن أركن إلى قرار هادئ.

"يبدو أنك لم تنم جيداً"، قال أبي ونحن نمشي على مهل، عائدين من المسجد، والرياض تستيقظ ببطء. "شيل التلفزيون من غرفتك، أنا ما صرت أنام مرتاح إلا بعد ما شلته"، وأومأت برأسي علامة إيجاب مطواع، قبل أن ألاحظ أنه لا يراني ما دمنا نمشي متحاذيَين، فتمتمتُ بخفوت "ليس التلفزيون يا أبي، هناك بعض الأمور تشغلني هذه الأيام".

صمت أبي قليلاً، ثم قال وهو يدسّ المفتاح في ثقب الباب الخارجي للبيت:

- كان الله في عونك.

فكرتُ أن أصارحه بما يشغلني، ثم آثرتُ أن أفعل ذلك في وقت لاحق، فربما استطعتُ أن أتوصل إلى قرار مريح وحدي هذا اليوم. افترقتُ عنه بعد أن بلغنا الطابق العلويّ، واتجهت إلى غرفتي في أقصى اليسار.

رأيتُ عصفوراً رمادياً من عصافير الرياض المتعَبة يقف على نافذتي، يتأمل غرفتي بفضول من وراء الزجاج السميك، هل بعثته غالية؟ ربما تجنّد العصافير في مهمات يومية كما تفعل الجميلات، لتحرّضني على قرارات صعبة، أو أن شيئاً مشروخاً في عقلي صار يرى غالية وراء كل ما يحدث في حياتي.

وقفتُ أمام النافذة أتأمله قليلاً لعله يساعدني، ولكنه لم يفعل. نظر إليّ بعينيه الجامدتين، ورأسه المائل، قبل أن يقفز عدة قفزات على ساقيه النحيلتين، ثم يقرر أن يترك نافذتي ويطير، ليحط على خزان بيت جارنا تركي، ويحاول أن يحسو من الماء القليل المتجمع فوقه.

ربما كنتُ أقلّ حيرة الآن مما أنا عليه لو أن غالية جاءت أقل جمالاً، لأجيء أنا أقل اندفاعاً في المقابل. المشكلة أنها استأثرت بتلك الفتنة الجنوبية الطاغية التي تقرص القلب، وتسقطه في حالة شهوة كبرى للظفر، والامتلاك، والاستئثار بهذا الينبوع الأنثوي المكتمل، كل يوم، وكل ليلة. لا أستغرب أنها تزوجت في تلك السن المبكرة. رغم حياتها المنعزلة هي وأمها، طارت الأخبار إلى الساحل الغربي، ليطرق بابهما فجأة رجلٌ لا يعرفهما، ولا يعرفانه، ويعود بغالية.

الأغنياء لا يملكون فقط القدرة على جمع المال، بل الحقيقة أن

الغنى يمنح ذويه مهارة خاصة تمكنهم من اقتناص الأشياء الجميلة وحيازتها أفضل من غيرهم، أياً كانت هذه الأشياء. كان في الثلاثين من عمره، وهي في التاسعة عشرة، وكانت سنتها الأولى التي تدرسها في الجامعة كافية ليتسرب خبر جمالها كما يتسرب الصباح تدريجاً فوق الدنيا.

تحسستُ هاتفي، وهو قابعٌ على الطاولة مثل ماراثوني منهك، شاشته الصامتة تخفي وراءها غيباً ما. هذا الهاتف نفسه كان هديةً منها، لم يكن عيد ميلاد، ولا مناسبة أخرى، كان مجرد بديل لهاتفي القديم الذي كان في جيبي عندما دفعتني غالية في حمّام السباحة الكبير في بيتنا.

– حسان، هل الماء بارد؟

واقتربتُ لألمس سطح الماء، وأعود إليها بالخبر، واختلط صوت ارتطامي بالماء بضحكتها النافذة التي تخرج بأناقة مفرطة، مكتومة بعض الشيء كأنها غصّت بلؤلؤة، وتدحرجت من فمها رنات مدوزنة بانتظام شديد.

منذ أن بدأت ألتقي غالية مراراً، ما زلتُ ألمس فيها حالات متقنة جداً من الفتنة، والكلام، وألاحظ حتى طريقتها في الضحك والبكاء. هذه الحالات تلتصق بالذاكرة مثل الكائنات الهلامية، وتفرز كل ما يمكنه أن يقلب كيمياء الروح، ويغير قوانينها، وتظل في رسالتها الطويلة تلك حتى يصبح قرار الحب جاهزاً، وموضوعاً على الطاولة، بانتظار أول نبضة قلب تستيقظ في الصباح، وتحمله إلى بقية العمر.

غمرتني غالية بالآلاف من هذه الحالات، فلم تترك لي فرصة

للتعود. لفتات وجهها تبرق في عقلي مثل الفلاشات الضوئية المبهرة، والكلمات التي تقولها بتحريف متعمد تظلّ معلقة في سمعي مدة طويلة مثل الأوتار المشدودة. أكررها على نفسي وكأني أحاول تعلم لغة جديدة، بينما أنا أزداد انغماساً في قناعات عاطفية مبهمة، أنها الفتاة التي أريد.

اتجهت غالية نحو باب الغرفة الملحقة بحمّام السباحة، وأغلقت بابها بإحكام، وراحت ظلالها من وراء الباب الزجاجي المموه تنحني وتستقيم عدة مرات، بما يشي أنها تغير ملابسها، وتعلقها بترتيب في المشاجب المنبثقة من الجدار السيراميكي الأزرق، ولكنها في الحقيقة لم تكن تغيرها كما بدا لي، بل كانت تخلعها فقط.

بعد ثوان، مشت نحو المسبح وهي تبتسم بدلال، ثم تغمس نفسها فيه تدريجاً، عارية تماماً، وراحت دوائر الماء من جسدها المنحدر، تحجُّ إلى أطراف المسبح، تلقي أخباراً، وتجلب ماءً جديداً يلمس جسدها، ويلمع على بطنها، وصدرها، وخدها، ويقطر من شعرها الطويل على فمي. سرق الماء من جلدها الكثير من نُحاتة الضوء، وذوّبها في هذا الماء الكثير، ثم سرّبها من مسام جلدي، آلافاً من الطرواديين الصغار.

كانت أحداثٌ كثيرة تتدافع في سجل العشق المائي ذاك، قبلةٌ بطول أنفاسنا المحبوسة على عمق مترين، وسباقٌ جذلٌ بين طرفي الحوض، وعناقٌ محموم فوق طوق المطاط. وغالية تجيد السباحة مثل سمكة قضت حياتها في البحر، وأنا يدركني اللهاث ولا أملك مجاراتها، ولكني أحاول بصعوبة أن أبدو متماسكاً، وأخفف قليلاً

من علامات الانبهار المحرجة التي راحت تطفو على وجهي، وكلماتي.

عندما اضطجعنا معاً على ضفة الحوض كانت غالية ملساء جداً، يقطر منها الماء، ونظراتها الملقاة على وجهي كانت صاخبة، والأشياء التي حولنا تشهد العزف المجنون الذي تؤديه غالية على أعصابي، حبات الماء، وزجاج السقف، ودهشات الرخام. وقعتُ عليها مثل متسلق بلغ القمة أخيراً، وشعرتُ أني لم أركض مسافة كهذه من قبل، و لم أنتفض مراتٍ بهذا العدد، منذ أن ابتدأت حياتي.

غالية الآن تحتل جهات غرفتي الأربع. أحاول أن أتجنب الاتصال بها خشية أن أخدش القرار. حاولتُ أن أضع المعادلة في أبسط صورها لعلها تمنحني حلها المفقود، أو تومئ إليّ، وتتزن، ولو لثوان معدودات، أتخذ فيها قراري، ولا أبالي بعد ذلك.

شربتُ كل ما تبقى من قنينة المياه الصحية في جوار سريري، ثم حملتُ هاتفي، واتصلتُ بها:

– غالية.

– مرحباً حبيبي.

– أعتقد أني أحبكِ فوق قدرتي على احتمال غيابكِ.

– حبيبي، توني شفتك من يومين!

– انتظري قليلاً حتى أنهي كلامي.

وتضحك غالية.

– طيب، ولكن من البداية، صدقني ما أقدر أشوفك، لأن أمي داخت اليوم، ولازم أقعد معها.

– ليس هذا سبب اتصالي.

– طيب كمّل.

– أحبكِ!

– وأنا كمان حبيبي.

– وأعتقد أنكِ كنتِ كريمةً جداً عندما أحببتني.

– حياتي أنت.

– وأعتقد أني استيقظتُ اليوم صباحاً، لأكتشف أن أقبح مساحة في العالم هي مساحة السرير الزائدة عن جسدي، والخالية من جسدك.

– ....

– وأعتقد أني لا أملك خياراً آخر، إلا أن أتزوّجك.

أذكر أن غالية صمتت طويلاً، ثم نشجت، وبدأت تبكي.

مضى كل شيء بعد ذلك بيسر، حتى اليوم الذي صارحتُ فيه والديّ برغبتي في الزواج بها كان ناعماً كالحرير. أبي لم يعترض البتة، وكأن الأمر لا يعنيه، بل ضحك قليلاً وهو يردّد بصوت عال: "لم يكن مجرد مقال في المجلة إذن"، ثم نهض من جلسته كي أفهم أنه لا يطالبني بالتبرير، وأنه كان يمزح فقط، "رتّب مع أمك، والله يكتب اللي فيه الخير". أما أمي فقد أبدت بعض التحفظات الطفيفة تجاه أمومتها.

– يا ولدي أنا عارفة أن غالية بنت طيبة، وأمها كمان، لكن تمنيت لك بنت متفرغة، ما عندها أولاد، ولا تزوجت من قبل.

– أهم شيء التفاهم يا أمي، هذي التفاصيل بسيطة.

– طيب فكر أكثر، خلي الخطبة تطوّل.

– فكرت كثير يا أمي، هذي القرارات مو سهلة، وأنا مو مراهق عشان أندفع.

– وابنها؟

– راح يعيش معنا، اتفقنا على هذا الشيء من زمان.

– متأكد أنك تقدر تتحمّله؟

– بالتأكيد يا أمي.

رضوخ أمي وموافقتها السريعة شكّلا لنا دهشةً جماعية، هي التي كثيراً ما حدثتني عن تلك الفتاة التي ستختارها لي عندما أقرر الزواج، وأنها لا بد أن تكون موزونةً في كفّ الرحمن، حتى لا يوجد في الدنيا امرأة أفضل منها. ها هي تقبل تزويجي مطلّقة، وأمّاً، وقد ابتلعت في سبيل موافقة كهذه تقاليد هائلة.

انتظرنا أسابيع قليلة ليعود والد غالية من سفره، وكانت موافقته فورية جداً، كعادة آباء المطلقات، وانتهت الطقوس المعتادة سريعاً، الخطبة والقران في يوم واحد، وأصبحت غالية زوجتي تقريباً، على أن يتم الزفاف خلال أسابيع لا أكثر.

وجهي آنذاك أصبح مرآةً كبيرة، يُرى فيها كل شيء. والأحلام التي طفحت من قرارة القلب، لتحتفل في ذروة الجبين. كل السعادة التي أسقطها الله على الأرض التقطتُها وحدي تلك الليلة، وركبتني نشوة العالمين، وبركتهم، وخير ربهم. بقيتُ في بيت غالية حتى ساعات الفجر الأولى، أرقصُ معها مثل مهرّجَيْن جُعل رزقهما في رقصهما، فذهبا يجتهدان في ذلك كثيراً. التقطنا مئات الصور، ودارت بي غالية في أرجاء البيت بعد أن انصرف المدعوون، حوّلنا

المكان إلى فوضى كبيرة، وتناولنا قبلات عميقة جداً، سالت لها شفة غالية بدم طفيف.

أخذتني إلى غرفتها وقد تحوّل جذلها إلى ما يشبه سكرةً صغيرة، وليس مجرد حبور، وأنا أشعر بأني واقفٌ فوق أعلى قمة على وجه الأرض، حتى أني أشمُّ أصابع القدر، وأشعر بالندى يكتنف كل زاوية ضيقة من روحي، ويغسلها جيداً بعطر غريب. إلتصق أحدنا بالآخر أكثر من أي يوم، وأبلغ من كل مرة، وأعلى من كل لقاء، لهثنا كثيراً، وابتسمت لي غالية الابتسامة التي لا تصنعها إلا شفتاها فقط، وهمست:

- فيه شي مختلف.
- ما هو؟
- هالمرة، حلال.
- ولكني لا أرى أن المرات السابقة كانت حراماً!
- هممم، صحيح، ولكن ليس باتفاق الجميع.

عدتُ من بيتها ذلك اليوم في السادسة صباحاً، نزلت دموعي وأنا أخلع ملابسي، وأستحم، وأتخيل وجه غالية الذي صار موشوماً على كل بقعةٍ من جلدي، ويملأني جذلاً مثل بالون أحمر في سماء كرنفال مجنونٍ. كم أنت كريمٌ في منح السعادة اليوم أيها الأعلى، فامنحني فماً أوسع لأضحك، وجبيناً أطهر لأسجد، وشفاهاً أكثر لأبتسم ابتسامة شاطئية تختصر كل ملامحي منذ أن ولدت، وحتى أصبحتُ هذا الزوج السعيد.

مرت بقلبي أنواعٌ من النبضات لم يعرفها من قبل، واشتعلت

في وجهي أضواء لا تشتعل إلا مرةً واحدة في عمر الإنسان، واستهلكتها غالية كلها آنذاك، في شهر وحيد، كان يقع محشوراً بين عقد قراننا وليلة الزفاف الموعودة.

ليت أمي لم تصر على أن تقيم حفل زفاف. كنتُ تمنيتُ لو أن الزفاف كان مجموعاً في ليلة القران نفسها، ولكنّ أمي أصرّت.

– كم مرة راح أفرح فيك يعني؟ مو كفاية كل شي اتفقتوا عليه انت واياها من دوني، خلي لي أنا موضوع الحفلة، يعني انتو مستعجلين على ايش؟ كلها شهر واحد نحضر للحفل، وانتهينا.

لأننا كنا جذلين جداً، كان الشهر أكثر من أن نعتد به، نمتُ في بيت غالية ليالي ووالدتها تهزُّ رأسها بابتسامة غامضة إذا رأتني، وتتعجب لأمر الزوجين اللذين ينتفضان بحمّى العجلة، ونفاد الصبر، ألا يصبران بضعة أيام حتى يتزوجا؟ ولكنها لم تكن تعترض، أو ربما غالية كانت تتفاهم مع أمها جيداً. وعندما تنام غالية في بيتي، كان أبي يبتهج جداً من جنوننا ذاك، ويرحّب بغالية كثيراً، ويصرّ على أن يقدم لها الإفطار بيده على طاولة الطعام، تاركاً إياها تغرقُ في خجل شديد فلا تتكلم إلا لماماً، بينما تمسك أمي بذراعي خلف الباب، وتهمس لي بعتب.

– يا حسان، ترى ما يصير كذا، مو أصول. كيف تجيبها تنام عندنا قبل الزواج، ما تصبرون كم يوم؟

– يا أمي، مو احنا متزوجين الآن؟

– نعم يا ولدي، ولكن لازم الإشهار.

– كان هناك مدعوون كثر في القران، هذا هو الإشهار.

– طيب انتبهوا يا ولدي.

وأفهم تماماً ما ترمي أمي إليه، وما تريدني أن أنتبه إليه وأحذر، ونعرف في قرارة نفسينا، أنا وغالية، أننا في الليلة الماضية، والتي قبلها، والتي قبلها أيضاً، لم ننتبه قط، يكفي أننا انتبهنا جيداً، وبما فيه الكفاية، في الأيام التي سبقت عهد الحب القلق.

في سريري كنتُ أهمس لها في أوج الدوخة التي تسبق انهماري عليها كمطر شهوة استوائية حارة.

– ألسنا متزوّجين، وزفافنا بعد بضعة أيام، ما الداعي لهذه الأشياء الآن؟

وترميني غالية بعين خجلى، وتفكر قليلاً، ثم تومئ برأسها علامة الموافقة، فأرمي علبة الواقي بعيداً، وألتحم بها إلى آخر ما يأخذنا إليه مدى الرغبة، وأبعثر في جسمها لقاحاً مليئاً بالأمل الجامح، ظلّ منذ أول الحب إما محبوساً في محبس البلاستيك، أو مبعثراً خارج بقعة أحلامه.

حتى عندما سافرت إلى دبي قبل الزفاف بأسبوع، سافرت غالية معي، ضربت أمي كفاً بكف، وقالت إنني سأجعلها مجنونةً في هذه الأيام القليلة التي تسبق زفافي.

– يابن الحلال خلّي البنت تجهز نفسها قبل الزواج، ليش تاخذها معك؟

– هي تبي تروح معي.

– طيب وش يقولون الناس؟ سافروا وهم ما تزوجوا بعد؟

– ما راح أحد يدري أنها سافرت معي، كلها يومين بس.

وطارت بنا الطائرة على دهشة أمي، وقلقها الشديد، وحدسها أن ما نفعله أنا وغالية يجب ألا يكون، لأن الأحداث يجب ألا تسبق أوانها، فقط.

استقبلتنا دبي، فاتحةً الذراعين الأوسع منذ عرفتُ مطارها، وشوارعها الأولى. نزلتُ وفي يدي يد غالية، وشعرُها الأسود الطويل يكتب على الهواء، ويوقّع دفاتر الأشياء التي نمرّ بها، ويعبر جسمها الشيّق حيث لا أملك إلا أن أرمقها دائماً بعين ملأى غبطةً ورضاً، وشعوراً بالثراء. سكنّا في فندق ساحلي، اخترتُ جناحاً رائعاً حتى تورق فيه غالية كما تشاء، وحتى أضمن أن أجد فيه حوض استحمامٍ يكفينا معاً.

أحياناً، تغيّر المدن لغة الجسد، ولهجاته في ارتكاب الرغبات، وثقافته في الاتصال بالجسد الآخر الموجود في حيازته، ولهذا فتحنا شباك الشرفة الكبير على هواء أرسله البحر بلا انتظار، وارتمينا على السرير، والستائر المتطايرة من هواء البحر تولول مثل جنيّات شبقات لا يهدأن. وطلبتُ زجاجة شامبانيا ثمينة.

كنتُ محاصراً برائحة الكأس، ووجه غالية الذي اتفق مع دبي جداً. شربنا كثيراً. وعينا غالية تستأذنان كل دقيقة، وتغطسان في البحر القريب، ثم تعودان بزرقةٍ جديدة للنظرة القادمة. شربنا كثيراً. وبدا لي أن كل كلمة تقولها غالية لا أسمعها فقط، بل تلعقني أحياناً من أول الصدر حتى آخر العنق، ثم تنزل في قلبي مثل إلهام راق. شربنا كثيراً. وتحوّل الليل إلى موسم، وتحولت غالية إلى حقل، وتحولت أنا إلى محراث. وشربنا أكثر، وأصبحت غالية محراباً أجد

رزقي عنده كل وهلة، وخصلة شعر تفر من البقية وترسم قوساً سوداء تبدأ من جبينها وتنتهي في الزاوية الصعبة بين شفتيها، وتجعل وجه غالية مختلفاً، وضحكتها تلك التي لم تكن مرصودةً في كنوز الكلام، تجعلني أنفق دهشة جديدة من الدهشات التي أدخرها لبقية عمري معها.

شعرتُ خلال وهلة صمت أن جمال غالية عريق جداً وأصيل، إلى حد أني أعتقد أنها ابنة حواء المباشرة، وليس بينهما تلك السلسلة الطويلة من النساء، وشعرها السيمفوني الذي ضفرته قبل قليل، أصبح مثل حبلٍ معلّق بسقف الليل، وكنتُ أشعر أني إذا سحبته انبلج النهار، مثل أباجورة. وعرفت، لأول مرة، أن مفتاح إنارة الدنيا في ضفيرة غالية.

كنا في دبي، نسرفُ في إعلان الحب، نجاهر به مثل انقلاب، وهناك في الرياض، كانت الأقدار قد نزلت فعلاً، في غيابنا الذي لم نؤمنه جيداً ضد ظروف أخرى قد تلحق بنا، ولحقت فعلاً، عندما عاد زوجها السابق، وانتزع فيصل من عند جدته، وغادر.

جُنّت غالية، جُنّت تماماً!

كنا نستعد لليلة جديدة من أنسنا السابق، عندما قررت غالية أن تهاتف أمها، فأخبرتها بما كان، و لم تحتمل غالية، انهارت مثل بيت من القش، وراحت تصرخ من دون أن أعي ما الذي حدث، فقط كنتُ أسمعها تطرح على أمها أسئلة مذهولة كأنها تعاتبها: "أخذه!! متى؟ وليه تخلينه ياخذه؟"، وأخيراً سقطت السمّاعة من يدها المرتجفة، واندفعت تبكي بوجل رهيب وهي تهتف: "ولدي، ولدي".

– يله نروح المطار.

– غالية، غداً رحلتنا صباحاً على أي حال، ولا يوجد رحلات الآن.

– يله نروح المطار، حرام عليك، ولدي بياخذونه مني.

– ما راح ياخذه يا غالية، أكيد الرجال يبغى يقضي كم يوم مع ولده، وراح يرجعه.

– مستحيل! هذي أول مرة ياخذه من عندي، أكيد ما راح يرجعه، مستحيل، يله نروح المطار، ولا ترى بروح لوحدي.

رحتُ أحاول أن أضمها وهي تتملص مني بعناد، وتنادي ابنها بالصوت المذهول نفسه، ودموعها تدفق بغزارة، ووجهها مشوب بلوعة حقيقية لشكلٍ مرتقب، وبالكاد جلست أخيراً، بعد أن اقترحت عليها أن نتصل ببيت مطلّقها، ونتفاهم وإياه.

اتصلتُ بخدمة النزلاء أولاً، وطلبتُ طبيباً وحبوباً مهدئة، فجاء الطبيب، وتناولت غالية الحبوب التي جلبها معه وهي ذاهلة النظرات، تبكي ببطء وأسى، بينما راح يلف على ذراعها آلة قياس الضغط، وينفخها بدأب، وهو يراقب ساعته.

دقاتٌ طويلة خلف أرقام الهواتف التي تحفظها غالية لبيتها السابق، قبل أن ترد خادمة عرفتها غالية، فصاحت بها بتوسل:

– فين فيصل؟

– نائم.

– ليه بابا أخذ فيصل؟

– ما أعرف!

– طيب فين بابا؟

– لحظة.

ورحت أراقب غالية وهي ترتجف، وتنتظر صوته، وفور أن سمعته يتنحنح قريباً من السمّاعة هتفت به:

– ليه أخذت فيصل؟

وجاء صوته الثقيل مليئاً بضجر راكد:

– لأنك متزوجة، أنا ما راح أخلي ابني يعيش مع رجل ثاني.

– لكن احنا ما اتفقنا على كذا.

– احنا ما اتفقنا على شي أصلاً، والولد خليته معك لأنه صغير فقط، بدون محاكم ومشاكل، لكن إذا تزوجتي ما راح أخليه يبقى معك، انتهى الموضوع.

– حرام عليك، حرام.

– حرام عليّ إذا خليت ابني يتربى مع رجل غريب.

– ولكنه معي أنا، أنا أمه، تعتقد أني ما راح أهتم فيه؟

– لو بتهتمين فيه فعلاً ما تزوجتي.

– حرام عليك، تبيني أقعد بدون زواج طول عمري؟

– لا طبعاً. تزوجي زي ما تحبين، لكن فيصل عندي.

واختلط أنين غالية الغريب، مع دقات الهاتف التي تعلن انفصال الخط.

شتّان بين ليلة أمس، وهذه الليلة.

كيف يستطيع القدر أن يقلب الأدوار إلى هذا الحد، وبهذه الزاوية، من النقيض إلى النقيض؟ كيف شَطَبَنا فجأة من لائحة السعداء الجذلين، وأعاد كتابتنا في لائحة الأشقياء الجزعين، من دون أن نلملم

أطراف سعادتنا، ومن دون أن نأخذ معنا ذاكرة الحلم الوهمي الذي انقضى قبل أن يبدأ، ومات قبل أن يُخلق؟

صامتان مثل زورقين في مرفأ مهجور، لا شيء يكسر السكون إلا شهقات صغيرة تسحب بها غالية أنفاسها الباكية، وتجرع مرارة الكأس المفاجئة التي لم تتخيلها، و لم تجهّز لها ذهولاً لائقاً.

قامت إلى الحمام، وفتحتُ أنا نافذة الشرفة على مصراعيها من دون مبرر، لأحرك همود صدري الكبير.

عادت غالية بعد قليل، اقتربت مني بينما أراقبها أنا بقلق، ودسّت رأسها تحت عنقي، وهمست لي بصوت مبحوح:

– أنت عارف وش لازم يصير يا حسان؟

– ماذا؟

– ما نقدر نتزوج.

– لا تتسرعي يا غالية، هناك حلول كثيرة.

– لا يا حسان، أنا أعرف أبو فيصل، ما راح يتركنا في حالنا.

– ليه؟ مو قلتي لي قبل أنه مو مهتم في ولده، حتى لما كنتي عنده ما كان يشوفه، ولا يلعب معه، ولا يحبه أصلاً.

– المسألة مو مسألة فيصل، ولكن هو رجل عنيد، عزيز النفس جداً، ما راح يرضى أنه يترك ابنه عند رجل آخر، مستحيل.

– أنا ما راح اصرف على ابنه، هو اللي راح يصرف عليه، ما علاقة عزة النفس هنا؟

– حسان، أنت عارف لو في أمل واحد بالمئة أنه يمكن يعدي الموضوع ما ترددت، أنت تعرف أني أحبك أكثر من أي إنسان

في الدنيا، وأعرف أنك بتقدر ظروفي، أنا مستحيل أعيش بدون فيصل.

– بنتزوج، وفيصل بيعيش معك، لا تخافين.

– يا حسان افهمني.

– الموضوع سابق لأوانه، خلينا نرجع الرياض ونتفاهم.

ولم تنم غالية، ظلّت تروّض أوجاعها على قلق، بينما أخذني وسنٌ سيئ جداً، مليءٌ بالمرارات، والوهن الكثيف، واستيقظتُ فجراً على حركة غالية، وهي توضب الحقائب، بوجه خال من الملامح تقريباً، إلا من آثار صدمة لم تندثر بعد. شعرتُ بالبرودة، وبألم بطني الطفيف الذي يعودني في النوازل.

حملتنا طائرةٌ في الاتجاه المخالف لفرحنا، وتفرقنا في الرياض. أوصلتُ غالية إلى بيتها، ونزلتْ وهي تقبل ظهر يدي قبلةً حائرة، لا أدري ما سببها، وكأنها تعتذر مبكراً عن كل أحلامي التي ستهلك، ثم توارت خلف باب بيتها، وعدتُ أنا إلى بيتي.

****

هاتفي موصدٌ في وجه الجميع، حتى غالية، لا أريد أن أسمع منها الكلام المميت. عشائي مركونٌ هناك، كما وضعته مأمونة، يبس الخبز، وبرد الحساء، وعضّ اللبن شفتي بياضه، وغمر الصحن كله شعورٌ بالبلادة. سجادتي مفروشةٌ على ذكرى سجدات خائفة في دوامة توسلي المتأخر لربّ لن يضيق بي حتماً.

إلهي الكبير...

هنا أطياف الليالي الهاربة، والطنين الذي يحوم في فراغ الغرفة، ولغة الخواء التي تتهامس بها الأشياء بقلق. هل حقاً ستجعلني أفقد غالية؟

هل تراني الآن من فوق؟ وأنا أتهجد في محراب الوحشة مثل راهب منكوب، أنتبذ مكاناً من الليل كأقصى حالة من الحلكة، وأطارد كل ما يطير في السواد من رؤى، وأركمها في سلة أرقي. أعرف أني لا ألجأ إليك كثيراً هذه الأيام. لا أصلي أحياناً، رغم أنك تتغاضى عن ذلك، وتعطيني كثيراً. وأعرف أنك تفهمني جيداً، وتعرف أني ضعيفٌ جداً حينما تمسكني أقدارك من قلبي.

هل رأيت غالية ليلة نزل بنا قدرك المهيب؟ كانت تبكي مثل شمعة ضخمة، بينما كنتُ أنا أتلمس حافات ذهولي، وأحاول أن أبدو في مستوى الموقف. كانت دموعها حقيقية، لأنها استشرفت ما سيكون حتماً، بينما أنا كنتُ أنسخ الدموع من وجهها وأختزنها في صدري، لأبكي بها لاحقاً.

لعل غالية الآن قد توقفت عن البكاء، واتخذت قرارها، وهدأت، بينما أنا، صنمٌ ملقى في قوارع مكة، لا يعرف مصيره الآن، بعد أن عاثت فيه أيدي المؤمنين. لقد سدَّدت غالية مستحقاتها البكائية بوفاء لحظة الصدمة، وأنا ماطلتُ فيهما بجفنين مكابرين، وها قد ضاعفت الأيام ديْني، وما ماطلتُ إلا طمعاً فيك!

الليل ينقضي تدريجاً، ولا يموت، يستحم بعرق الساهرين، ودعاء المساكين، وصوت الرجل العريق الذي ينادي إلى الصلاة.

هل أصلي أكثر فتعيد إلي غالية يا ربي؟

أعلم أني تخليتُ عن نساء عابرات من قبل، ولكني كنتُ صغيراً. أخذتني إحداهن على حين غرة، علمتني الجنس بشكل فج، ثم أقفلت مدرستها السيئة، وغادرتني، وتركتني أخربش على أي جدار مثل تلميذ وقح، لا يدري أين يمارس الكتابة بشكل صحيح. ربّ لا تأخذ مني غالية بذنبهن، النساء العابرات لم يكنَّ يبكين تعلقاً بي، بقدر ما كن يجرِّبن جدوى دموعهن على تمثال رجل، ولا يمكن أن تقيس دموعهن بدموعي الآن، أنت عادل.

****

تذكرتُ بعد انفراط عقد زواجنا عندما عدنا من دبي، كيف قررتُ أن أحاول محاولةً أخيرة، ليس مع زوجها الذي بعثر كل أوراقنا فجأة، لأني عرفتُ أن محاولتي معه لن تزيد الأمر إلا تأزماً، فمشكلته الكبرى معي أصلاً، رغم أنه لا يعرفني. ولكني مع من ظننتُ أنه يملك تأثيراً مباشراً عليه، والده.

سافرتُ إلى جدة، حيث يقيم. كانت أطول رحلة يمكن أن يقطعها رجل مكلوم نحو أمل غير واضح الملامح، لم أحتمل أن أنام ليلة مليئة بالهواجس والاحتمالات، ولذلك قصدتُ بيتهم فور خروجي من المطار، في ذلك اليوم الرطب الحار، الذي يشبه معظم الأيام في جدّة.

كان أبوه ستيني الملامح، استأذنته عند الباب، وعبرتُ مداخل عديدة مقوداً بخادم حتى بلغتُ مجلساً صغيراً كان يجلس فيه وحده.

رأيته لأول مرة، له جبهةٌ ناتئة، وعينان حادتا النظرات رغم صغر حجمهما، وانحصارهما بين جفنين متهدلين. حدق فيّ مرات عديدة، ثم سعل قليلاً، واشتكى من التدخين الذي أرهق صدره، وكأنما يفتح لي فرجة إنسانية صغيرة من نفسه.

كان يعرفني ابتداءً، منذ أن عرفته من أكون في مكالمتي الهاتفية التي طلبتُ فيها هذا الموعد، ولربما ظنّ أني قريب لغالية في الأصل مما جعله يتوقّعني رسولاً لصلح محتمل. فوافق على لقائي.

قلتُ كل الكلام الجميل الذي أعددت، وهو صامتٌ مثل صخرة، يتأمل فنجان قهوته، ويشرب منه، ولا يرفع عينيه إليّ إلا لماماً أثناء حديثي، وكلما انتهيتُ ووجدته صامتاً، رحتُ أعيد عليه كلاماً مكرراً، لعله يكون في غمرة اقتناع، ولعلي أتيته في ساعة شفقة.

رفع إليّ يده مشيراً بها إلى وجهي، رغم أنه لم يكن أحدٌ معنا في المجلس غير خادمه الذي يصب القهوة، وقال:

– أنت اللي بتتزوجها؟

كنتُ قد عرّفتُ بنفسي مراراً بهذه الصفة، لا أدري لماذا أحتاج أن يوجّه لي هذا السؤال، ولكني أجبته بصيغة مضاعفة من الأدب:

– نعم، نعم.

أطرق قليلاً وكأنما يستعيد صورة غالية في ذاكرته، ثم قوّس حاجبه الأيمن، فالأيسر أيضاً، ورشف رشفة قصيرة من قهوته، قبل أن يناول الفنجان الفارغ للخادم، وقال لي:

– يا أخي، شأن هذا الولد عند أبيه، أنا لا أملك حلاً ولا ربطاً.

– ولكن كلمتك مسموعة عنده بالتأكيد.

كان قلبي في حالة مأزومة من الخفقان، ورحتُ أستشعرُ مصير زواجي بين شفتيه، وسعادتي مرهونةٌ بين طيات عقله وهو يفكر، ولكنه لم يطل التفكير على ما يبدو إلا في كيفية إنهاء النقاش.

– نحن لم نمنعكما من الزواج، تزوّجا، ولكن ابننا سيبقى معنا.

– ولكنه ابنها أيضاً، ولا أحد في الدنيا أرفق به من أمه، وهي لا يمكن أن تضحي بابنها، من أجل أن تتزوّجني.

– هذه عادات أسرية، لا أستطيع أن أناقشها معك، وبإمكان أمّه أن تأتي لزيارته في أي وقت، ومن الممكن أيضاً أن يزورها هو من وقت لآخر، ويسافرا معاً لفترات قصيرة، نحن لسنا معقدين ولا رجعيين يا أخ حسان، ولكن لو وضعت نفسك مكان أبيه، لفهمت صعوبة الأمر. من العيب عندنا أن يتربّى الولد في بيت رجل غريب بينما أبوه حيّ يرزق.

– ولكني لستُ غريباً، أنا زوج أمّه، ثم إني قريبها أصلاً، يعني في مقام خاله.

– أنت تجادل بدون هدف، لم يعد عندي كلام آخر يا أخي.

عندما خرجتُ من عنده كنتُ حانقاً، رحت أقود سيارتي في شوارع جدّة وفمي مليءٌ باللعنات الثقيلة. لم أتصور أن تكون غالية قريبتي، وأنا أولى بها، ثم يحول بيننا هؤلاء الناس، كم هو قبيحٌ هذا المكان وما فيه.

كنتُ أتكلم مع نفسي بصوتٍ مسموع وأنا في سيارتي، يلتفتُ

إليّ المارة وأنا أحرّك فمي بغضب وحدي، وربما يضحكون، ويندهشون، ولكني كنتُ ألعنهم جميعاً في جملة من ألعن، وأرصدهم جميعاً في دائرة القبح الكبيرة التي تتراءى أمامي الآن أوسع من كل شيء.

رحتُ أكلم نفسي بصوت غاضب مرتفع في السيارة.

– حسناً، سنبقى عاشقين يا غالية، يلعن الله أوراقهم الرسمية، يلعنُ قوانينهم، وأنانيتهم، إذا كنتِ لن تتزوجي فأنا لن أتزوج أيضاً، ما دمنا معاً، فلا أبالي بأن يسجّل الناس هذا أو لا.

لن يكون هذا الحل أبدياً، بضع سنوات، ويكبر فيصل، ويصل حد التخيير الشرعي بين أبويه، وحتى لو اختار أن يعيش مع أبيه فلن تستطيع غالية منعه من ذلك سواء تزوجنا أو لا، لا بأس، تسع سنوات، عشر، خمس عشرة سنة، والحب لن يخذلنا.

****

خذلنا الحب بأسرع مما تصورت، وفي غضون شهر فقط، وليس سنوات طويلة كتلك التي راهنتُ عليها ذات حنق في سيارتي.

غابت غالية، بعد أن اكتشفت حملها مني، بعد أربعة أسابيع على عودتنا من دبي، نبّهها الرحم المخصّب أخيراً، بعد ثمانية أشهر من العشق العميق، أن كل ما كنا نفعله، كان ذنباً، وصدّقت غالية، ووقعت أنا في أيام بائسة كانت، بحق، أكثر أيام حياتي تشوّهاً.

عندما أخبرتني غالية بذلك، انقسم قلبي إلى شطرين، أحدهما

ابتهج إذ رأى أنها فرصة لإقناع غالية بالاستغناء عن فيصل، وإتمام الزواج، والثاني اضطرب أمام صراخ غالية، وبكائها المرّ الكبير.

– غالية، لماذا تبكين هكذا، ما زلنا متزوجين شرعاً، لن يلومك أحد.

– مستحيل، لازم أنزّل الجنين.

– يا غالية إعقلي.

– كارثة يا حسان. ماذا سيقول الناس؟ سيظنون أن زواجنا كله لم يكن إلا لإخفاء هذا الجنين.

– يا غالية، هذه حكاية قديمة، لم يعد الناس يفكرون هكذا، كل الأزواج يجامعون في فترة القران.

احتدّ كلامنا، أقفلت غالية السمّاعة بعد أن اختنق صوتها تماماً، ولم تستطع أن تكمل النقاش الذي كسرت قسوته صدري وصدرها.

في اليوم التالي، اتصلتُ بها باكراً، فأخبرتني بصوت ينبئ أنها بكت طوال الليل، أنّ هناك أملاً شاحباً، وأنها يمكن أن تجهضه، بشكل شرعي، في أي مستشفى.

– والعذر؟

– جنين ميت.

– وهل يوافقون؟

– نعم، القانون يسمح بإجهاض الجنين إذا كان عمره أقل من شهرين، بموافقة الزوج.

– ....

– لازم تروح معي المستشفى يا حسان، الله يخليك.

– هل أنتِ متمسكة بقرارك يا غالية؟

– ما في خيار ثاني يا حسان.

– إنه ابننا!

– ولهذا لن نسمح له أن يعيش في ظروف قاسية، بأبوين منفصلين.

– ولكن، ربما تجمعنا الأقدار يوماً ما.

– عندها سننجب أطفالاً آخرين.

بعد أيام قليلة، قدتُ سيارتي نحو بيت غالية، أخذتُ معي عقد النكاح، الورقة التي أصبحت مجرد ذريعة تتيح لنا القيام بعملية إجهاض تخلصاً من الجنين، ووقفتُ عند بابها، اتصلتُ بها، وخرجت.

تأملتها وهي تنزل، وثارت حفنة كبيرة من الرماد المر في حلقي، وصدري، وأنا أعجن في داخلي لعنات كثيرة أخرى من أجل هذا القدر العابث، وهذا التكرار المعكوس لأشكال لقائنا.

أول مرة خرجتُ مع غالية ونحن راشدان كانت هكذا، عند هذا الباب تحديداً، وفي مثل هذا الوقت من الصباح، قبل أشهر طويلة خلت، قررنا أن نلتقي متخذين قراراً عشوائياً لم نخطط له قط. أما الآن، فنحن زوجان يتجهان لإسقاط جنين.

في السيارة، لم تلمس غالية يدي قط مثل عادتها، ولا أنا حاولتُ أن أربّت يدها عندما بدأت تنشج في جواري بصوت خافت. كنتُ أشعر بنقمة عليها، وعلى قرارها القاسي. لا أدري لماذا كنتُ أشعر بأن غالية التي في جواري ليست تلك التي أحببت،

ربما كنتُ أشعر بخذلان كبير منها، رغم أني لا أستطيع أن أناقشها في أمومتها، ولذلك تراكم في داخلي حنق لا يستطيع التعبير، حنقٌ صامت، يجعلني أقود السيارة آلياً من دون أن أتكلم مع غالية التي كشفت وجهها، وراحت تمسح دموعها وكأنها تستجدي حناني، فلا يجديها ذلك شيئاً.

نظرتُ إليها لوهلة أثناء الإشارة. بدت عادية جداً، لأن قلبي مغلفٌ بمرارته الآن. حبة خالها التي كانت تتحكم في جاذبية الشمس تبدو نقطةً منسية سوداء ليس إلا، شفتها السفلى كانت متهدلة أكثر مما يجب، ولا أشتهي تقبيلها، وحول عينيها تكوّنت هالتان رماديتان كبيرتان.

وصلنا إلى المستشفى، ونزلت غالية قبلي، وكأنها تهرب من فشلها معي طوال الطريق، راحت تمشي بخطى سريعة، ورأيتها تجوز ممرات المستشفى، بحذائها الرياضي الخفيف، كأي امرأة عابرة، رغم أني كنتُ أرى مشيتها من قبل أروع من نشيد روماني قديم.

أنهينا كل الشؤون التي تسبق العملية بطريقة يتضح منها أن غالية زارت المكان من قبل، واتفقت مع المستشفى على كل شيء، حتى أنها دفعت له مقدماً، ويبدو أن دوري هنا يقتصر على تسجيل الموافقة الورقية التافهة. شعرتُ بإهانات صغيرة تكيلها لي غالية من دون أن تعلم، وكأنها تعاقبني على زرع تلك النطفة في رحمها بأن تغيّبني تماماً عن قرار إجهاضها. هل سأكون مخطئاً يا ترى لو تركتها وحدها الآن، وعدتُ إلى بيتي؟

دخلت علينا طبيبة، وسألتها غالية:

– كم تستغرق؟

– ساعة على الأكثر.

ثم وجّهت كلامها نحوي، وكأنّ غالية تعرف هذا من قبل:

– لا تقلق، العملية بسيطة، وبإمكانها الخروج بعد الظهر.

غابت غالية في غرفة الطبيبة، وبقيتُ وحدي، في غرفة انتظار وقحة جداً، والكدر ينهش صدري مثل جرادة تافهة، دقيقة بعد دقيقة، ومطرقة من الأفكار الصعبة تهوي على عقلي الذي قاء كثيراً هذه الأيام، وتحاول أن تقنعه بحزن عميق، يليق بما أنا فيه من حيرة، وتخبط.

ولكني أرفض أن أحزن. القضية كلها محاولة زواج فاشلة، وتداعياتها ليست أكثر من خطأ صغير ارتكبناه عندما لم نتأكد من ردة فعل مطلّقها السابق تجاه ابنه، الحماقات أحياناً لا تستحق أن تكون وقوداً لحزن ضخم، بعض الضيق يكفي، إجازة صغيرة، ويكون كل شيء على ما يرام.

تذكرتُ الجورية، لتكتمل بذلك وقاحة غرفة الانتظار هذه التي لا تدري جدرانها الخضراء الشاحبة أي أفكار سخيفة تكيلها لي في توقيتها الخاطئ تماماً، أتراها تجاوزت قدرتها على حقني بالندم حتى منحتها الحياة فرصة شماتة أكبر، كهذه؟

أنا لستُ جباناً الآن كما تقول الجورية، في آخر المطاف القرار قرار غالية، ولا يمكن أن تلعب شجاعتي أو جبني أي دور هنا. وهذا المخلوق الصغير الذي يموت الآن داخل غرفة الطبيبة هو ضحية

المجتمع، وليس ضحيتي.

كنتُ أبحث عن زاوية أضع فيها عقلي. أريد أن أتخذ أي خطة تنظيمية للأيام المقبلة، عندما تغيب غالية، ولكن كل الخطط كانت تنسحق، وتصبح معوّقة، وعاجزة عن انتشالي إلى وضع أحسن.

قبل بضعة أشهر فقط كنتُ بخير، أقرأ المجلة، وأستعد للنوم، لماذا كان يجب أن أجد مقالاً لكاتبة جميلة اسمها غالية؟

ها هي الكاتبة ترقد الآن في الغرفة المجاورة، تشرع فخذيها المنفرجين بعد أن وسّعت الحقنة رحمها عدة مرات، لتستقبل ذلك الشافط الذي يقتل الأطفال، ويسرق الحياة، ويكحتُ بطانة الرحم مثلما نكحتُ بملعقة صغيرة ثمرة مانجو!

كانت تبدو أجمل بكثير في مقالها ذاك من هذه الحالة الوقحة. من يتحمل هذا؟

عندما تخرج غالية من هذه الغرفة فهذا يعني أنها نفذت قراراً أصعب من قرار الطلاق نفسه، ويعني أن طلاقنا سيكون حتمياً، بعد يوم أو يومين على الأكثر، ثم لن تكون غالية هنا. سينتهي الموسم فجأة، بينما يدي معلقةٌ على ثمرة لم أقطفها، و لم أنزع يدي عنها بعد.

مللتُ الجلوس، قمتُ أمشي في أروقة المستشفى، ووجهي مغطى بوشاح من الجدية لا يجعل أحداً قادراً على الكلام معي.

بين كل الأنسجة والدماء المتخثرة التي ستعود بها تلك الأداة اللعينة مراراً سيكون الجنين الضئيل مقتولاً، قبل حياته. أتصوّر هذا المصير لأولى محاولاتي إنجاز مشروع حياة، وأنا أجول في الممر محدقاً

في أرضيته مثل كنّاس ضعيف البصر.

أخبرتني الممرضة أن العملية نجحت بهمسة صغيرة، قبل أن تأخذ سبيلها في ممرات المستشفى.

كان هذا يعني ضمنياً، أن ابني المحتمل، مات.

جلستُ فوق جبل من الشرود، كلمتني الممرضة مرة أخرى لتخبرني أن غالية نامت قليلاً، وقد لا تفيق قبل ساعة.

حدّقتْ في وجهي ببلاهة عندما قلتُ لها:

– عندما تفيق، أخبريها أن تعود في سيارة أجرة.

VIII

المقطع الأخير من مقال غالية، بعد شهرين:

"آخر الكلام:

أيها السيد الحب، إن العباءة النورانية تتسخ عمداً هنا، ما الذي جاء بك؟ عد إلى كوخك الشمسيّ الجميل، ولو في سيارة أجرة. واغسل يديك من أنصاف العشّاق، وأرباع المؤمنين، وكُلْ خبزك، ونم، ولا تحلم بنا مرةً أخرى!"

وفي غرفتي في الرياض، كانت هناك رسالةٌ من غالية محشورة في المنطقة الفوضوية بين السرير وسلّة المجلات، تحمل كلاماً مثل هذا، وصلتني أخيراً مع باقة ورد سوداء، ولا أتذكر كيف أضعتها في غمرة بكائي الأخير. كانت ورقةً تشبه رغيفاً دافئاً لطالما كنتُ أقتاتُ به من جوع فراقها، "لا تحلم بي مرةً أخرى! لا تلوِّث خيالك الكوثريَّ بامرأة تافهة مثلي، أنت جميل، وليس عندي ما ألبسه لأحلامك!"، ما زلتُ أتذكر مواضع النقاط، وميلان الحروف، وآثار الطية الوحيدة فوقها، وظلت الكلمات تحوّمُ في خيالي مثل الجياد التي تركض بين الأسوار الخشبية.

و لم أحلم بها بعد ذلك، لم أحلم بغالية قط، ليس لأني أحترم رسائل الوداع الدافئة، ولا لأنها حاولت أن ترحل برفق، مثلما تنسلُّ أرواح المؤمنين، من دون أن تدمرني في خروجها مني، ولكن لأن تروس الحلم في جبيني توقفت عن الدوران منذ أن اكتشفتُ أنها تمضغني تحتها بلا طائل، وتؤذيني بلا معنى، وأن لا شيء منذ تكوّن التاريخ، جاءت به الأحلام.

لم أكتب لغالية رسالةً أخيرة، و لم أسمع بعدها، من أي نبضة عابرة، أن قلبي حلم بامرأة أخرى، أما جسدي فله ما له، وعليه ما عليه. لم يكن من الممكن إيقافهما معاً، قلبي وجسدي، لا بد أن يتوقف أحدهما عن العمل بسبب عجزه، ويعمل أحدهما لإعالة الآخر، هكذا قضيتُ بينهما في يوم شديد الوضوح، وكانت تجلسُ معي فيه امرأةٌ أخرى، ثم امرأة أخرى، ثم امرأة أخرى.

كنت أتمنى لو خبّأت شيئاً من حزني عليها في صناديق صغيرة، حتى إذا لامني أحد على طوق طهارتي المكسور أمنحه إيّاه ليتذوقه قليلاً، وليعرف أن حداً ما من المرارة، يكسر الأطواق أحياناً، وأن قلبي أصبح يشك كثيراً في مشاريع الحب الطويلة، وعشق النساء الجليلات.

التاريخ منتصف أبريل، وأخيلتي كثيفة. أستيقظ من النوم ولا أرغب في فتح عينيّ. أتذكر رائحة لعابها عندما كان يتجمع أحياناً على صدري وهي نائمة، سائلاً من فرجة صغيرة في فمها لا تنفتح إلا إذا نامت.

ولأنها تعرف أن فمها يُحدث هذه الفتحة الصغيرة أثناء النوم،

ويسرب رضابها الشفاف دائماً على مخدتها، كانت تسارع أول ما تستيقظ إلى مسح القطرات المتجمعة في الوادي الضيق بين صدري ونهدها الأيسر، أو التي سالت كخيط من خيوط الفجر على أضلاعي، وبلغت ظهري.

تعرف أني رشفتُ قبل أن ننام ضعفَي هذه القطرات، وتعرف أن رضابها هو ثالث العناصر التي آمنتُ بها فيها، بعد حبة الخال العتيقة في وجنتها اليمنى، وشعرها الأسود الطويل الممتد مثل قافلةٍ من ليالي التاريخ، ولكن غالية تخجل مني كل صباح خجلاً جديداً، وكأنه أول صباح لنا، هذا أغرب شيء فيها، الخجل الذي يتجدد كل يوم، ولا يمكن أن ينتهي.

"يا غالية... إن كل قبلة من شفتيك الناعمتين لا تقف حيث تضعينها من جسدي فحسب، بل تدخله وتفتح مدرسةً ومزرعةً وسوقاً صغيرة! وتنجب أولاداً، وأحفاداً، وتحاصرني من الداخل، وتُنشئ مجتمعاً صغيراً من المشاعر، وتحكمه باسمك، أيتها المرأة التي أحب.

كل هذا تخلقه قبلةٌ واحدة! ماذا خلقت في داخلي آلاف القبلات إذن يا غالية؟!"

آنذاك كان حبنا عظيماً، وكانت الأسماك في آخر محيط في الدنيا تتنهد من أجلنا، وكنتُ أعتقد جازماً أن غالية طلسمٌ كبير جداً، وبسيطٌ جداً، ومُعجزٌ جداً، رغم اعتيادي إياها، ورغم حضورها في طفولتي وشبابي تماماً مثل الأسماك التي تتنهد في آخر محيط في الدنيا.

كانت تحمل ماجستير القمر، غالية، وأنا قلبي مثقف جداً

في عشقه، والآن قررت أن تأفل، وأنا قررت ألا أحب الآفلات، وفتحتُ أبوابي الموصدة لنساء أخريات. فترة النقاهة من الحب دائماً مليئة بالضمادات النسائية، هكذا الأشياء تبدو متعاونة نسبياً، وأنا أحاول أن أعود إلى مداري، بعد خروج اضطراري عمره عمر الأشهر المتقلبة التي عمّدتني فيها غالية بحبها.

مرت أشهر أخرى على غيابها الأخير، وشعرتُ تدريجاً أن العُقد الحياتية التي كنتُ أظنها مستفحلة، وموغلة في الصعوبة بدأت تنحل أمامي، ويتفكك تشابكها الكثيف بطواعية تمنحني إياها الأيام الهادئة. إن الحب استثناء، أما القاعدة فهي أن تأخذ من المرأة ما تمليه عليك رغباتك الروحية والجسدية. وكما هي الاستثناءات دائماً محفوفة بالقلق، فإن القاعدة دائماً معبدة بالراحة والسكون.

انزَلَقت غالية من حياتي كما ينزلق الرمل في ساعة رملية قاسية، لم يكن في فسحة الوجدان كلمةٌ تكفي لاستبقائها، راقبتها وهي تغيب تدريجاً من حياتي، الجسد ثم الوجه والصوت والرسائل، ثم الحب، وكلما ابتعَدَت شعرتُ بأني ضحية مؤامرة حسد كبيرة تورَّطَت فيها كائناتٌ كونية كبرى، وكلما ابتعدتُ أنا شعرتُ بأني مليءٌ بالرضا والألم، وماج في داخلي بحر من الذنوب لا يهدأ، وما زال يضربني ساحلاً ساحلاً، حتى انكسر طوق الطهارة.

الآن، من السهل أن أقرأ على زجاج سيارتي كل صباح رموزاً كان يهلكني غموضها الأسود، رموزاً من حياتي، كهويتها، وماهيتها، واتجاهها، ومعطياتها، كل هذه الفوضى العظيمة تحدثها امرأة تمسُّ القلب بشكل مكشوف، مثلما تمسّ الكهرباء سطح الماء الراكد.

أقمت سياجاً حول قلبي، وتركته يلعق جراحه في داخله مثل قط. تركته محبوساً خلفه، وجعلتُ له قضباناً تسمح للنساء بالاقتراب منه، وإلقاء فتات الحنين إليه من الفتحات، من وراء السياج فقط، واعتذرتُ من قلبي على هذا العزل المهين، لأنه كائن يتعاطى الحب بشراهة مؤذية، وأنا لا يمكن أن أسمح لامرأة أن تصل إليه مرة أخرى، فلربما نهشها، وربما خنقته، ولا بد من سياج كهذا يقيهما حماقة بعضهما بعضاً.

ها أنذا أعقل القلب أخيراً، ولكن من يعقل الجسد؟ لا شيء، هذا الكائن الطيني لا يمكن التفاوض معه بسهولة، وهذه أول المشاكل التي يواجهها عاشقٌ في ابتداء مشروعه لترميم نفسه بعد عشق حميم. حمى الجسد الحزين الملتهب الذي اعتاد التدليل والرضا.

الكلام المختلف الذي أقوله، والمحاولة الصعبة لإبراز طابع عملي للحياة في وقائعها اليومية لي أنا ووالديّ، كلها هروبٌ من صفحات متعبة في السنوات التي مضت، ألغيتُ بضعة قوانين أخيرة، وكان لا بد من حضور كهذا لأتغلب على البقية.

عندما نفشل تماماً في إيجاد نتيجة مقبولة، فلا بد أن يكون الخطأ في القانون الذي نعمل به، ولنتأكد من هذا يجب أن نخوض مغامرة صغيرة، ونغيّره، وعندما نسقط بعدها، نقع في خيارين، إما أن نفسر سقوطنا بأنه عدم تعوّد القانون الغائب، أو أن القانون أصلاً لم يكن يستوجب أن يغيب.

بللتُ بالماء ورقة الحب الأخيرة إذن، وقلتُ في نفسي: إن بقيت زرقاء بقي اليأس متعامداً مع فضاء الروح، وإن سال كل شيء،

واغتسلت الورقة من إثم الحبر، جاز لي أن أبدأ الحياة الجديدة.

قانون الحب كان يستحقُّ مغامرةً مثل هذه لتغييره، ليس الحب نفسه، ولكنها الطريقة التي أفعله بها، لا تجدي. لا تجدي شيئاً على الإطلاق.

نحتاج أحياناً إلى عشاق كومبارس يؤدون أدوار الحب الخطيرة بدلاً منا

خبرتُ أن الأبناء الذين يأتون وحيدي أهليهم، مثلي، كثيراً ما تتحول الأشياء القريبة منهم إلى كينونات قابلة للامتلاك، ربما كان هذا هو عمود حزني، وإلا فما حاولتُ أن أحب أيضاً، بطريقة الكينونات القابلة للامتلاك هذه.

ارتعش وجه أبي عدة ثوانٍ، ثم خلّفني وراءه ومضى. أمي أحرقت في وجهي عشرات الأسئلة، ولم أستطع مساعدتها، كنتُ في حال لا أستطيع معها أن أطفئ أي حريق، غير حرائقي الشخصية. عرفتُ من خلال الأيام القليلة التي توترت فيها علاقتي بأبوي، أنه يجب عليّ بالفعل أن أجتهد، لأكون أقبح قليلاً مما أنا عليه، لعلي أفهم أني أستحق ما أنا فيه، فلا يجتمع عليّ الشعور بالحزن، والشعور بالظلم. أحدهما يكفي.

حقاً، ماذا يمكن أن أجني من المشي على الرصيف، رغم أن أحدهم لم يثبت أن المشي على العشب مضر بصحة الطريق مثلاً؟ باستثناء تلك الإشارات العمياء التي يقوننا بها بعيداً عن العشب، لأهدافهم الشخصية. كان عندي خطة سريعة، مباشرة، للتخلص من حزني على غالية قبل أن يتحول إلى يوغا عتيقة في وسط القلب الضيق.

دلو من الفلسفة الفجة، أشطف به المكان، وأكون بخير. رغم أن القلب تراوده الهنّات من حين لآخر، ولكني لا أعتقد أنه سيفعل الحب مرة أخرى في حياته، وأشعر أن غالية فطمتني عن الحب فطاماً شديداً، حتى لو أنها عادت هي نفسها إلى حياتي الآن، لما استطعتُ أن أحبها.

هكذا، من تحدّث معي آنذاك، يشهد أني أحد تماثيل المادية العريقة، حتى أنا كنتُ أسمع حديثي وأستغرب الصوت الجديد، والوجه الذي صار مخططاً بشكل متقاطع مثل جدار من الطوب، وأهنّئ نفسي، وكأني استخرجتُ نفسي من منجم عميق انهار فجأة.

هكذا إذن؟ الهدوء لا يكسر الموت، ربما الضجيج هو الذي يقف في وجه هدأة الموت المتعجرفة، ربما أفضل ما يمكننا أن نفعله بعد الحب ألا نقف على أطراف أصابعنا نتأمل الراحلين مثل حيوانات النمس العصبية، بل يجدر بنا أن نركض في الاتجاه العكسي تماماً، فالجهات لم تخلق أربعاً لوجه العبث.

كنتُ أرفض، بقوة مضاعفة في الرفض، أن أكون ضحية معتادة لكلاسيكيات الحياة: كالحب مثلاً. شعرتُ بأنه من الغباء أن نستمر حزانى بعد ملايين السنين من اختراع الحزن، من دون أن نكتشف بعد طريقه السري في داخلنا.

أريد اليوم أن أكون أقلّ حزناً فقط. لا أريد أن أكون أكثر نبلاً، أو شعراً، أو احتراقاً تحت مظلة الوهن، أو تذمراً من معاندة الزمن. لا تعنيني كل المدن المركّبة من أرق العاشقين، ودموع المتعبين. كل هذه الخيالات الزائفة ليست إلا محاولة لتعويض فشلنا في أن نكون أقل

حزناً، وأنا أفضِّل النجاح على الفشل، وأريد أن أكون أقلّ حزناً... فقط.

****

أخبرتُ أبي أني سأبحث عن وظيفة، ربما كنتُ أشعر أني متجه نحو حزن بطيء، وبدأت أحمل حقائبي إليه. ولهذا فكرت: ما دمتُ أفتعل هذه الهجرات الصغيرة من البيت بلا مبرر، فلأبحث عن وظيفة إذن. ربما كانت الحلول الصناعية مجدية أحياناً، عندما أعيتنا الحلول الروحية المتاحة في مدينة بلا روح أصلاً.

تعلمتُ أن ما يثني عن الحزن أحياناً ربما يصبح حزناً آخر، وتعلمتُ أيضاً أن بقائي خاوياً مثل حقل شعير مجدب لن يجعلني أحسن حالاً، ولن يعيد إلي الأشياء التي لم يمنحني إيّاها الله، كما منحني أشياء كثيرة أخرى، مثل غالية، ألم تكن هذه المرأة محض نعمة من الله؟

هي ذلك فعلاً، كانت كل اللحظات معها فاخرة مثل السياحة، كل الأيام ثمينة وكأنها متحف، وأنيقة كأنها فندق، وسعيدة كأنها ساحل، ولهذا كان يجب أن تنتهي كأنها إجازة.

لم يعقّب أبي على قراري العمل بأكثر من كلمات بسيطة لا تحمل التشجيع ولا التثبيط، بقدر ما تحمل تفويضاً كاملاً بحرية القرار، "طيب يا ولدي اللي تشوفه، الله يوفقك"، وبالفعل، كنتُ أنا الذي اختار الانخراط في عمل منظم، يرتب جدول يومي الذي يبعثره السهر، وجدول شهوري الذي يبعثره السفر.

بعد أيام، كنتُ أجلس معه إلى طاولة الغداء، عندما سألني عن نية الوظيفة تلك، وما إذا كنتُ لا أزال عازماً عليها، وبدا لي أن في سؤاله اهتماماً، بل ميلاً مفضوحاً لهذا القرار، وكأنه بدأ يلمح في وجهي خواءً ينذر بالألم في حدس الكبار، وربما صار يعرف أن فراغي انقلب ضدي، وأني لابد قد بلغتُ عمراً يصرخ فيه كدحي الإنساني بأنه لا بد أن يستوفي حقه من الأخذ، ومن المصير.

قال أبي:

– أما زلت ترغب في وظيفة؟

– إن شاء الله.

– هذا الوقت مناسب جداً، ففي بداية السنة المالية الجديدة لكل شركة، هناك فرص وظيفية أكثر.

– صحيح، بدأت تجهيز أوراقي، ولكن لم أبدأ البحث فعلياً.

– أين تريد أن تعمل؟

– في بنك غالباً.

وأومأ أبي إيماءة قبول صغيرة، وهو مشغول بالطعام، ولا أدري لماذا يعجبني دائماً شكل حاجبيه إذا انعقدا أثناء النقاش، هل لأن أبي لا يعقدهما كثيراً، ودائماً تظل ملامحه منبسطة، فأميل إلى اكتشاف زوايا جديدة، ونادرة، في وجهه الطلق؟

لم تتكلم أمي أثناء الغداء، وكأنما كان هناك شأنٌ قد دُبِّر بينهما في غيابي، كانت الأمور تسير حسبما تريد على ما يبدو، ولم أتحمل ضغط ابتسامة كبيرة اغتصبت فمي وأنا أراقب أمّي، ومحاولاتها الصعبة لالتزام الصمت أثناء النقاش، ربما هي مأخوذة الآن بنظرية

تربوية حول معاملة الفتى في هذا العمر، ومسؤولية أبيه عن ذلك، كعادتها أمي، لا تغير من سيرورة تصرفاتها إلا عندما تكون مأخوذة بفكرة ما، قرأتها، أو سمعتها، أو انفلقت في ذهنها فجأة كصبح، ولهذا كان الكتاب، أو الكتابان الوحيدان اللذان تقرأهما أمي في السنة، يختصران سنة كاملة من سلوكها، كما أن بعض المقالات قد تختصر الأشهر والأيام.

لأنها ولجت الثقافة عن جوع، تصر دائماً أن تمارسها بإتقان زائد أحياناً، وهي تقرأ الكتاب في شهر تقريباً، لصعوبة إيجاد كتاب يناسبها، وغالباً لأنها تخشى أن تفوتها فكرة ما في سطوره، لا تقتنصها منه لتعلقها مع تجاربها الأخرى مثل المفاتيح. تظن أمي دائماً أن كل كاتب لابد أنه يخفي شيئاً ما للقارئ النشيط، وتشعر بالبهجة إن هي اكتشفت ما يرمي إليه، أو ظنت ذلك.

كنتُ أتحدث مع أبي عن وظيفة، وهذا شأن رجالي كما يبدو، وأمي تتمنى لو أني أعمل، حتى أتوقف عن السفر، وعن البقاء خارج البيت، ولكنها ربما تشعر بأن تدخلها سيجعلني أتردد، ولهذا بقيت صامتة. وما أجمل أمي وهي تسعى لتطبيق قناعاتها بسرعة، فور عبورها منطقة اليقين عندها، مما يجعل نمط عيشها ممتعاً لمن يراقبها عن حب، مثلي.

غسل أبي يديه ببطء كعادته، وقبل أن يصعد إلى غرفته ليقضي قيلولته، عاد مرة أخرى إلى الطاولة وهو يجفّف يديه ليقول لي:

– خليني أكلم عبد الحكيم بخصوص البنك يا حسان، ايش رأيك؟

– اللي تشوفه.

وهذه كانت إشارة أخرى تفضح رغبة أبي في ذلك، مهما أعلن عليّ دائماً حرية الموقف، لا يمكنه أن يفتعل الحياد تماماً، هو الآن في وقت قصير، لم يبارك قراري فقط، بل راح يعمل على تنفيذه بنفسه، وإذا بلغ الأمر عبد الحكيم، صديقه المقرب، والمدير الكبير في البنك الأهلي، فستكون وظيفتي على مرمى توقيع صغير، أعلم هذا.

بعد أيام، أجريت معي مقابلة شكلية فقط في البنك الأهلي، ثم تسلّمتُ العمل رسمياً، وكأنما بدأت أرسم خطوطاً جديدة في حياتي.

ولكن الألوان نفسها، لا تتغير.

****

كان قراري أن أعمل لأني أغبط الناس الذين يعملون، لاسيما إذا كانوا منهمكين في أعمالهم، على ما يكسو وجوههم من ملامح تركيز وجدية، وليس أمامهم إلا أوراق، وأرقام، وشاشات كمبيوتر ربما، أو أي أداة يستخدمونها في أعمالهم ذات الطابع المادي. كم هم محظوظون إذ يحرقون الفائض من أرواحهم في العمل، بدل أن يحترق في داخلهم، بدون سبب، ويؤذيهم.

هل يدركون الحياة أكثر؟ هل العمل اليومي الذي يصنع رزقاً هو أعلى قيمة من الانشغال الروحي بمبهمات الحياة، من فن، وكتابة، وفلسفة، وفكر، ومتع، أو أي شيء آخر مما تخترعه الأرواح الخالية من مقتضيات المادة؟ لماذا كنتُ أحزن إذن عندما كان يومي مكرّساً لأكون خالياً من كل شيء، إلا مما يجذبني إليه، سواء امرأة كان، أم

صديقاً، أم كتاباً، أم أغنية، أم مدينة؟

ويظن أولئك الذين يسعون وراء رزق اليوم أن ذلك ترفٌ يحبذونه ولا يجدونه، بينما أنا مستلقٍ على حشيته منذ سنوات، حتى إن ما أفعله في الدقيقة القادمة هو ما أقرره في الدقيقة التي قبلها فقط. أنا الآن أخرج من هذا، وأتجه إليهم، إلى عالمهم الذي يجعلهم يفكرون كثيراً في بقعة الرزق، بدلاً من التفكير في بقاع أخرى، لا أحد يعرف مكانها تحديداً.

أعرف أن العشاق ينامون في العراء أحياناً من فرط العشق، ولكني لا أريد أن أشعر حتى بالضيق من ومضات الذكرى، من حقي أن أدلل نفسي إلى هذا الحد، من حقي أن أتخذ احتياطات مضاعفة جداً ضد وجع ما ولو كان طفيفاً، الوجع هو الوجع، سواء جراء الوهن التام أو الضيق العابر، كلاهما يلحق أذى، وأنا أتجنب الأذى بشكل طبيعي، ولا أعتبر نفسي مترفاً.

وما دام الوقت بات لا يؤمن جانبه، فعليّ أن أضيّعه! وعملي اليومي انتصارٌ أعتد به، مثلما أن الناس الذين يعملون يحققون انتصاراتهم من دون أن يشعروا، وحدي الذي كنتُ يوماً في الجانب الآخر من المعركة أعرف الفرق، وأدرك التفاصيل، ولهذا تصبح ذاكرتي الطافحة بالقصص الكبيرة، مشغولة بترتيب الأشياء الصغيرة التافهة التي أدفعها إليها يومياً، حتى لا تجد متسعاً لإعادة لفظ ما لديها على عيني، وجبيني.

صباح اليوم، صلّيتُ الفجر بسرعة، وحملت الحقيبة، وخرجت من الغرفة كهاربٍ يدعي أنه غير هارب، وامتطيتُ الدرج نزولاً،

نحو المطبخ، لتناول قهوتي.

هناك وجدتُ أمي، ولأني لا بد أن أتبادل وإياها حديث الصباح القصير، اكتشفتُ بعده أن الوجع الذي هربتُ منه في غرفتي، وأغلقت بابها عليه، خرج من فرجة أخرى، ربما من النافذة، وتدحرج إلى هنا قبلي، وتعلق في فم أمي، ثم انطلق نحوي، مثل سهم.

عرفتُ الآن فقط من أمي أن المرأة التي ماتت قبل أسبوع لم تكن جارتنا التقية، لم تكن تلك التي تقضي نصف السنة في مكّة، ونصفها الآخر في استقبال المساكين، واستضافة الندوات الوعظية الخفيفة، لم تكن، خالة نورة إذن، بل كانت امرأة أخرى اسمها نورة، وأنا اختلط عليّ الاسمان.

كانت أم غالية.

مضى أسبوع وأنا أحمل الخبر في داخلي في سلّة الأخبار التي ستُنسى قريباً، قبل أن تتسلل من فم أمي كلماتٌ عابرة هذا الصباح، وأنا أشاركها وقفةً قصيرةً عند عتبة الباب، عرفتُ منها كل شيء، وانتقل الخبر الذي كاد أن يُنسى، إلى مكان آخر، مع الأخبار المرّة التي تغيّر طعم الصباح.

العجوز الدافئة، تلك، أهدر قلبها النبضات الأخيرة، وتوقّف عن الحركة، بينما جارتنا التي تحمل الاسم نفسه، ما زالت تنام في المستشفى، على قيد الحياة، بعد أن ألبستها ظنوني كفناً لم يكن على قياس أقدارها.

توقفت القهوة في فمي مع نصف ارتشافة، وبدت عيناي مثل كرتين مدلاّتين من سقف وجل، وانصعتُ للذهول، وهو يحوم بي

في دوائر متداخلة، مكتومة المساحات، تتدافع فيها آلامٌ كان هناك ما ينذر بها منذ أن استيقظت، وأخيراً اندلقت فجأة مثل دلو مليء.

– يا أمي، إذن... أم غالية، وليست جارتنا.

– أوه، وجارتنا هي الأخرى مريضة أيضاً.

– ماذا حصل؟

– نائمة في المستشفى، تأتيها غيبوبات سكر متلاحقة.

– يا أمي أقصد أم غالية، كيف ماتت؟

– يبدو أنها جلطة.

– وليه ما قلتي لي، ما رحت عزيتهم، ولا حتى اتصلت.

– يا ولدي والله ما كنت أدري أنك بتخلط بينهم.

صمتت أمي قليلاً وهي تنظر إليّ بعينين قلقتين، ثم أردفت:

– لا تخف يا ولدي، غالية بخير، متأسية، وصابرة.

لم أجب، تركتُ وجهي يعدّل ملامحه المفجوعة ببطء، وتنفست بعمق، ورحتُ أرشف القهوة بشكل لا إرادي بطيء.

سألت أمي بنبرة جعلتها هادئة بصعوبة:

– هل ما زالت تعيش وحدها؟

– هي وولدها، أما أبوها وإخوانها فالله يخلف عليها فيهم.

– أكيد الحين بيتدخلون في حياتها، ويضايقونها، ما راح يتركونها تعيش لوحدها وهي مطلقة.

تصمتُ أمي هنا، وأعلم أن ألماً ما يعبر قلبها وهي تتحسس ذلك الألم الآخر الذي خرج من صوتي الهادئ، وتلمع في عينيها حيرة وهي لا تجد ما ترمّم به حزني القديم الذي نتأ فجأة.

الآن أسترجع اليوم الذي قالت لي فيه أمي الخبر الخاطئ قبل أسبوع، الآن فهمتُ لماذا همست لي به بحزن، وفي كلمات قليلة، ثم خرجت من الغرفة كأنها تهرب من انكسار ما كانت تتوقعه مني، وأنا كنتُ أعرف أن جارتنا نورة في المستشفى، توقعت أنها هي التي ماتت، وتوقعت أن أمي حزينة لأنها زارتها قبل يوم فقط، ولا ريب أنها متأثرة لذلك، ولم أعرف أن أمي كانت متأثرة من أجلي أنا، وليس من أجل جارتنا التي ما زالت رهينة مرضها المزمن.

وبعد يومين من نقلها لي الخبر، سألتني وأنا عائد من العمل سؤالاً عابراً:

– رحت عزيت؟

– لا يا أمي، ما أعرف أحد منهم.

وبالفعل، لم أكن أعرف أحداً من عائلة جارتنا، لأنها كانت تقيم وحيدة، ولها ابنٌ يدرس خارج البلاد، فلم أجد ثمة ضرورة لتقديم العزاء، وكنتُ أعرف أن أبي سيفعل، بينما ظنّت أمي أن في ردّي استدراراً للألم "ما أعرف أحد منهم"، وكأني أنكر غالية، مطلّقتي التي لم أتزوجها تماماً، فسكتت أمي، ولم تعقّب، وبقيتُ أنا على فهمي الخاطئ، ولم تستطع أمي أن تعيد بث الموضوع في أي يوم لاحق.

ما الذي جعلني هذا الصباح أستمع إلى مكالمتها الصباحية مع قريبة بعيدة، وهي تخبرها أن نورة، التي هي أم غالية، ماتت قبل أسبوع، وتنطق اسم زوجها كاملاً حتى تؤكد لها الخبر، لماذا لم تنطق أمي الاسم لي كاملاً أيضاً، وتؤجّل ذلك أسبوعاً كاملاً؟

ألم يكن من الممكن أن يمر عليّ حزن ما، ولا أنتبه إليه؟ هل كان واجب الأحزان التي أخطأتني قبل أسبوع أن تعود لترتب نفسها مرة أخرى حتى تصيب هدفها بدقة هذه المرة؟

عاد الهاتف يرن مرة أخرى، وأنا ما زلتُ أرتشف الرشفات الذاهلة من فنجان القهوة، وأتأمل قطعة الخبز المدهونة بالجبنة التي وضعتها أمي أمامي و لم ألمسها. رفعت أمي سمّاعة الهاتف، وكان من الواضح أنها القريبة نفسها التي كانت تحدّثها قبل دقائق، القريبة نفسها التي حملت إلى أمي خبر الوفاة بشكل مزدوج. كانت تسأل عن شيء أعرفه، وأحفظه عن ظهر قلب، رغم أن ذاكرتي لا تحتفظ بأشياء كهذه طويلاً، ولكنها تمسّكت به أكثر من سنتين.

قالت أمي في الهاتف، بعد أن جلبت دفتر الأرقام:

– هذا رقم ابنتها، أم فارس.

فيصل يا أمي وليس فارس، الطفل الذي قتلتني أمومة غالية له! رغم أني، وحدي، كنتُ أراهن عليه في مشروع أبوّة لم تكتمل، ولكنكِ لم تهتمي بتذكر اسم ابنها، ربما لأنه أزعجكِ أن تكون زوجة ابنكِ، مطلقة، وأماً أيضاً. ابنكِ الأصغر الذي حلمتِ طويلاً بيوم زفافه، بعد أن أعياكِ أحمد برفضه الزواج، وجاء كل شيء محزناً، فلا المرأة التي تقبلين تزوجها، ولا حفل الزفاف الذي كنتِ تحلمين به تحقق، ولا الزواج نفسه الذي صار واقعاً تحاولين قبوله، اكتمل!

ما زالت أمي تدير حوارها مع القريبة، رغم أني لا أدري من هي، ولكني أشعر بحقد ما تجاه هذه المرأة التي شاركت في صوغ بؤسي هذا الصباح، وأنا أسمع أزيز صوتها يتسرب من السمّاعة.

قالت أمي لها في حوار لا أعرف نصفه:

- كان الله في عونها، الله يبعث لها نصيباً.

أمي تعني غالية هنا حتماً. آه، لماذا تقول أمي هذا الكلام أمامي؟ ألا تدرك أن عبارتها الأخيرة لم تكن أمنيةً سعيدة لغالية، بقدر ما هي أمنيةٌ قاتلة لي؟ وأنها مارست الدعاء ضدي من دون أن تعلم؟ أو أنها ظنت أني غير منتبه إلى هذا الحوار الهاتفي؟

لململمتُ أعصابي من المكان، واحتفظتُ بارتجافاتي الصغيرة داخل عظامي، ودفنتُ اضطرابي في حوقلة عابرة، وخرجتُ من المطبخ، وأمي ترمقني بنظرة قلقة وهي تكمل حديثها في الهاتف بتوتر.

في السيارة كنتُ أتخيل وجه غالية الذي يبكي وهو يدخل مثل سحابة كبيرة في حدقتيّ، ويملأني بملايين المشاعر، ويغطي من أمامي أفق الرؤية، ومساحة الشارع. لمن تبقى هذه النبتة المقدسة بعد أن فقدت سياجها الوحيد؟ أي شيء يقيها عوادي اليوم، وعوادي الغد، وذلك الأب الغائب بين بلد وآخر، والإخوة الكثيرين، أولئك الذين تنسى أسماءهم أحياناً لفرط تفرقهم، وذلك الطفل الذي يورق بين يديها، ويسألها مزيداً من الحياة؟

تظاهرت بالوجوم عند دخولي البنك حتى أتجنب تحيات مازحة من زملائي كنتُ أنا الذي أبدأها غالباً. انتابني شعورٌ بعد أن جلستُ أخيراً على كرسي المكتب، بأن بعض الأيام من الأفضل أن لا نستيقظ فيها أبداً، حتى لا نواجه صباحاً رثاً كهذا.

همست لنفسي "حسناً، لا داعي للتفكير العميق، الأمر أبسط من هذا، غالية توفّيت والدتها، ولا بد أن أتصل بها للعزاء"، هكذا

لا أكلّف نفسي عناء تقليب الاحتمالات على أوجه خائبة مسبقاً، لا يعنيني ماذا سيفتح صوتها عليّ من انتكاسات صعبة بعد أشهر من غيابها، لا يعنيني إن كنتُ أعالج هذا الصباح، أم أزيده اعتلالاً، لا يعنيني شيءٌ من هذا، حبيبتي العظيمة تموت أمها ولا أعزيها؟ هل يُعقل هذا؟

عليّ أن أتوقف عن تدليل نفسي إلى هذا الحد بتفادي الأحزان، لأني أوشك الآن أن أتفادى إنسانيتي نفسها، وأتجاهل آلام امرأة وحدي أعرف كم أعشقها، وأبقي ذلك اليقين في صدري، ولو بحت به لما صدّقتُ نفسي ربما.

قرّبتُ هاتف المكتب، إن غالية لا تعرفه حتماً، ولو اتصلت من هاتفي الجوال لربما عرفت رقمي فلا ترد، لا أحد يدري هل كانت نقمت عليّ فعلاً أم لا، أو ربما تجاهلتني لأي سبب، فينقلبُ يومي إلى جهنم صغيرة! استخدمتُ هاتف المكتب حتى ألتمس لها عذراً بأنها لا تردّ على الأرقام المجهولة إن لم تشأ الردّ فعلاً، وحتى لا أحزن كثيراً.

مفرطٌ في تدليل نفسي.

نقرتُ أرقامها بأكثر أصابعي شجاعة، ورغم ذلك أغلقت السمّاعة عدة مرات قبل أن يكتمل الرقم بحجة أني ربما أخطأته، ولم أكن كذلك، ولكني أبحث عن حجج صغيرة تؤخّر اتصالي بها لثوان، لأسيطر على توتري.

أخيراً، أكملت الرقم، وبدأت النغمة المتصلة تنبعث معلنةً أنها ترن في الطرف الآخر، بدت لي النغمة التي تعودت أن أجدها

رتيبة وكأنها الموسيقى التصويرية التي تواكب اللقطات الحاسمة من الأفلام، مركّزة جداً على الحدث، على توتري، وخوفي الشديد، واستعدادي الناقص لصوت غالية الذي قد يجيء، وقد لا يجيء.

– آلو؟

– غالية.

– مين؟

– أنا حسان.

قطعنا دقيقتين، نتبادل الأسئلة المعتادة، تلك التي نسألها ونعرف إجابتها، ولكنها تخرج على نمط لا نتعب في تشكيله، أنا الذي لا أملك أن أشكل أي عبارة مبتكرة الآن، وهذه النبرات التي يحملها لي صوت غالية الأليف، تشنقني شنقاً.

– لم أكن أعلم يا غالية...

زفرت غالية مثل أصيلٍ ثقيل:

– الحمد لله على كل حال.

– لم أكن أعلم، صدقيني!

– هل كنت مسافراً؟

– لا.

– جاءت أمك. كيف لم تعلم أنت؟

– لقد أخبرتني بشكل غير واضح، ظننتها امرأةً أخرى، ظننتها جارتنا.

سكتت غالية قليلاً، ربما راحت تختبر مغفرتها مثلاً:

– أنا ظننتك ناقماً عليّ، وصرت تكرهني.

– مستحيل يا حبيبتي، أنقم على ماذا؟

– حصل خير.

– ....

– ... كيف تسير أمورك؟

كلماتٌ ناقصة، وأحاسيس مبتورة أخرى، وانتهت مكالمتنا.

غالية بالذات تدرك جيداً طقوس كلامي، وسرية لغتي، ولا تتركني أهذي وحيداً من دون أن يتحول فمها إلى حقل كلام، غير أنها الآن تخلع الثياب القديمة، وتؤرشف كل الكلمات في طيات ماضٍ يجب أن يذيبه النسيان.

هكذا بررتُ الخسارات المتكررة التي كنتُ أتلقاها كل دقيقة من مكالمتنا التي استغرقت ربع ساعة، كنا نبدو كصديقين جديدين، لم تجمع بينهما وسادة من قبل، ولم تنغمس روحاهما مراتٍ في ماء الحب، إن كان ثمة ماءٍ للحب، لا يتبخر أحياناً.

في آخر المكالمة قالت لي:

– كن بخير يا حسان، وانتبه لنفسك.

– سأكون بخير إذا تيقنتُ أنكِ ستطلبين مساعدتي فور احتياجكِ إليها.

– بالتأكيد يا حسان، ومن غيرك؟

منحتني العبارة الأخيرة حبة أمان، وجنبتني بكاءً مخزياً كان يمكن أن يكون لو انتهت المكالمة على تلك الصفة الباردة التي اكتنفت كل كلماتنا، فقمت بعملي اليومي بهدوء نسبي، بينما رحت أسترجع كل ساعة شريط المكالمة في ذهني عشرات المرات، وكل مرة تتميز منها

عبارة أقلبها على وجهين وثلاثة، وأحاول أن أستشف من ورائها عاطفةً مازلتُ أوقن أن غالية تحتفظ بها لي، لي وحدي.

عندما عدتُ من العمل، قررتُ أن أنام، رغم أني أعرف أني أخلط كل أوراق اليوم هكذا، وأجازف بالبقاء مستيقظاً طوال الليل وحدي، وصوت غالية لا يزال مبلولاً في روحي مثل لثغة طفل منذ الصباح، ولكني أشعر برغبة في دفن سريع لما حدث، أريد أن أفصل بين ما كان في يوم ما، يوهمني أنه كان بالأمس، وما في الأمس يجب أن يُنسى، ويجب أن أعود كما كنت.

تناولتُ أقراص المنوّم فور وصولي، وتناولت طعاماً خفيفاً، ودخلت غرفتي، أطفأت الأنوار، ورحتُ أقرأ في ضوء خافت يجهد العين لعلها تغفو، ونمت فعلاً.

لا أدري كم ساعة استمر نومي، ولكني أفقتُ ثقيل الرأس كعادتي حين أنام إثر أقراص المنوّم، وكان الضجيج القادم من الشارع يشي بأن الوقت لم يتأخر كثيراً، ولم ينتصف الليل بعد، ولأني اعتدتُ منذ طفولتي اعتكار مزاجي إذا نمتُ نهاراً، واستيقظتُ ليلاً، حاولتُ أن أدبر هروباً من ضجر محتمل قبل أن أنهض من سريري.

تحسستُ بيدي هاتفي الجوال، وضغطتُ أزراره التي كانت صامتة، ليومض في وجهي، وعلى شاشته رقمٌ لم يُرد عليه، رقم غالية.

اتكأتُ على مرفقي وأنا أحاول أن أتأكد أنها حقيقة، وأني واعٍ لذلك، ولستُ غارقاً في ضباب النوم، شعرتُ بوجيبٍ شديدٍ في قلبي الذي كان مسترخي النبض، ورحتُ أفتشُ في الجهاز، وكانت غالية قد حاولت الاتصال بي ثلاث مرات، قبل ساعة تقريباً.

ترى ماذا تريد غالية؟ هل اتصلت من أجلي أنا، عاشقها الذي كان، وزوجها الذي لم يكن؟ هل ستقول لي كلاماً كانت تحبسه عني هذا الصباح و لم تستطع إبقاءه محبوساً حتى الليل؟ وكم ستكون خيبتي عنيفة لو أنها تطلبني في شأن عابر، أو ربما أرادت أن تذكرني أنه يجب عدم الاتصال بها مرة أخرى.

لماذا يا غالية أصبحت احتمالاتي معكِ محشوة بالألم؟ أنتِ التي كنتِ حنوناً عليّ أكثر من جفنٍ بعين، أصبح حضوركِ تغلبَ عليه المخاوف السيئة، والهواجس الرديئة. من فعل هذا؟ أأنتِ؟ أم ظروفنا التي انحرفت فجأة من حيث لم نحتسب؟

طلبت رقمها، وسحبتُ لحافي لأخبئ رأسي الملتصق بالهاتف في حيز الظلام الضيق، وأغمضتُ عيني في انتظار صوتها.

لو أن ما تطلبني فيه غالية سيصدمني، سأعود إلى النوم، وسأعتبره مجرد حلم غبي، وربما، ربما أعتقل لحظة جرأة، وأقول لغالية إنني أريد أن أنساها، وإنها ما كان يجب عليها أن تتصل بي أصلاً.

ردت غالية، وجاء صوتها هادئاً، ومن حولها ترتيل قرآن بعيد:

– كنتَ نائماً؟

– أجل.

– ما زال الوقتُ مبكراً.

– نمتُ بعد عودتي من العمل.

صمتنا معاً، وأنا أشعر بأن رياحاً صامتة تهب في المكان، عبر الهاتفين.

هل أرتكب حماقة؟

لم لا؟ لا داعي للأقنعة الكثيرة، أنا غارقٌ في سريري، والظلام دامسٌ، والكلام الذي سأقوله ربما لا يتحول بالضرورة إلى حقيقة واقعية، إذ يخرج في عدمٍ صغير كهذا الذي أصنعه تحت لحافي.

– وحشتيني!

تصمت غالية. توقعتُ هذا، ولكني لن أجعل كلامي مبتوراً لصمتها، اشتياقي إليها ليس ضعيفاً إلى الحد الذي يبتره صمتٌ متوقع، ولأنه قرر المثول كحقيقة، فلا بد أن يكتمل حضوره تماماً.

– غالية، وحشتيني كثير، ما زلت أحبك، أحبك جداً.

وما دام كلامي قد انقسم إلى مستويين، مستوى الاشتياق، ومستوى الحب، فلربما صار أسهل على غالية أن تجاريني في المستوى الأدنى، حتى لا تخسر الكلام، ولا تعتبر نفسها أنها انساقت تماماً وراء مشاعري.

– حتى أنت وحشتني يا حسان.

وأصمتُ أنا هذه المرة، رغم أن ردها كان محرضاً لأن أفتح عليها مصراع الكلام الكثيف، ولكني كنتُ عاجزاً عن صعود العتبة التالية، خائفاً إذا ما صعدتها أن تجبرني غالية على نزولها مرة أخرى.

اخترعت غالية مخرجاً مناسباً من الزاوية الضيقة التي جعلتها فيها، وراحت تحدثني عن ظروف وفاة والدتها، وأيام العزاء، وحضور إخوتها من أبيها الذي لم تره وترهم منذ سنوات، وكنتُ أستمع إلى حكايتها صامتاً.

قطعت غالية صمتي فجأة:

– حسان، أبغى أقول لك شيء مهم.

– ماذا؟

– سأعود إليه.

– من؟

– أبو فيصل.

هزتني المفاجأة، وأخرجتني من الركود الذي جعلتني فيه حكايتها الأخيرة الخالية من ومضات حبنا، وعلاقتنا السابقة.

– لماذا يا غالية؟ كيف؟

– لأني لا أملك إلا أن أعود، هو عرض الأمر قبل فترة.

– ولكنكِ فشلتِ معه، وأنتِ تعرفين أي رجلٍ هو، كيف تراهنين بنفسكِ مرةً أخرى؟

– هذه المرة يبدو منكسراً ووحيداً، وبه ندم.

– ولماذا لم يندم طوال السنوات الماضية؟

– لا يهم يا حسان، فيصل يكبر، وأنا لا أستطيع تربيته وحدي.

– لماذا؟ أنتِ موظفة، ولديك استقلالية تمكنكِ من هذا.

– فيصل يحتاج إلى أكثر من ذلك.

– ولكنكِ تسلِّمين نفسكِ لأقدار سوداء يا غالية.

– حاول أن تتخيّل لي ظروفاً أخرى؟ أنا امرأة وحيدة يا حسان، في مكان لا يقبل الوحيدات أبداً.

– يا غالية، إنه سكّير!

– ....

– غالية هل تسمعينني؟ هل تقبلين الحياة مع سكّير؟

– ما الفرق! وأنا زانية!

تحطّم هذا الإناء بعنف في أرضية مكالمتنا الليلية الخافتة تلك.

تحطّم رافعاً مئات الشظايا قبل أن تهوي لتتحطم هي الأخرى، وكان دويُّها العالي يجبرني على التلثم بالصمت.

الصمت المكبل بلا موعد لصوت لاحق، الصمتُ الأبكم المهجور، ذلك الذي بدأ فعلاً يفاوض معي تهدج الأنفاس، ويساوم دموعي بأمانة.

كلمةٌ أخرى غير هذه يا غالية، رحماكِ!

كلمةٌ أخفُّ زمجرةً من تلك، وأقلُّ عَويلاً في صدري. لماذا هذا الإسراف في سحق النقاش؟ لماذا هذه الفداحة في قتل كل الكلمات الأخرى التي كان يمكن أن تقال، وتعيش حياةً صغيرةً وسط هذا الكلام؟ لماذا هذا الحريق الكبير والمكان مليء بالخشب الجاف أصلاً؟

رغم نبرة صوتها التي كانت متدحرجة نحو البكاء، جاءت عبارتها قاسية جداً، لأن المعنى أبعد من مجرد تأنيب ذاتي، كان أبعد من ندم امرأة أحبها. كانت غالية تقتسم معي جمر الضمير، وتقذف نحوي بنصيبي من الذنوب.

أهكذا إذن كانت تفكر فيّ طوال فراقنا؟ كانت تحاكمني عن بُعد، أنا الذي كنتُ أتسلى بتقديسها أكثر.

الآن، أنا لستُ إلا الطرف الآخر في هذا الزّنا الذي تحدثت عنه.

هل صار اسمه زنا أخيراً يا غالية؟

المشكلة أنه بعد التوبة، يُعادُ تعريف الأشياء، فأخسر حبيبتي.

ويربحها رجلٌ آخر.

هكذا، تتوب فجأة. تقترح ترتيباً معيناً للذنوب، وتشذّب علاقتنا

من كل الأغصان الصغيرة الأخرى التي نمت في عهد الحب، وتبقي العصا جرداء، تقطع بها طريقها وحدها نحو الله، وتنفضني عن بساطها التائب مع بقية الآثام الغزيرة، ولا تعود لي، لأنها تائبة.

ما أسوأ أن تسرق التوبة حبيبتي.

بسببي أنا، بسبب هذا الذنب الذي ارتكبته معها، قررت غالية أن تكسر كبرياءها، وتمشي فوق شظايا أنوثتها المتهشمة نحو الرجل الذي فرّت منه من قبل، الرجل الذي انتزعت نفسها من قلعته بصعوبة كبيرة، صرتُ أنا جنديه الذي أعادها إليه مقيدةً بأغلال الخطيئة، وعاثرةً في عفافها المثقوب!

لماذا لم نتب معاً يا غالية على الأقل؟ لماذا تتعلقين بحبال القدر قبلي، وتتركينني وحيداً على الأرض، أفاوض لعناته المحتملة؟

ولماذا تركتني أعيش فيكِ بشهوة ما دمتِ غير واثقة بثبات قاموسك في الحب، ولا تأمنين على نفسكِ غارة تنزل على قلبكِ، وتأتي بما لم نتوقع، وتغير تعاريف الأشياء التي كانت صديقتنا؟

ولماذا لا تظل الأشياء مرتبطة بالزمن الذي حصلت فيه؟ كان بإمكانكِ أن تتوبي من الآن فصاعداً، وتتركي ما مضى كما كان. لماذا تنسحب توبتكِ بأسمائها الجديدة على الماضي المليء بالحب، فيتعثّر كل شيء، ويتغير، وتُفتَحُ ثقوبٌ كبيرة في جدران لم تعد موجودةً أصلاً؟

صمتُّ طويلاً، طويلاً، تند مني أنفاس مشبعة برائحة البكاء، تشمها غالية حتماً، وتحاول أن تتجاهلها، كما تتجاهل العفيفات بكاء الخاطئين، أو ربما أوحى لها شيءٌ ما بأن حزني ليس أكثر من شيطان مراود.

– حسناً يا غالية، الله يوفقك فيما تريدين.

– ....

– تبين شي؟

– سلامتك.

– مع السلامة.

بمثل هذا الاقتضاب أعيد السيطرة على نفسي، وبتصميم عفوي وليد اللحظة قررتُ أن أكون أنا من ينهي المكالمة، ما دامت هي أنهت كل شيء.

ستظن الآن أني أمارس عادتي القديمة عندما أعتب عليها، وعندما تفكر في كلامنا لن تجد نفسها قد أساءت إلي، وستعرف أن حسان، حبيبها القديم، ما زال مدللاً ونزقاً فقط.

لا يهم!

بعد دقيقتين، بَعَثَتْ لي غالية برسالة قصيرة في الهاتف: "تصبح على خير يا حسان، وانتبه لنفسك كثير، أنت إنسان جميل جداً".

قرأتُ تربيتها المصطنع على قلبي، ومسحتُ رسالتها فوراً، ثم رحتُ أرد عليها برسالة أخيرة: "غفر الله لكِ، بذنوبي الصادقة سأنجو، وبتوبتكِ الخائنة، لا أدري ماذا ستفعلين!"

و لم أر غاليةَ، و لم أسمع منها شيئاً بعد ذلك قط.

IX

عندما دخلتُ غرفتي التي لا تتغير كثيراً، لاحظتُ أن نسخ كتابي خرجت من كرتونها البني، وراحت تنمو مثل الأعشاب المتسلقة قبل أن تتجمد عندما أدركتها عند منتصف الجدار، بجوار الكرسي الصغير الذي ألبس عليه الجورب، والأباجورة التي لم تعرف النور منذ أشهر طويلة، والركن الذي كانت تتجه إليه غالية أحياناً، وتصلي.

تحولت نسخ الكتاب التي أحبسها في الكرتون منذ أن وصلتني إلى ست مسلات فرعونية طويلة، حدها الورقي يواجه الجدار، بينما حدها الذي عليه العنوان يواجهني تماماً، ويتأمل وجهي مثل البغايا. لا أدري لماذا اخترتُ عنواناً كهذا، فيه أربعة أحرف من ذوات الدوائر المغلقة، مما جعلها تبدو وهي متراصة بعضها فوق بعض كأربع أعين خاوية في كل كتاب، بطول ست مسلات من سبعمائة نسخة.

كيف سأتحمل أن تراقبني كل هذه الأعين المطلة من كتابي، من دون أن أشعر بأنني استنفدتُ حيرتي تماماً، وليس عندي جبينٌ آخر؟

أمسكتُ بهاتفي المحمول، ورحتُ أكتبُ الرسالة، وأنا أضغط على كل زر بشدة يئن لها جسده البلاستيكي الضئيل، ويكاد يغوص

في حفرته الصغيرة ويختفي. كنتُ أمعن في ذلك. فهذا حزنٌ يجب أن يحسم الآن، قبل أن يخرب عليّ الهيكل النفسي الآمن الذي بنيته لسنتين، واسعاً مثل مساحة التعب، واهياً مثل حبات الدومينو.

"اشتريتُ كل النسخ التي بقيت في مخازن الناشر، وما زلتُ أحاول جمع البقية، ولا أزال عاجزاً عن تصوركِ وأنتِ تنشرين حزني ويجف، كأني لم أكن إلا سجادة عتيقة... خربتِ كل شيء!"

دسستُ رقم غالية في المستطيل المضيء، وتركتُ الرسالة يمتصها الأثير بهدوء، ويبعث بها إليها.

رحتُ أتأمل الكتب مرة أخرى، وهي مرصوصة أمامي مثل عملاق مشلول. ترى ماذا يمكنني أن أفعل بها؟ عندي رغبةٌ ضائعة أن أطلق عليها حكم الإعدام، وأحرقها في أي أرض خالية، ولا أبالي. فأنا الضحية هنا، والجلاد، والحكومة، ولا يمكن أن يعترض أحدٌ على جريمة شخصية بحت كهذه.

كان صعباً عليّ أن أتصور أن كتابةً وزنتُها وزناً، وعلقتها في الإنترنت، ونسيتها مثلما ننسى مشابك الغسيل على الحبال القديمة، سوف تعود لتلتصق بوجهي مثل وشم مخجل! لم أكن مستعداً لهذا الكتاب مهما كانت المبررات التي يمكن أن تفترضها غالية لتبرر بها سخافة نشر كتاب يحمل اسمي، ولا يحمل اسمها أبداً. وكل ما فيه، حالات كاريكاتورية باكية لرجل يركض وهو أعمى، باتجاه امرأة ركبت سيارتها منذ زمن ومضت، تاركة له الغبار والحنق.

ألأني ألقيتُ عكاز الحزن، وعدتُ أمشي صحيحاً مثل الأسوياء أرادت أن تذكرني كم كنتُ أعرج وأحبها؟

أو ربما تسربت إليها، من مسربٍ ما، علاقتي بإحدى الفتيات الثرثارات، فأرادت أن تعيد النفخ في الأبواق القديمة، حتى يعكر عليّ الضجيج صفو الجسد، ما دامت هي لم تترك في قلبي شجناً كافياً يعكر هذا الصفو وحده؟

أو ربما تعتقد غالية أنها بعدما نالت مني كل هذا الحب، بقي أن تنال أيضاً كل هذا الحزن، وتخلده في التاريخ الضئيل الذي بيننا. النساء يحببن أن يجمعن شهادات جميلة مثل هذه أحياناً، تشهد أنهن لم يعبرن الحياة بشكل عادي، بل كن جديرات بأن يتسببن في بعض الحب، وبعض الحزن.

خلعتُ ثوبي واستلقيتُ على السرير. كتبتُ مرة أخرى "لعلمكِ، حزني حالة شخصية جداً، لا علاقة لها بكِ، بحبكِ، بحجمكِ. أنا رجلٌ قررتُ أن أحزن، وحزنت، وقررت أن أكف عن حزني، وكففت، وهذا الرقص المتأخر منكِ، لا يغير الكثير"، ووضعت إشارة الابتسام الهادئة، وتركتُ الرسالة تلحق سابقتها، وفتحتُ ذراعي فوق السرير، مثل صليب.

بعض القسوة لذيذ، وأحياناً لا يبقى إلا هي في خزانة الأدوية. لو أني عاملتُ غالية والجورية منذ البداية مثل بقية الفتيات، لربما أصبحتا، طوعاً، مثلهن، ولكني أنا الذي كنتُ أحاول تجريب مساحات مختلفة من علاقتي بالمرأة، وألعب في مناطق محظورة، لا أعرف قوانينها، ولا شروطها العشوائية.

كان من الممكن جداً أن تكون العلاقتان عاديتين جداً. غالية التي كان يمشطها الجوع بعد انفصالها عن زوجها الأول، ألم تكن لتجد

معي مطعماً حنوناً، من ذوي القربى، يمتّعها بهدوء، ولا يفضحها، ولا يؤذيها؟ بالتأكيد، وأنا أجيد هذا اللعب الهادئ، فلماذا فرضنا الحب فرضاً في منتصف الظروف، ورحنا نطرز الحلم السخيف بسذاجة راعيي غنم في قصة قروية ما؟

لقد عرّضتُ نفسي للحمّى. أنا الذي خرجتُ إليها بصدر مكشوف، وكأني اعتقدتُ أن قلبي قوي مثل جسدي، وخبير مثل يدي، وهي التي وجدت أمامها قلباً مكشوفاً فلم تتوان أن تنزل عليه مثل ذبابة. زوج عاشق، أفضل من عشيق عابر، وفي المعادلة طرفٌ يجعلها أكثر رجحاناً، وجاذبية لها. طرف المرأة المطلقة، وأم الطفل، وما زلت في العشرين.

اللعنة، كم كنتُ سائغاً، ولذيذاً، وطيباً، ومبذراً في الحزن.

انسقتُ بهدوء وراء حلمها هي، وليس حلمي، وعندما انثنيتُ فعلاً بين يديها مثل معدن مطيع، إذا بها تتذكر فجأة أنها لم ترتب منذ فترة طويلة قائمة أولوياتها، وأن هناك من هم قبلي في هذه القائمة: الضمير، والطفل، والمجتمع...، تذكّرَتهم فجأة عندما دقّ جرس التحدي الأول، فهرعت إليهم وتركتني وحيداً، عاشقاً مكتمل العشق، وزوجاً مكتمل الحلم، وابناً خائباً لأبوين منكسرين على حافة الفرح، وأباً ناقصاً لمضغة مجهضة مرمية في قمامة مستشفى.

لقد تركتني كأسوأ ما يمكن أن تخلفه امرأة وراءها، مجرد معدن مثني، على جانب الطريق.

وعندما أفقتُ من كل هذه الحقن السامة، وراحت قطعة المعدن المثنية تعدل نفسها بصعوبة، بعد أن ظلت على حالتها المهينة تلك

سنتين، كانت تحاول أن تستقيم مرة أخرى، مستعينة بالكثير من العلاج، والكتابة، والقلق، وهوان الدخول على طبيب نفسي، حتى صرتُ متماسكاً، وعادياً مرة أخرى. وبعد هذا كله، عادت غالية بهذا الشكل السينمائي، تنشر كتاباً كبيراً كل ما فيه يقول إني أحبها، أحبها، أحبها، ووضعت اسمي فوقه وكأنها تحتكر اسمي مثل العقود الفنية.

ارتسمت على فمي ابتسامة ازدراء وألم. وشعرتُ أن أفكاري تنز من سطح عقلي، وتجف عليه مثل العرق، تاركةً ملحاً، وألماً، وقرفاً، وصوراً كثيرة للنساء، يقفن أمام وجهي مثل بنات الكوتشينة ذوات الوجوه المثلثة، والأجساد الناقصة، والأعين التي لا تنظر إلى شيء. نساءٌ يردن أن يكتملن فقط، حتى لو سرقن أجساد الآخرين، وتراجعن في منتصف الطريق، وتزيَّين بحزن مخطوف من كتاب ما.

قررتُ أن أستحم، وأحتفل مع الماء بالعودة إلى مشروعي النفسي المتماسك، والنجاة من حفرة أنثوية كبيرة حفرتها لي غالية، بيديها الحانيتين، وقلبها المعقوف كمجرفة صغيرة. تكفيني السنتان اللتان مرتا وأنا أفترض أن غالية أعظم حزناً، فلا ألومها على شيء. "الفتاة التي انكسر حلمها فجأة مثل قطعة خزفية، المرأة الضعيفة التي مزقتها أيدي قطّاع الأمل، وحرمتها باب الجنة المفتوح. أنا أتحمّل لأني رجل، ولكن كيف بها هي!" كان عقلي يمشي إلى الخلف، لأني كنتُ معطوباً ومغفلاً، أنمو مثل نبتة عمياء باتجاه الضوء فقط، ولا أعرف أني خرجتُ عن مساري منذ أشهر طويلة، منذ أن بكيتُ على غالية لأول مرة، بينما راحت هي تمحوني ببطء، وتلغيني بآلية، مثلما نلغي

البرامج التي اتضح أنها لم تتصالح مع أجهزتنا، ثم تعود إلى حياتها السابقة، كما كانت بالضبط، قبل أن أرسل إليها أول بريد.

قبل أن أدخل إلى الحمّام، كتبتُ لها رسالة أخرى "ألم يبق في تسريحتك مستحضر زينة آخر، غير حزني!"، ورميتُ الهاتف على السرير بخفة، وخلعتُ ثيابي وأنا أشعر بموجات هادئة تركب أعصابي، ودوامة دافئة تدور داخل عقلي، والكثير من الأفكار الآمنة تربّتُ صدري، وتغذي هذا الإيمان الوليد.

سواء أكانت نياتها بهذا الشكل الملطخ الذي أتصوره الآن، أو كانت غير ذلك. لقد تصرفت غالية بشكل خاطئ، وتجاوزت حدودها في التعامل مع اسمي، وكلماتي، وعليها أن تدفع أحد الثمنين، صفاقتها أو سذاجتها. كلاهما يستحق عقاباً صغيراً، ورسائل جوال قارصة.

إذا كانت تريد أن تغيب تماماً كما قررت من قبل، فعليها أن تكون بحجم الغياب، أما أن تعبث بحزني من دون أن أشعر بها، فهذا أمرٌ يستفز الأعصاب فعلاً!

كم يبدو الغضب آمناً ومتعاوناً هذه المرة. ربما كان الغضب هو المضاد الحيوي المناسب لحالات الحزن المزمنة. على الحزانى أن يتعلموا كيف يغضبون في الاتجاه المناسب، والوقت المناسب، فوحده هذا الغضب الآمن يعيد ترتيب الدماء، ورصف القلب، وإعادة الأمور إلى نصابها بعد أن التوت على نفسها مثل العظام المشوهة. كان عليّ أن أغضب من أول يوم أخبرتني فيه غالية أن زواجنا لن يكتمل، بدلاً من محاولة احتوائها مثل درع غبية. أخبرتني بهذا القرار في غمرة الانهيار والبكاء حتى لا أجد مناصاً من أن أتحول إلى "ماكنة" بشرية للتربيت،

والضم، والتهدئة، والاحتواء، بينما دموعي تتجمد خلف جفني لأنها لا يجدر بها أن تختلط بدموعها، فدموع غالية لها الأولوية دائماً.

كان يجب أن أخبرها أني عزيزٌ عند نفسي، وعندي أبي، وأمي. وأستحقُّ منها أن تتحمل ثكلاً موقّتاً كهذا الذي كان يهددها به زوجها السابق. وكان يجب أن أخبرها أن عليها أن تقوم بالكثير من أجلي قبل أن تبدأ في البكاء، وندب الحظ، وافتعال الضعف. هناك واجباتٌ كثيرة غير مكتملة في دفتر الطالبة الجميلة لم تكتبها بعد، ولم تحملها إلى قلبي مهراً معنوياً، يجعل الأمور متكافئة ومتزنة على الأقل.

كنتُ أستمتع بقطرات الماء تغسل جسدي وقلبي من درن الحزن، وأراه يتجمع في دوائر زيتية، ويضيع في هدير الماء.

سمعتُ هاتفي يرنُّ في الغرفة، وراح رنينه يتصاعد، وقد أغمضتُ عيني، وتمددتُ بهدوء.

كان يرنّ بإلحاح، ولم تكن لدي رغبة في الردّ عليه...

أبداً!

بورتلند

مايو 2007

الموقع الشخصي للمؤلف

www.alalwan.com